

شرح الطحاوية

في العقيدة السلفية

تأليف

العلامة علي بن علي بن محمد بن أبي العز

٧٣١ - ٧٩٢

قوبلت على نسخة أشرف على طبعها الأستاذ العلامة

أحمد شاكر

رحمه الله

الناشر

زكريا علي يوسف

مطبعة الامتياز - ١٥ درب الأنسية

شارع الدرب الأحمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على أشرف المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين محمد عبد الله ورسوله الهادى الأمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

ظهر هذا الكتاب القيم — قبل هذه الطبعة — فى طبعتين الأولى سنة ١٣٤٩ هـ بمكة ، والثانية بمصر بتحقيق أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد شاكر ، وقد جاء فى مقدمتها :

هذا شرح نفيس للعقيدة السلفية التى كتبها « الطحاوى » والإمام العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المصرى الحنفى ، وهو إمام ثقة جليل ولد بمصر سنة ٢٣٧ ومات بها سنة ٣٢١ هـ رحمه الله .

ومخطوطة الشرح التى وجدت كانت غفلا من اسم المؤلف فلم يعرف عند طبع الطبعة الأولى من هو .

ولكن الشرح نفيس ، وأبحاثه دقيقة عميقة ، وتحقيقاته بديعة متقنة ، يندر أن يؤلف مثله ، فى التزامه مذهب السلف الصالح .

وقبيل الطبع أرشدنى الأستاذ العالم الجليل النبيل صاحب السعادة الشيخ محمد نصيف عالم جدة وعين أعيانها — إلى ما أزال الخفاء عن اسم مؤلف هذا الشرح ، وذلك بأن أحالنى على كتاب نقل جملة أسطر من هذا الشرح ، وصرح باسم مؤلفه فرجعت إليه فوجدت الأمر كما قال ، فجزاه الله خير الجزاء ، وكم له على العلم والعلماء من أياد بيضاء . ا هـ بتصرف .

والناشر يقدم وافر الشكر للأستاذ عبد القادر التركى الطالب بالأزهر على أنه أعارنا نسخته التى حققها الشيخ أحمد شاكر للمقابلة عليها ؟

زكريا على يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

(أما بعد) فانه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، ولهذا سمى الإمام أبوحنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه فى أوراق من أصول الدين « الفقه الأكبر » وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين ، وإليه داعين ، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم : معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان (أحدهما) تعريف الطريق الموصل إليه وهى شريعته المتضمنة لأمره ونهيه (والثانى) تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم .

فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل إليه ، وأعرفهم بحال

السالكين عند القدوم عليه . ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله روحاً لتوقف الحياة الحقيقية عليه . ونوراً لتوقف الهداية عليه ، فقال الله تعالى : (يلقى الروح من أمره على من يشـاء من عباده) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) ولا روح إلا فيما جاء به الرسول ، ولا نور إلا فى الاستضاءة به . وهو الشفاء كما قال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) فهو وإن كان هدى وشفاء مطلقاً ، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين خصوا بالذكر .

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق . فلا هدى إلا فيما جاء به ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملا . ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية ، فإن ذلك داخل فى تبليغ ما بعث الله به رسوله ، وداخل فى تدبر القرآن وعقله وفهمه وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإلى سبيل الرب بالحكمه والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب على الكفاية منهم .

وأما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم(١) وحاجاتهم ومعرفتهم وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك ، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها . ويجب على المفتى والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغى أن يعرف أن عامة من ضل فى هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق ،

---

(١) بضم القاف وفتح الدال .

فإنما هو لتفريطه فى اتباع ما جاء به الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته. فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى: (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى.

قال ابن عباس رضى الله عنه تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ثم قرأ هذه الآية كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص) وأنها ستكون فتن، قلت فما المخرج منها يا رسول الله، قال «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به أهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضى عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى.

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا يدينون به إلا أن يكون موافقا لدينه الذى شرعه على ألسنة رسله.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون. بقوله سبحانه (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب. ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد.

ومضى على ما كان الرسول (ص) خير القرون وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان يوصى به الأول الآخر، ويقتدى فيه اللاحق بالسابق،

وهم فى ذلك كله بنبيهم محمد «ص» مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، كما قال تعالى فى كتابه العزيز (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) فان كان قوله (ومن اتبعنى) معطوفا على الضمير فى (أدعو) فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم، وكلا المعنيين حق.

وقد بلغ الرسول «ص» البلاغ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين، وسلك سبيله خير القرون.

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم وافترقوا فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم».

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى تغمده الله برحمته بعد المائتين فان مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ونقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفى وصاحبيه أبى يوسف يعقوب ابن إبراهيم الحميرى الأنصارى ومحمد ابن الحسن الشيبانى رضى الله عنه ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين.

وكلما بعد العهد ظهرت البدع، وكثر التحريف الذى سماه أهله تأويلا ليقبل وقل من يهتدى إلى الفرق بين التحريف والتأويل، إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ فى الجملة تأويلا، وإن لم يكن ثم قرينة توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فاذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدى إلى الفرق بينهما.

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة ودفع الشبه الواردة عليها،

وكثر الكلام والشغب ، وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شبه المبطلين وخوضهم فى الكلام المذموم الذى عليه السلف ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به ، والاصغاء اليه امتثالا لأمر ربهم حيث قال — (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) فإن معنى الآية يشملهم .

وكل من التحريف والانحراف على مراتب فقد يكون كفراً ، وقد يكون فسقاً وقد يكون معصية وقد يكون خطأ .

فالواجب اتباع المرسلين واتباع ما أنزل الله عليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء وأنزل عليه الكتاب والحكمة وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين الجن والانس ، باقية إلى يوم القيامة وانقطعت به حجة العباد على الله وقد بين الله به كل شيء وأكمل له ولأمته الدين خبراً وأمراً (١) وجعل طاعته طاعة له ، ومعصيته معصية له . وأقسم بنفسه أن لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم ، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول ، وهو الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله صدوا صدوداً ، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحسانا وتوفيقاً كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها أى ندركها ونعرفها ونريد التوفيق بين الدلائل التى يسمونها العقليات ، وهى فى الحقيقة جهليات ، وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول ، أو نريد التوفيق بين التشريع والفلسفة وكما يقوله كثير من المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة إنما نريد الأعمال بالعمل الحسن والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل الذى يسمونه حقائق وهى جهل وضلال وكما يقول كثير من المتملكة والمتأثره إنما نريد الاحسان بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك .

فكل من طلب أن يحكم فى شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن

---

(١) قوله خبراً وأمراً الخبر هو توحيد الربوبية وتوحيد الاسماء والصفات والأمر هو توحيد الإلهية ، انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين .

إن ذلك حسن وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه ، فله نصيب من ذلك ، بل ما جاء به الرسول كاف كامل يدخل فيه كل حق .

وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين اليه فلم يعلم ما جاء به الرسول فى كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ، ولا فى كثير من الاحوال العبادية ولا فى كثير من الإمارة السياسية أو نسبوا إلى شريعة الرسول بظنهم وتقليدهم ما ليس منها وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها .

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم ، كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة .

بل إنما يكون البحث التام والنظر القوى والاجتهاد الكامل فيما جاء به الرسول «ص» ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهراً وباطنا فيكون قد تلا الحق تلاوته وأن لا يهمل منه شيء .

وأن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعض ذلك أو العمل به فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول ، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه ، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به ويرضى بذلك ، ويود أن يكون قائما به ، وأن لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه ، بل يؤمن بالكتاب كله ، وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه من رواية أو رأى ، أو يتبع ما ليس من عند الله اعتقاداً أو عملا كما قال تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

وهذه كانت طريقة السابقين الأولين وهى طريقة التابعين لهم باحسان إلى يوم القيامة وأولهم السلف القديم من التابعين الأولين . ثم من بعدهم ، ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالإمامة .

فمن أبى يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسى : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم وإذا صار الرجل رأساً فى الكلام قيل زنديق أو رمى بالزندقة ، أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته ، فان ذلك علم نافع أو أراد به الاعراض عنه أو ترك الالتفات إلى اعتباره فان ذلك يصون علم الرجل وعقله ، فيكون عليما بهذا الاعتبار والله أعلم .

وعنه أيضاً أنه قال : من طلب العلم بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيميا أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حكى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . وقال أيضا رحمه الله شعراً .

كل العلوم سوى القرآن مشغلة　　إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا　　وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب في الفتاوى أنه لو أوصى لعلماء بلده ، لا يدخل المتكلمون وأوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم ، فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام . ذكر ذلك بمعناه في الفتاوى الظهيرية ، فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول ، ولقد أحسن القائل :

أيها المقتدى ليطلب علماً　　كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح أصلا　　كيف أغفلت علم أصل الأصول

ونبينا (ص) أوتى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والأخروية على أتم الوجوه ، ولكن كل ما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها ، فلذلك صار كلام المتأخرين كثير قليل البركة بخلاف المتقدمين فانه قليل ، كثير البركة ، لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم أن طريقة القول أسلم ، وأن طريقتنا أحكم وأعلم ، ولا كما يقوله من لم يقدرهم من المنتسبين إلى الفقه أنهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالا منهم بغيره . والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعمق علومهم ، وقلة تكلفهم وكمال بصائرهم . وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها ، وشد معاقدها ، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء . فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن آخر ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ، ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم ، وتكلم بعباراتهم .

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل .

بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق . ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة ، ولهذا لا تجدعند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علمائهم . ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر الكلام وانتشر القيل والقال وتولدلهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح ، والعقل الصريح ، ما يضيق عنه المجال ، وسيأتى لذلك الكلام زيادة بيان عند قوله : فمن رام علم ما حظر عليه علمه ،

وقد أحببت أن أشرحها سالكا طريق السلف فى عباراتهم ، وأنسج على منوالهم متطفلا عليهم ، لعلى أن أنظم فى سلكهم ، وأدخل فى عدادهم ، وأحشر فى زمرتهم (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار آثرته على التطويل والإسهاب (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قوله (نقول فى توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له)

ش : أعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ، قال تعالى (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال هود عليه السلام لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال صالح عليه السلام لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال شعيب عليه السلام لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا

فاعبدون) وقال صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله لا النظر ولا القصد إلى النظر ، ولا شك كما هى أقوال لأرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه ، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك ، ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين وإن كان الاقرار بالشهادتين واجبـــاً باتفاق المسلمين ووجوبه يسبق وجوب الصلاة ، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك .

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين أو أتى بغير ذلك من خصائص الاسلام ولم يتكلم بها هل يصير مسلما أم لا ؟ فالصحيح أنه يصير مسلماً بكل ما هو من خصائص الإسلام ، فالتوحيد أول ما يدخل فى الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وهو أول واجب وآخر واجب .

فالتوحيد أول الأمر وآخر توحيد الإلهية ، فان التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع (أحدها) الكلام فى الصفات (والثانى) توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء (والثالث) توحيد الالهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له .

أما (الأول) فان نفاة الصفات أدخلوا نفى الصفات فى مسمى التوحيد كالجهم بن صفوان ومن وافقهم فانهم قالوا إثبات الصفات تستلزم تعدد الواجب وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة فان إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود فى الخارج ، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، وهذا غاية التعطيل ، وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد ، وهو أقبح من كفر النصارى ، فان النصارى خصوه بالمسيح ، وهؤلاء عموا جميع

المخلوقات ومن فروع هذا التوحيد أن فرعون وقومه كاملوا الإيمان عارفون بالله على الحقيقة . ومن فروعه أن عباد الأصنام على الحق والصواب ، وأنهم إنما عبدوا الله لا غيره ، ومن فروعه أنه لافرق فى التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية ، ولا فرق بين الماء والخمر والزنا والنكاح ، الكل من عين واحدة لا بل هو العين الواحدة ومن فروعه أن الأنبياء ضيقوا على الناس . تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

وأما (الثانى) وهو توحيد الربوبية كالاقرار بأنه خالق كل شىء ، وأنه ليس العالم صانعان متكافيان فى الصفات والأفعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية . وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بنى آدم بل القلوب مفطورة على الاقرار به أعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض) .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع فرعون وقد كان مستيقناً به فى الباطن كما قال موسى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وقال الله تعالى عنه وعن قومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا) ولهذا لما قال : وما رب العالمين ، على وجه الانكار له تجاهل العارف قال له موسى (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) .

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية وأن المسئول عنه لما لم يكن له ماهية عجز موسى عن الجواب ، وهذا غلط ، وإنما هذا استفهام انكار وجحد كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له ، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته ، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو ، بل أنه سبحانه أعرف وأظهر

وأبين من أن يجهل ، معرفته مستقرة فى الفطر أعظم من معرفة كل معروف .

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال أن العالم له صانعان متماثلان فى الصفات والأفعال . فان الثنويه من المجوس والمانوية القائلين بالاصلين النور والظلمة وإن العالم صدر عنهما ، متفقون على أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود ، وإن الظلمة شريرة مذمومة ، وهم متنازعون فى الظلمة هل هى قديمة أو محدثة فلم يثبتوا ربين متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون على أن صانع العالم واحد ، ويقولون باسم الابن والآب والروح القدس إله واحد ، وقولهم فى التثليث متناقض فى نفسه ، وقولهم فى الحلول أفسد منه ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه وفى التعبير عنه لا يكاد أحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول ، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد ، فإنهم يقولون هو واحد بالذات ، ثلاثة بالاقنوم . والاقانيم يفسرونها تارة بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالأشخاص . وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام وبالجملة فهم لا يقولون باثبات خالقين متماثلين .

والمقصود هنا أنه ليس فى الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين مع أن كثير من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا فى اثبات هذا المطلوب وتقريره ومنهم من اعترف بالعجز عن تقريره هذا بالعقل وزعم أنه يتلقى من السمع .

والمشهور عند أهل النظر اثباته بدليل التمانع وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه ، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته . فاما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما ، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين . والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ، ويستلزم أيضا عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلها . وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر ، والآخر عاجزاً لا يصلح للالهية .

وتمام الكلام على هذا الأصل معروف فى موضعه .

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذى قرروه يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها .

وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان فيما يقال من هذا الباب ، وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم .

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع ، وانه ليس للعالم صانعان ولكن اتخذوا هذه الوسائط شفعاء كما أخبر عنهم تعالى بقوله (ويعبـــدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل . كما حكى الله تعالى عنهم فى قصة صالح عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله أى تحالفوا بالله لنبيتنه وأهله ، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله وهذا يبين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين .

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذى يتضمن توحيد الربوبية قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إلى قوله (إذا هم يقنطون) وقال تعالى (أفى الله شك فاطر السموات الأرض) وقال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ولا يقال أن معناه يولد ساذجاً لا يعرف توحيداً ولا شركا ، كما قاله بعضهم ، لما تلونا ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : « خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين » الحديث . وفى الحديث المتقدم ما يدل على ذلك حيث قال « يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ولم يقل « ويسلمانه » وفى رواية يولد على الملة وفى أخرى على هذه الملة .

وهذا الذى أخبر به صلى الله عليه وسلم هو الذى تشهد الأدلة العقلية بصدقه منها أن يقال لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والارادات ما يكون حقاً ، وتارة ما يكون باطلا ، وهو حساس متحرك بالإرادات ولا بد له من أحدهما ، ولا بد له من مرجح لأحدهما ، ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع ، وأن يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع . وحينئذ فالاعتراف بوجوب الصانع والإيمان به هو الحق أو نقيضه ، والثانى فاسد قطعاً فتعين الأول ، فوجب أن يكون فى الفطرة ما يقتضى معرفة الصانع والإيمان به ، وبعد ذلك إما أن يكون محبته أنفع للعبد أو لا . والثانى فاسد قطعاً فوجب أن يكون فى فطرته محبة ما ينفعه .

ومنها أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسه . وحينئذ لم تكن فطرة كل أحد تستقل بتحصيل ذلك بل تحتاج إلى سبب معين للفطرة كالتعليم ونحوه ، فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضى لذلك .

ومنها أن يقال من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ، ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن فى النفس قوة تقبل ذلك وإلا فلو علم الجمال والبهائم وحضضا لم يقبلا . ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج ويكون الذات كافية فى ذلك ، فإذا كان المقتضى قائماً فى النفس ، وقدر عدم المعارض ، فالمقتضى السالم عن المعارض يوجب مقتضاه ، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له .

ومنها أن يقال أنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح لأن المقتضى فيها للعلم والإرادة قائم والمانع منتف .

ويحكى عن أبى حنيفة رحمه الله أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير توحيد الربوبية فقال لهم : أخبرونى قبـــل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسى وتفرغ وترجع ، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد

أحد ، فقالوا هذا محال لا يمكن أبداً ، فقال لهم إذا كان هــذا محال فى سفينة فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله ، وتحكى هذه الحكاية أيضا عن غير أبى حنيفة .

فلو أقر الرجل بتوحيد الربوبية الذى يقر به هؤلاء النظار . ويفنى فيه كثير من أهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين كما ذكره صاحب منازل السائرين وغيره ،وهو مع ذلك أن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين .

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له . ومن ذلك أنه يقرر توحيده الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله فيجعل الأول دليلا على الثــانى ، إذ كانوا يسلمون الأول وينازعون فى الثانى ، فيبين لهم سبحانه إنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده وأنه هو الذى يأتى العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له فى ذلك ، فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى ، قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) الآيات .

يقول الله تعالى فى آخر كل آية (أإله مع الله) أى أإله مع الله فعل هذا، وهذا استفهام إنكار يتضمن نفى ذلك وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غــير الله فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى أنه استفهام هل مع الله إله كما ظنه بعضهم لأن المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى (إنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد) . وكانوا يقولون (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب) وكانوا يقولون معــه إله (أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا) بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات وكذلك قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم

والذين من قبلكم لعلكم تتقون) وكذلك قوله فى سورة الأنعام (قـــل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) وأمثال ذلك .

وإذا كان توحيد الربوبية الذى يجعله هؤلاء النظار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية فى التوحيد داخلا فى التوحيد الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، فليعلم أن دلائله متعددة كدلائل اثبات الصانع ودلائل صدق الرسول فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر ، ورحمة من الله بخلقه .

والقرآن قـــد ضرب الله للناس فيه من كل مثل وهى المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق فى الحكم والدليل . فاذا بعد الحق إلا الضلال ، وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها استدل بها ولم يحتج إلى الاستدلال عليها ، والطريقة الفصيحة فى البيان أن تحذف وهى طريقة القرآن بخلاف ما يدعيه الجهال الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع فانه يبينه ويدل عليه .

ولما كان الشرك فى الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالق خلق بعض العالم كما يقوله الثنوية فى الظلمة وكما يقوله القدرية فى أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفة الدهرية فى حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية ، فان هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها فهم مشركون فى بعض الربوبية وكثير من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته شيئا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك فى الربوبية موجودا فى الناس بين القرآن بطلانه كما فى قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بمـــا خلق ولعلا بعضهم على بعض) فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فان الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعـــلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إلها آخر يشركه فى ملكه لكان له

خلق وفعل . وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه ، فلا بد من أحد ثلاثة أمور : إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض . وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه .

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد ، لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه ، كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه ، فذلك تمانع فى الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع فى العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافيان ، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان .

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر فى الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه ، فكذا تبطل إلهية اثنين ، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر فى الفطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذى تقدم ذكره وهو أنه لو كان للعالم صانعان الى الخ . وغفلوا عن مضمون الآية فانه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره ، ولم يقل أرباب ، وأيضاً فان هذا إنما هو بعد وجودهما ، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا ، وأيضا فانه قال لفسدتا ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل لم يوجدا ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الاله إلا واحد ، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الاله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة ، ومن كون الاله الواحد غير الله ، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الاله فيهما هو الله وحده لا غيره ، فلو كان للعالم إلهان

معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعــــدل وبه قامت السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد .

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس(١) فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها قال تعالى: (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون) وقال تعالى(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وقال تعالى (قل لو كان معــه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العــرش سبيلا) وفيها للمتأخرين قولان .

(أحدهما) لاتخذوا سبيلا إلى مغالبته (والثاني) وهو الصحيح المنقول عن السلف كقتادة وغيره وهو الذي ذكره ابن جرير لم يذكر غيره لاتخــــذوا سبيلا بالقرب إليه كقوله تعالى (أن هــذه تذكرة فمن شاء اتخـذ إلى ربه سبيلا) وذلك أنه قال لو كان معه آلهة كما يقولون وهم لا يقولون أن العالم له صانعان بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلـفى بخلاف الآية الأولى .

---

(١) قوله وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس وقد تقدم من كلامه أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية فالمعنى أن الاستلزام غير التضمن فمن لازم الاقرار بتوحيد الربوبية وأن الله هو الذي تفرد بالخلق والرزق والإحيـاء والإماتة الإقرار بتوحيد الألوهية وأنه هو المعبود المرجو المسئول وحده دون من سواه، وأما التضمن فلا يقال أن الإقرار بتوحيد الربوبية يتضمن توحيد الألوهية لا بالعكس . انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين .

أنواع التوحيد الذى دعت اليه الرسل

ثم التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد فى الإثبات والمعرفة ، وتوحيد فى الطلب والقصد .

(فالأول) هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ليس كمثله شيء فى ذلك كله كما أخبر به عن نفسه ، وكما أخبر رسوله (ص) وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الافصاح كما فى أول الحديد وطه وآخر الحشر ، وأول ألم تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك .

(والثانى) وهو توحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنته سورة (قل يا أيها الكافرون . وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها ، وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعى التوحيد بل كل سورة فى القرآن . فان القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمى الخبرى . وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادى الطلبى وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة وهو جزاء توحيده . وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما فعل[1] بهم فى العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

---

(١) عبر بصيغة الماضى عما سيكون لأنه محقق الوقوع .

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم فالحمد لله رب العـــالمين توحيد الرحمن الرحيم ، توحيد أهدانا الصراط المستقيم ، توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيـد الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضـلال ، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به .

وعبارات السلف فى « شهد » تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والأخبار ، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها فان الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن اعلامه وأخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب : (فأول مراتبها) علم ومعرفة واعتقاد اصحة المشهود به وثبوته (وثانيها) تكلمه بذلك وان لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها . (وثالثها) أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له (ورابعها) أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هـذه المراتب الأربع ، علمه بذلك سبحانه وتكلمه به واعلامه وأخبـــاره لخلقه به وأمرهم والزامهم به .

فأما مرتبة العلم فان الشهادة تضمنتها ضرورة والا كان الشاهد شاهداً بما لاعلم له به قال تعالى (الا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال (ص) «على مثلها فاشهد» وأشار الى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) فجعل ذلك منهم شهادة

وان لم يلتفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الاعلام والإخبار فنوعان : اعلام بالقول ، واعلام بالفعل وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر تارة يعلمه به بقول وتارة بفعل . ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأبرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلما أنها وقف وان لم يتلفظ به ، وكذلك من وجد متقربا إلى غيره بأنواع المسار يكون معلما له ولغيره أن يحبه وان لم يتلفظ بقوله ، وكذلك بالعكس ، وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه .

وأما بيانه واعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله الا هو ، وقال آخر :

وفي كل شيء له آية　　　تدل على أنه واحد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه .

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه ودلالتها انما هي بخلقه وجعله .

وأما مرتبة الأمر بذلك والالزام به وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ، فانه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده به كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه) وقال الله تعالى (لا تتخذوا إلهين اثنين) * وقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين — وما أمروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً) * وقال تعالى * (لا تجعل مع الله إلها آخر) * وقال تعالى * (ولا تدع مع الله إلها آخر) * والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه باطلة

فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً ، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلها ، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفى والإثبات كما إذا رأيت رجلا يستفتى رجلا أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلا لذلك ويدع من هو أهله فتقول هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتى فلان والشاهد فلان والطبيب فلان ، فان هذا أمر منه ونهى .

وأيضاً فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة ، فاذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الاخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم .

وأيضاً فلفظ الحكم والقضاء يستعمل فى الجملة الخبرية ويقال للجملة الخبرية قضية وحكم ، وقد حكم فيهـا بكذا قال تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون — اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون) فجعل هذا الاخبار المجرد منهم حكما وقال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) لكن هذا حكم لا إلزام معه .

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو هو متضمن الالزام ، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها ولم ينتفعوا بها ، ولم تقم عليهم بها الحجة بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به ، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها لم ينتفع بها أحد . ولم تقم بها حجة .

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه وتعالى قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

أما السمع فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلهـا الوحدانية وغيرها غاية البيان لا كما يزعمه الجهميـة ومن وافقهم من المعتزلة ، ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع فى الحيرة تنافى البيان الذى وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم (ص) كما قال تعالى (حم والكتاب المبين — الم ، تلك آيات الكتاب المبين — الم تلك آيات الكتاب وقرآن مبين — هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين — فاعلموا إنما على رسولنا البلاغ

المبين ـ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) * وكذلك السنة تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن ، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان ولا إلى ذوق فلان ووجده في أصول ديننا . ولهذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين . بل قد قال تعالى * (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فلا يحتاج في تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة .

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو جعفر الطحاوي فيما يأتي من كلامه بقوله لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا فانه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله «ص» .

وأما آياته العيانية الخلقية فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية ، والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته واحسانه وحكمته ومحبته للعذل وإقامة الحجة لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به قال تعالى * (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) * وقال تعالى * (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم ، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) * وقال تعالى * (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) وقال تعالى * (فان كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المبين) * وقال تعالى * (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) * حتى أن من أخفى آيات الرسل آيات هود حتى قال له قومه يا هود ما جئتنا ببينة ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها ، وقد أشار اليه بقوله * (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها أن ربي على صراط مستقيم) *

فهذا من أعظم الآيات أن رجلا واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فزع ولا خوار ، بل هو واثق بما قاله جازم به ، فأشهد الله أولا على براءته من دينهم وما هم عليه إشهاد واثق به ، معتمد عليه ، معلم لقومه أنه وليه وناصره ، وغير مسلط لهم عليه ، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه برىء من دينهم وآلهتهم التى يوالون عليها ، ويعادون عليها ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتهم لها ، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم ، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه ، لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه ، ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير ، وبين أن ربه تعالى وربهم الذى نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم ، فلا يخذل من توكل عليه وأقر به ، ولا يشمت به أعداءه .

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم ، وهى شهادة من الله سبحانه بينها لعباده غاية البيان .

ومن أسمائه تعالى المؤمن وهو فى أحد التفسيرين المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فإنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحى الذى بلغه رسله حق . قال تعالى « (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) » أى القرآن فإنه المتقدم فى قوله « (قل أرأيتم إن كان من عند الله) » ثم قال « (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) » فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق ، ووعد أنه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجلى وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شىء شهيد ، فإن من أسمائه الشهيد الذى لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه بل هو مطلع على كل شىء مشاهد له عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته واستدلاله بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

(فان قلت) كيف يستدل بأسمائه وصفاته فان الاستدلال بذلك لا يعهد في الإصطلاح .

(فالجواب) أن تعالى قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل ، ولا بالتشبيه والتمثيل . أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه بحيث لا يغيب عنه ذرة في السموات ولا في الأرض باطناً وظاهراً ، ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به وأن يعبدوا غيره ، ويجعلوا معه إلها آخر ، وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي شأنه ، ويجيب دعوته ويهلك عدوه ، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر ، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر .

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك ، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته .

والقرآن مملوء من هذه الطريق ، وهي طريق الخواص يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعله ، قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) * وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله .

ويستدل أيضاً بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك كما في قوله تعالى * (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) * وأضعاف ذلك في القرآن ، وهذه الطريق قليل سالكها لا يهتدي إليها إلا الخواص ، وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات الشاهدة لأنها أسهل تناولاً وأوسع ، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض .

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره فانه الدليل والمدلول عليه

والشاهد والمشهود له ، فقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) الآيات .

وإذا عرف أن توحيد الالهية هو التوحيد الذى أرسلت به الرسل ، وأنزلت به الكتب كما تقدمت اليه الاشارة . فلا يلتفت الى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع ، وجعل هذا النوع توحيد العامة ، والنوع الثانى توحيد الخاصة وهو الذى يثبت بالحقائق ، والنوع الثالث توحيداً قائماً بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة . .

فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله عليهم والمرسلون منهم أكمل فى ذلك ، وأولوا العزم من الرسل أكملهم توحيداً وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين ، وأكملهم توحيداً الخليلان محمد وابراهيم صلوات الله عليهما وسلامه فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علما ومعرفه وحالا ودعوة للخلق وجهادا ، فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل ، ودعوا اليه وجاهدوا الأمم عليه ، ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدى بهم فيه كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة ابراهيم قومه فى بطلان الشرك وصحة التوحيد ، وذكر الانبياء من ذريته « (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) » فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله (ص) أن يقتدى بهم .

وكان (ص) يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا : أصبحنا على فطرة الاسلام ، وكلمة الاخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا ابراهيم حنيفاً مسلماً وما كنا من المشركين ، فله إبراهيم التوحيد ودين محمد (ص) ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقاداً ، وكلمة الاخلاص هى شهادة أن لا إله إلا الله ، وفطرة الاسلام هى ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له ، والاستسلام له عبودية وذلا وانقياداً وانابة .

فهذا توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالى « (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا

وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) وكل من له حس سليم ، وعقل يميز به لا يحتاج فى الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة ، بل ربما يقع بسببها فى شكوك وشبه يحصل له بها الحيره بالضلال والريبة فان التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك وهذا هو القلب السليم الذى لا يصلح إلا من أتى الله به . ولا شك أن النوع الثانى والثالث من التوحيد الذى أدعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ينتهى إلى الفناء الذى يشمر اليه غالب الصوفية ، وهو درب خطر يفضى الى الاتحاد . الى ما أنشد شيخ الإسلام أبو اسماعيل رحمه الله تعالى حيث يقول شعراً :

ماوحد الواحد من واحد اذ كل من وحده جاحد
توحيد من نعتـــه ينطق عارية أبطلها الواحـــد
توحيده اياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

وان كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد ، لكن ذكر لفظاً مجملا محتملا جذبه به الاتحادى اليه ، وأقسم بالله جهد ايمانه أنه معه ، ولو سلك الألفاظ الشرعية التى لا اجمال فيها كان أحق ، مع أن المعنى الذى حام حواله لو كان مطلوباً منا لنبه الشارع عليه ، ودعا الناس اليه وبينه ، فان على الرسول البلاغ المبين .

فأين قال الرسول : هذا توحيد العامة ، وهذا توحيد الخاصة ، وهذا توحيد خاصة الخاصة ، أو مايقرب من هذا المعنى أوأشار الى هذه النقول والعقول حوارة

فهذا كلام الله المنزل على رسوله (ص) وهذه سنة الرسول (ص) ، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول (ص) وسادات العالمين من الأئمة ، هل جاء ذكر الفناء وهذا التقسيم عن أحد منهم ، وانما حصل هذا من زيادة الغلو فى الدين المشبه لغلو الخوارج ، بل لغلو النصارى فى دينهم ، وقد ذم الله تعالى الغلو فى الدين ونهى عنه فقال (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثير وضلوا عن سواء السبيل) وقال (ص) « لا تشددوا فيشدد الله عليكم فان من كان قبلكم

شددوا فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » رواه أبو داود .

قوله (ولا شيء مثله) .

ش : اتفق أهل السنة عن أن الله ليس كمثله شيء ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولكن لفظ التشبيه قد صار فى كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات فى شيء من صفاته ، ليس كمثله شيء ، رد على الممثلة المشبهة ، وهو السميع البصير ، رد على النفاة المعطلة ، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى فى كفرهم ويراد به انه لا يثبت لله شيء من الصفات ، فلا يقال له قدرة ولا علم ولا حياة ، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، ولازم هذا القول أنه لا يقال له حى عليم ، قدير ، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وارادته وغير ذلك ، وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود عليم ، قدير حى ، والمخلوق يقال له موجود حى عليم قدير ، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه .

وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ، ولا يخالف فيه عاقل ، فان الله سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها ، وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى ببعضها صفات خلقه ، وليس المسمى كالمسمى ، فسمى نفسه حياً عليما قديراً رؤوفا رحيما عزيزاً حكيما سميعاً بصيراً ملكا مؤمناً جباراً متكبراً ، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال (يخرج الحى من الميت ـ وبشرناه بغلام عليم ـ حليم . بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ فجعلناه سميعاً بصيراً ـ قالت امرأة العزيز ـ وكان وراءهم ملك ـ أفمن كان مؤمناً ـ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) .

ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي ، ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز ، وكذلك

سائر الأسماء ، وقال تعالى « (ولا يحيطون بشيء من علمه انزله بعلمه ، وماتحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن : إذاهم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك . وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال عاجل أمرى وآجله ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال ويسمى حاجته » رواه البخارى .

وفى حديث عمار بن ياسر الذى رواه النسائى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » .

فقد سمى الله ورسوله صفات الله علماً وقدرة وقوة ، وقال تعالى « (ثم جعل من بعد ضعف قوة . وانه لذو علم لما علمناه) » ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة ، ونظائر هذا كثيرة .

وهذا لازم لجميع العقلاء ، فان من نفى صفة من صفاته التى وصف الله بها نفسه كالرضا والغضب والحب والبغض ونحو ذلك وزعم أن ذلك يستلزم .

التشبيه والتجسيم (قيل له) فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر ، مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله قولك فيما أثبته إذ لا فرق بينهما .

فان قال : أنا لا أثبت شيئاً من الصفات ، قيل له : فأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل حى ، عليم قدير . والعبد يسمى بهذه الأسماء ، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلا لما يثبت للعبد ، فقيل فى صفاته نظير قولك فى مسمى من أسمائه .

(فان قال) وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى بل أقول هى مجاز ، وهى أسماء لبعض مبتدعاته كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة (قيل له) فلا بد أن تعتقد أنه موجود حى قائم بنفسه والجسم موجود قائم بنفسه وليس هو مماثلا له .

(فان قال) أنا لا أثبت شيئاً بل أنكر وجود الواجب (قيل له) معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه وإما غير واجب بنفسه ، وإما قديم أزلى وإما حادث كائن بعد أن لم يكن ، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق ، واما فقير إلى ما سواه واما غنى عما سواه ، وغير الواجب بنفسه لا يكون الا بالواجب بنفسه ، والحادث لا يكون إلا بقديم ، والمخلوق لا يكون إلا بخالق ، والفقير لا يكون إلا بغنى عنه ، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلى خالق غنى عما سواه وما سواه بخلاف ذلك .

وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن ، والحادث لا يكون واجباً بنفسه ولا قديماً أزلياً ، ولا خالقاً لما سواه ولا غنياً عما سواه ، فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما واجب والآخر ممكن ، أحدهما قديم والآخر حادث أحدهما غنى والآخر فقير ، أحدهما خالق والآخر مخلوق ، وهما متفقان فى كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً . ومن المعلوم أيضاً أن أحدهما ليس مماثلا للآخر

فى حقيقته إذ لو كان كذلك لتمـــاثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وأحـدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه ، والآخر لا يجب قدمة ولا هو موجـود بنفسه ، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق ، وأحدهما غنى عما سـواه . والآخر فقير .

فلو تماثلا للزم أن يـكون كل منهما واجب التقدم ، وليس بواجب القـدم ، موجود بنفسه وغير موجود بنفسه ، خالق ليس بخالق غنياً غير غنى . فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما ، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل ، كما هو منتف بنصوص الشرع .

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه ، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا للباطل . ومن جعلهما متماثلين كان مشبها قائلا للباطل والله أعلم ، وذلك لأنهما وإن اتفقا فى مسمى ما اتفقا فيه ، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته ، والعبد لا يشركه فى شىء من ذلك ، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد فى خصائصه :

وإذا اتفقا فى مسمى الوجود والعلم والقدرة ، فهذا المشترك مطلق كلى يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان . والوجود فى الأعيان مختص لا اشتراك فيه :

وهذا موضع اضطراب فيـه كثير من النظر ، حيث توهموا أن الاتفـاق فى مسمى هـــذه الأشياء يوجب أن يـكون الوجود الذى للرب كالوجود الذى للعبد، وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظى وكابروا عقولهم فان هـذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم ، كما يقال الموجود ينقسم إلى واجب وممـكن وقـديم وحادث ومورد التقسيم مشترك بين الأقسـام ، واللفظ المشترك كلفظ المشترى الواقع على المبتاع والـكوكب لا ينقسم معناه ولـكن يقال لفظ المشترى يقال على كذا أو على كذا ، ومثال هذه المقالات التى قد بسط الـكلام عليها فى موضعه :

وأصل الخطأ والغلط : توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في المعين ، وهذا المعين ، وليس كذلك فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً بل لا يوجد إلا معيناً مختصاً وهذه الأسماء إذا سمى الله بها كان مسماها مختصاً به فإذا سمى بها العبد كان مسما مختصا به فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره ، فكيف بوجود الخالق ، ألا ترى أنك تقول هذا هو ذاك فالمشار اليه واحد لكن بوجهين مختلفين وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا وإن المعطلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا ، وإن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعـــالى في نفس الأمر ، والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه .

واعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها اللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى ، وإلا فلا يمكن تفهم المخاطبين بدون هذا قط حتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الألفاظ المفردة مثل تربية الصبي الذي يعلم البيان واللغة ينطق له بلفظ المفرد له ويشار له إلى معناه إن كان مشهوداً بالاحساس الظاهر أو الباطن فيقال له لبن ، خبز ، أم ، أب ، سماء أرض شمس قمر ، ماء ويشار له مع العبارة إلى كل من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي ، كيف وآدم أبو البشر أو من علمه الله تعالى أصول الأدلة السمعية وهي الأسماء كلها وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل .

فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده ، وإرادته

وعنايته فى قلبه ولا يعرف إلا باللفظ ابتداء ، ولكن لا يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولا أن هذا المعنى المراد هو الذى يراد بذلك اللفظ ويعنى به ، فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية عرف المعنى المراد بلا اشارة اليه ، وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والرى والعطش والحزن والفرح فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه ، فإذا وجده استنزله إليه وعرف أن اسمه كذا ، والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أو عطش نفسه مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له جعت أنت جائع فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالاشارة أو ما يجرى مجراها من القرائن التى تعين المراد مثل نظر أمه إليــــه فى حال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحوه أنها تعنى جوعه ، أو تسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره .

إذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان فلا يخلو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع باحساسه وشهوده أو بمعقوله ، وإما أن لا يكون كذلك ، فان كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة بأن يكون قد عرف معانى الألفاظ المفردة ومعنى التركيب ، فاذا قيل له بعد ذلك (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين) أو قيل له ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ﴾ ونحو ذلك ، فهم المخاطب بما أدركه بحسه ، وإن كانت المعانى التى يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه ولا بحيث صار له معقول كلى يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ بل هى مما لا يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة فلا بد فى تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التى شاهدها من التشابه والتناسب ، وكلما كان التمثيل أقوى كان البيان أحسن ، والفهم أكمل .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا الأمور لم تكن معروفة قبل ذلك وليس فى لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعانى وجعلها أسماء لها ، فيكون بينهما قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم ،

والايمان والكفر ، وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالايمان بالله واليوم الآخر ، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعانى الغيبية والمعانى الشهودية التى كانوا يعرفونها ، وقرن بذلك من الاشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبى كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن الناس فى حجور علمائهم كالصبيان فى حجور آبائهم .

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة فقد يكون مما أدركوا نظره بحسهم وعقلهم كأخبارهم بأن الريح أهلكت عاداً ، فان عاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم ، وإن كانت أشد ، وكذلك غرق فرعون فى البحر وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية ، ولهذا كان الأخبار بذلك فيه عبرة لنا كما قال تعالى « (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) » وقد يكون الذى يخبر به الرسول ما لم يدركوا مثله الموافق له فى الحقيقة من كل وجه ، لكن فى مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه ، كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر فلابد أن يعلموا معنى مشتركا وتشبيهاً من مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات الألفاظ مما علموه فى الدنيا بحسهم وعقلهم ، فاذا كان ذلك المعنى الذى فى الدنيا لم يشهدوه بعد ، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب ، أشهدهم إياه وأشار لهم اليه وفعل قولا يكون حكاية له وشبهاً به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هى الطريق التى يعرفون بها الأمور الغائبة .

فينبغى أن يعرف هذه الدرجات (أولها) ادراك الانسان المعانى الحسية المشاهدة (وثانيها) عقله لمعانيها الكلية (وثالثها) تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعانى الحسية والعقلية فهذه المراتب الثلاث لا بد منها فى كل خطاب ، فاذا أخبرنا عن الامور الغائبة فلا بد من تعريفها المعانى المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذى بينهما ، وذلك بتعريفنا الامور المشهودة ثم إن كانت مثلها لم تحتج إلى ذكر الفارق كما تقدم فى قصص الامم ، وإن لم

تمكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق بأن يقال ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك ، وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الاضافة وحدها كافية فى بيان الفارق وانتفاء التساوى لا يمنع منه وجود القدر المشترك الذى هو مو مدلول اللفظ المشترك ما أمكن ذلك قط .

قوله * (ولا شىء يعجزه) .

ش : لكمال قدرته قال تعالى (إن الله على كل شىء قدير ــ وكان الله على كل شىء مقتدرا ــ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً ــ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) لا يؤوده أى لا يكثره ولا يعجزه ولا يثقله ، وهذا النفى لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفى يأتى فى صفات الله تعالى فى الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده كقوله تعالى (ولا يظلم ربك أحدا) لكمال عدله (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) لكمال علمه ، وقوله تعالى (وما مسنا من لغوب) لكمال قدرته (لا تأخذه سنة ولا نوم) * لكمال حيــاته وقيوميته * (لا تدركه الأبصار) لكمال جلاله وعظمته وكبريائه ، وإلا فالنفى الصرف لا مدح فيه ، ألا ترى أن قول الشاعر :

قبيــلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفى الظلم والغدر عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله قبيلة علم أن المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم ؛ وقول الآخر :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسو من الشر فى شىء وإن هانا

لما اقترن بنفى الشر عنهم ما يدل على ذمهم علم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضا ، ولهذا يأتى الاثبات للصفات فى كتاب الله مفصلا . والنفى مجملا ، عكس طريقة أهل الكلام فانهم يأتون بالنفى المفصل والاثبات المجمل ، يقولون ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا دم ولا لحم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا بجثة ولا بذى حــرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق

ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء وليس بذي جهات ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت . ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان . ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، الخ ما نقله أبو الحسن الأشعري رحمه الله عن المعتزلة .

وفى هذه الجملة حق وباطل ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة ، وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب . فإنك لو قلت للسلطان أنت بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك ، لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً ، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت أنت لست مثل أحد من رعيتك أنت أعلى منهم وأشرف وأجل فاذا أجملت فى النفي أجملت فى الأدب .

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة ، والمعطلة يعرضون عما قاله الشرع من الأسماء والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده ، والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جمليا أو يبينوا حاله تفصيلا ويحكم عليه بالكتاب والسنة ، لا يحكم به على الكتاب والسنة .

والمقصود أن غالب عقائدهم السلوب ليس بكذا ، وأما الإثبات فهو قليل وهي أنه عالم قادر حي ، وأكثر النفي المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات فان الله تعالى قال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ففي هذا الاثبات ما يقرر معنى النفي ، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال ، فهو سبحانه وتعالى

موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ، وليس كمثله شيء فى صفاته ولا فى أسمائه ولا فى أفعاله مما أخبرنا به من صفاته ، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه ، كما قال رسوله الصادق صلى الله عليه وسلم فى دعاء الكرب اللهم إنى أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى . وسيأتى التنبيه على صفات طريقتهم فى الصفات إن شاء الله تعالى .

وليس قول الشيخ رحمه الله « ولا شيء يعجزه » من النفى المذموم ، فان الله تعالى قال (وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً) فنبه سبحانه وتعالى فى آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة ، فان العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل ، وإما من عدم علمه به ، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شيء قدير ، وقد علم ببديهة العقول والفطر كمال قدرته وعلمه فانتفى العجز لما بينه وبين القدرة من التضاد ، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله (ولا إله غيره) .

ش : هذه كلمة التوحيد التى دعت إليها الرسل كلهم كما تقدم ذكره ، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفى والاثبات المقتضى للحصر . فان الاثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال . ولهذا الله أعلم لما قال تعالى (وإلهكم إله واحد) قال بعده (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فانه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى : هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره ، فقال تعالى :(لا إله الا الله هو الرحمن الرحيم) .

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين فى تقدير الخبر فى لا إله إلا هو فقالوا تقديره لا إله فى الوجود الا الله ، فقال يكون ذلك نفياً لوجود الإله . ومعلوم أن نفى الماهية أقوى فى التوحيد الصرف من نفى الوجود فكان

اجراء الكلام على ظاهره والاعراض عن هذا الاضمار أولى .

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في ري الظمآن[1] فقال هذا كلام من لا يعرف لسان العرب ، إله في موضع المبتدأ على قول سيبويه وعند غيره اسم لا . وعلى التقديرين فلا بد من خبر للمبتدأ ، وإلا فما قاله من الاستغناء عن الاضمار فاسد .

وأما قوله إذا لم يضمر يكون نفيا للماهية ، فليس بشيء لأن نفي الماهية هو نفي الوجود لا تتصور الماهية إلا مع الوجود ، ولا فرق بين لا ماهية لا وجود ، وهذا مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة فانهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود ، والا الله مرفوع بدلا من إله لا يكون خبراً لـ « لا » ولا للمبتدأ ، وذكر الدليل على ذلك .

وليس المراد هنا ذكر الإعراب ، بل المراد دفع الاشكال الواردة على النحاة في ذلك وبيان أنه من وجهة المعتزلة وهو فاسد ، فان قولهم نفي « الوجود » ليس تقييدا لأن المراد ليس بشيء ، قال تعالى « (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) » ولا يقال ليس قوله غيره كقوله إلا الله لأن غير معرب بإعراب الاسم الواقع بعد إلا فيكون التقدير للخبر فيهما واحداً ، فلهذا ذكرت هذا الاشكال وجوابه هنا .

قوله « (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) »

ش : قال الله تعالى « (هو الأول والآخر) » وقال صلى الله عليه وسلم اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء » فقول الشيخ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، هو معنى اسمه الأول والآخر والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة فان الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل فأنت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست

---

(١) ري الظمآن في تفسير القرآن : كتاب كبير جداً .

ممتنعة ، فان الممتنع لا يوجد ولا واجبة الوجود بنفسها ، فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) يقول سبحانه أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم . ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه . فالممكن الذى ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً ، وكلما أمكن وجوده بدلا من عدمه وعدمه بدلا عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم .

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها ما يعود إلى بعض ما ذكر القرآن من الطرق العقلية بأوضح عباره وأوجزها ، وفى طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق مالا يوجد عندهم مثله بالله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً).

ولا نقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية ، فان الخفاء والظهور من الأمور النسبية ، فربما ظهر لبعض النفس ما خفى على غيره ويظهر للإنسان الواحد فى حال ماخفى عليه فى حال أخرى ، وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجل منها ، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ، ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة ، ولا شك أن العلم باثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضرورى فطرى ، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية .

وقد أدخل المتكلمون فى اسماء الله تعالى « القديم » وليس هو من أسماء الله تعالى الحسنى ، فان القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره ، فيقال هذا « قديم » للعتيق ، وهــذا حديث للجديد ، ولم يستعمل هذا الإسم إلا فى المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) والعرجون القديم الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى ، فاذا وجد الحديث قيل للأول قديم ، قال تعالى (وإذا لم يهتدوا به

فسيقولون هذا إفك قديم) أى متقدم فى الزمان وقال تعالى (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) فالأقدم مبالغة فى القديم . ومنه القول القديم والجديد للشافعى رحمه الله تعالى .

وقال تعالى (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أى يتقدمهم ، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعديا كما يقال أخذنى ما قدم وما حدث ، ويقال هذا قدم هذا وهو يقدمه . ومنه سميت القدم قدماً لأنها تقدم بقية بدن الانسان .

وأما إدخال القديم فى أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف ، منهم ابن حزم .

ولا ريب أنه إذا كان مستعملا فى نفس التقدم ، فان ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، ولكن اسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكون من الأسماء الحسنى . وجاء الشرع باسمه (الأول) وهو أحسن من القديم لأنه يشعر بأن ما بعده آئل اليه تابع له ، بخلاف القديم ، والله تعالى له الاسماء الحسنى .

قوله (لا يفنى ولا يبيد) .

ش : اقراراً بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) والفنا والبيد متقاربان فى المعنى ، والجمع بينهما فى الذكر للتأكيد ، وهو أيضاً مقرر ومؤكد لقوله دائم بلا انتهاء .

قوله (ولا يكون إلا ما يريد) .

ش : هذا رد لقول القدرية والمعتزلة ، فانهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم ، والكافر أراد الكفر ، وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح وهى مسئلة القدر المشهور ، وسيأتى لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

وسموا قدرية لإنكارهم القدر وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً ، والتسمية على الطائفة الاولى أغلب .

وأما أهل السنة فيقولون أن الله وإن كان يريد المعاصى قدراً فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها ، وهذا قول السلف قاطبة فيقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله ، إذا كان واجباً أو مستحباً ، ولو قال ، إن أحب الله ، حنث إذا كان واجباً أو مستحباً .

والمحققون من أهل السنة يقولون الإرادة فى كتاب الله نوعان : إرادة قدرية كونية خلقية وإرادة دينية أمرية شرعية فالارادة الشرعية هى المتضمنة للمحبه والرضا ، والكونية هى المشيئة الشاملة لجميع الحوادث .

وهذا كقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقوله تعالى عن نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقوله تعالى (ولكن الله يفعل ما يريد) .

وأما الإرادة الدينية الشرعية فكقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم — والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميــلا عظيما — يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) .

فهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريده الله أى ألا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به .

وأما الإرادة الكونية فهى الإرادةالمذكورة فى قول المسلمين ماشاءالله كان ومالم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن تفعل وبين إرادته من غــيره ،

أن يفعل ، فاذا أراد الفاعل أن يفعل فعلا فهذه الإرادة معلقة بفعله وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الارادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس، وأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به ، وقد لا يريد ذلك وإن كان مريدا منه فعله .

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع فى أمر الله تعالى هل هو مستلزم لإرادته أم لا ، فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم . ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلا له ، ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله ، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة العبد أو مفسدة ، وهو سبحانه إذا أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالايمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذ فعلوه ولا يلزم إذ أمرهم أن يعينهم ، بل قد يكون فى خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له ، فانه يخلق ما يخلق لحكمه ، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعله أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو أو جعل المأمور فاعلا له

فأين الخلق من جهة الأمر ، فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريداً النصيحه ومبينا لما ينفعه وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل، إذ كل ما كان مصلحتى فى أن آمر به غيرى وأنصحه ، يكون مصلحتى فى أن أعاونه أنا عليه ، بل قد يكون مصلحتى إرادة ما يضاده فجهة أمره لغيره نصحا غير جهة فعله لنفسه ، وإذا أمكن الفرق فى حق المخلوقين فهو فى حق الله أولى بالامكان .

والقدرية تضرب مثلا بمن أمر غيره بأمره فانه لا بد أن يفعل ما يكون المأمور أقرب إلى فعله كالبشر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك ،

فيقال لهم هذا يكون على وجهين (أحدهما) أن تكون مصلحة الآمر

تعود إلى الامر كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه ، وأمر السيد عبده بما يصلح ملكه ، وأمر الإنسان شريكه بما يصلح الامر المشترك بينهما ونحو ذلك (الثانى) أن يكون الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له كالامر بالمعروف وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فانه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة ، وإنه عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور كالناصح المشير ، وقد رأى أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر وإن فى حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر ، مثل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) فهذا مصلحته فى أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج لا فى أن يعينه على ذلك إذ لو أعانه لضره قومه ، ومثل هذا كثير .

وإذا قيل أن الله أمر العبـــاد بما يصلحهم ، لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به ولا سيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحداً على ما به يصير فاعلا ، وإذا عللت أفعاله بالحكمة فهى ثابتة فى نفس الامر وإن كنا نحن لا نعلمها ، فلا يلزم إذا كان فى نفس الامر له حكمه فى الامر أن يكون فى الإعانة على فعل المأمور به حكمه ، بل قد تكون الحكمة تقتضى أن لا يعينه على ذلك ، فانه إذا مكن فى المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحه أن يأمر لمصلحة المأمور وأن تكون الحكمة والمصلحـــة للآمر أن لا يعينه فى ذلك ، فامكان ذلك فى حق الرب أولى وأحرى .

والمقصود أنه يمكن فى حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه فالخالق أولى بامكان ذلك فى حقه مع حكمته فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره انشاءه خلقاً ومحبة فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الامر ، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، والحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده ، وخلق أحد

الضدين ينافى خلق الضد الآخر ، فان خلق المرض الذى يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان ، يضاد خلق الصحة التى لا تحصل معها هذه المصالح ، ولذلك كان خلق ظلم الظالم الذى يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضاد خلق عدله الذى لا يحصل به هذه المصالح وإن كانت مصلحته هو فى أن يعدل .

وتفصيل حكمة الله فى خلقه وأمره يعجز عن معرفتها عقول البشر ، والقدرية دخلوا فى التعطيل على طريقة فاسدة مثلوا الله فيها بخلقه ولم يثبتوا حكمة تعود إليه .

قوله (لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام) .

ش : قال الله تعالى (ولا يحيطون به علماً) قال فى الصحاح توهمت الشىء ظننته ، وفهمت الشىء علمته ، فمراد الشيخ رحمه الله أنه لا ينتهى إليه وهم ، ولا يحيط به علم ، قيل الوهم ما يرجى كونه أى يظن أنه على صيغة كذا ، والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به ، والله تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه إلا هو سبحانه وتعالى ، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وهوأنه أحداً ، صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات ومافى الأرض ـ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

قوله (ولا يشبه الانام) .

ش : هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى قاله عز وجل (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وليس المراد نفى الصفات كما يقول أهل البدع ، فمن كلام أبى حنيفة رحمه الله فى الفقه الأكبر : لا يشبه شيئاً من خلقه ، ثم قال بعد ذلك وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا انتهى . وقال نعيم بن حماد :

من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال إسحاق بن راهويه : من وصف الله بشيء فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم ، وقال : علامة جهم وأصحابه : دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة بل هم المعطلة .

وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف : علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة . فانه ما من أحد من نفاة شيء من الاسماء والصفات إلا يسمى المثبت لها مشبهاً ، فقد أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة القرامطة والفلاسفة وقال: إن الله لا يقال له عالم ولاقادر ويزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه لأن الاشتراك فى الاسم يوجب الاشتبـــاه فى معناه ، ومن أثبت الاسم وقال هو مجاز كغالية الجهمية يزعم أن من قال ان الله عالم حقيقـة ، قادر حقيقة فهو مشبـه ومن أنكر الصفات قال : إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة ، قال لمن أثبت الصفات أنه مشبه ، وأنه مجسم .

ولهذا كتب نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والرافضة ونحوهم كلها مشحونة بتسمية مثبتي الصفات مشبهة ومجسمة ، ويقولون فى كتبهم أن من جمله المجسمة قوماً يقال لهم الشافعيه ينسبون إلى رجل يقال له محمد بن إدريس ، حتى الذين يفسرون القرآن منهم كعبد الجبار والزمخشرى وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئـاً من الصفات وقال بالرؤية مشبهاً .

وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف .

ولـكن المشهور من استعمال هـذا اللفظ عند علماء السنـة المشهورين أنهم لا يريدون بنفى التشبيه نفى الصفات ، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله كما تقدم من كلام أبى حنيفة أنه تعالى يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا وهذا معنى قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنفى المثل وأثبت الوصف ،

وسيأتى فى كلام الشيخ اثبات الصفات تنبيهاً على أنه ليس نفى التشبيه مستلزماً لنفى الصفات .

ومما يوضح هذا أن العلم الالهى لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلى يستوى فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولى يستوى أفراده ، فان الله سبحانه ليس كمثله شىء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوى أفرادها ، ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة فى المطالب الالهية لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهى الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافيها .

ولكن يستعمل فى ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالى (ولله المثل الأعلى) مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وهو ما كان كمالا للوجود غير مستلزم للعدم بوجه . فالواجب القديم أولى به ، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر ، فانما استفاده من خالقه وربه ومدبره وهو أحق به منه وإن كل نقص وعيب فى نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شىء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ، فانه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى ،

ومن أعجب العجب أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على نفى الصفات أو الأسماء ويقولون واجب الوجود لا يكون كذا ، ولا يكون كذا ، ثم يقولون أصل الفلسفة هى التشبيه بالأدلة على قدر الطاقة ويجعلون هذه غاية الحكمة ونهاية الكمال الانسانى ، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة ، ويروى عند النبى (ص) أنه قال « تخلقوا بأخلاق الله » فاذا كانوا ينفون الصفات فبأى شىء يتخلق العبد على زعمهم . وكما أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته تعالى لا يشبهه شىء من مخلوقاته ، لكن المخالف فى هذا

النصارى والحلوليه والاتحادية لعنهم الله . ونفى مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفى مشابهته لشيء من مخلوقاته ، فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله « ولا يشبه الأنام » ، والأنام الناس ، وقيل الخلق ، وقيل كل ذى روح ، وقيل الثقلان ، وظاهر قوله تعالى (والأرض وضعها للأنام) يشهد للأول أكثر من الباقى والله أعلم .

قوله (حى لا يموت قيوم لا ينام) .

ش : قال تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) فنفى السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيومته وقال تعالى (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) وقال تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) وقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده) وقال تعالى (هو الحى لا إله إلا هو) وقال (ص) (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام) الحديث .

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه ، فمن ذلك أنه حى لا يموت لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه فإنهم يموتون ، ومنه أنه قيوم لا ينام إذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه فانهم ينامون ، وفى ذلك إشارة إلى أن نفى التشبيه ليس المراد به نفى الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال لكمال ذاته فالحى بحياة باقية لا يشبه الحى بحياة زائلة ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعبا وأن الدار الآخرة لهى الحيوان ، فالحياة الدنيا كالمنام والحياة الآخرة كاليقظة ، ولا يقال فهذه الحياة الآخرة كاملة وهى للمخلوق ، لأنا نقول الحى الذى الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذى وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهى دائمة بإدامة الله لها لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى وكذلك سائر صفاته فصفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به .

واعلم أن هذين الاسمين أعنى الحى القيوم مذكوران فى القرآن معا فى ثلاث صور كما تقدم ، وهم من أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل أنهما الاسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه ، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم . ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه وهو معنى كونه واجب الوجود ، والقيوم أبلغ من القيام لأن الواو أقوى من الألف ، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة ، وهو معلوم بالضرورة ، وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه ، فيه قولان أصحهما أنه يفيد ذلك ، وهو يفيد دوام قيامه وكمال قيامه لما فيه من المبالغـــة ، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل ، فإن الآفل قد زال قطعاً أى لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم بل هو الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، واقترانه بالحى يستلزم سائر صفات الكمال ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبداً ، ولهذا كان قوله (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) أعظم آية فى القرآن كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى (ص) .

فعلى مدار الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها ، وإليها ترجع معانيها فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذ كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته فانه القويم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه لغيره ، فلا قيام لغيره إلا باقامته . فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام .

قوله (خالق بلا حاجة رازق بلا مؤنة) .

ش : قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين — يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد والله الغنى وأنتم الفقراء ، قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) وقال صلى الله عليه وسلم

من حديث أبى ذر رضى الله عنه « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أنزل البحر » الحديث رواه مسلم ، وقوله « بلا مؤنة » بلا ثقل ولا كلفة .

قوله (مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة) :

ش : الموت صفة وجودية خلافاً الفلاسفة ومن وافقهم ، قال تعالى (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) والعدم لا يوصف لكونه مخلوقا ، وفى الحديث أنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ، وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا كما ورد فى العمل الصالح أنه يأتى صاحبه فى صورة الشاب الحسن ، والعمل القبيح على أقبح صورة ، وورد أن القرآن يأتى على صورة شاب شاحب اللون . الحديث أى قراءة القارىء ، وورد فى الأعمال أنها توضع فى الميزان ، والأعيان هى التى تقبل الوزن دون الأعراض ، وورد فى سورة البقرة وآل عمران أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايان أو فرقان من طير صواف . وفى الصحيح أن أعمال العباد تصعد فى السماء وسيأتى الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى .

قوله (ما زال بصفته قديما قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزليا كذلك لا يزال عليها أبديا) .

ش : أى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز

أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده ، ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصور والأحياء والأمانة والقبض والبسط والطى والاستواء والاتيان والمجىء والنزول والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وإن كنا لا ندرى كنهه وحقيقته التى هى تأويله ، ولا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، ولكن أصل معناه معلوم لنا كما قال الإمام مالك رضى الله عنه ، لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) كيف استوى فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وإن كانت هذه الأحوال تحدث فى وقت دون وقت كما فى حديث الشفاعة « إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعد مثله ، لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع . ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن .

ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال أنه حدث له الكلام ولو كان غير متكلم لأنه كالصغير والخرس ثم تكلم يقال حدث له الكلام ، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء ، وفى حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل ، وكذلك الكاتب فى حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتباً فى حال عدم مباشرته الكتابة .

وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفى فى علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته فى كتاب ولا سنة وفيه إجمال ، فان أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفى صحيح ، وإن أريد به نفى الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى . ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفى باطل .

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفى حلول الحوادث ، فيسلم السنى للمتكلم ذلك على ظن أنه نفي عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله ، فإذا سلم هذا النفى ألزمه

نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له ، وإنما أتى السنى من تسليم هذا النفى المجمل ، وإلا فلو استفسر واستفصل له لم ينقطع معه .

وكذا مسألة الصفة هل هى زائدة على الذات أم لا ، لفظها مجمل .

وكذلك لفظ الغير فيه اجمال فقد يراد به ما ليس هو إياه ، وقد يراد به ما جاز مفارقته له .

ولهذا كان أئمة السنة لا يطلقون على صفات الله وكلامه إنه غيره ، ولا أنه ليس غيره ، اطلاق الاثبات قد يشعر أن ذلك مباينا له ، واطلاق النفى قد يشعر بأنه هو ، إذ كان لفظ الغير فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح ، وإن أريد به أن الصفات زائدة عن الذات التى يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق ، ولكن ليس فى الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ، وإنما يعرض للذهن ذاته وصفه كل وحدة ، ولكن ليس فى الخارج ذات غير موصوفة ، فان هذا محال ، ولو لم يكن إلا صفة الوجود فانها لا تنفك عن الوجود وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً ، يتصور هذا وحده ، وهذا وحده ، لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الخارج .

وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره ، وهذا له معنى صحيح وهو أن الصفة ليست غير الموصوف بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد فاذا قلت : أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التى لا تقبل الإنفصال بوجه من الوجوه .

وإذا قلت : أعوذ بعزة الله فقد عذت بصفة من صفات الله ولم تعذ بغير الله ، وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات ، فان «ذات» فى الأصل معناها لا تستعمل إلا مضافة أى ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات علم ، ذات كرم إلى غير ذلك من الصفات ، فذلك كذا بمعنى صاحبة كذا تأنيث ذو ، هذا أصل معنى

الكلمة ، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة من الصفات كما يفرض المحال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » وقال(ص) «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » ولا يعوذ صلى الله عليه وسلم بغير الله وكذا قال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» وقال صلى الله عليه وسلم (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات) .

وكذلك قولهم الاسم عين المسمى أو غيره ، وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك وجهلوا الصلوات فيه ، فالاسم يراد به المسمى تارة به اللفظ الدال عليه أخرى فاذا قلت قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه ، وإذا قلت الله اسم عربى والرحمن اسم عربى والرحمن من أسماء الله ونحو ذلك ، فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمى ، ولا يقال غيره لما فى لفظ الغير من الاجمال ، فان أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى لحق ، وإن أريد أن الله سبحانه وتعالى كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه إسما أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى .

والشيخ رحمه الله أشار بقوله (مازال بصفاته قديماً قبل خلقه) إلى آخر كلامه ، إلى الرد على المعتزله والجهمية ومن وافقهم من الشيعة ، فانهم قالوا إن الله تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه ، لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد أن كان ممتنعاً ، وأنه انقلب من الامتناع الذاتى إلى الامكان الذاتى ، وابن كلاب والأشعرى ومن وافقهما فانهم قالوا إن الفعل صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعاً منه . وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة بل هو شيء واحد لازم لذاته .

وأصل هذا الكلام من الجهمية . فانهم قالوا إن دوام الحوادث ممتنع وأنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ لامتناع حوادث لا أول لهافيمتنع أن يكون

البارى عز وجل لم يزل فاعلا متكلماً بمشيئة ، بل يمتنع أن يكون قادراً على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة ، وهذا فاسد فانه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث ، والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلابد أن يكون ممكناً والامكان ليس له وقت محدود ، وما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت فيه ، فليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهى إليه فيجب أنه لم يزل الفعل ممكنا جائزاً صحيحا فيلزم أنه لم يزل الرب قادراً عليه ، فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها .

وقالت الجهمية ومن وافقهم : نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له ، لكن نقول أن إمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية له ، وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمة النوع بل يجب حدوث نوعها ، ويمتنع قدم نوعها لكن لا يجب الحدوث فى وقت بعينه ، فامكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لأوله بخلاف جنس الحوادث ،

فيقال لهم : هب أنكم تقولون ذلك لكن يقال إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية فانه صار جنس الحدوث عندكم ممكنا بعد أن لم يكن ممكنا ، وليس لهذا الإمكان وقت معين ، بل ما من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله ، فيلزم دوام الإمكان وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء . ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث أو جنس الحوادث أو جنس الفعل أو جنس الأحداث أو ما أشبه هذا من العبارات من الامتناع إلى الامكان هو مصير ذلك ممكنا جائزاً بعد أن كان ممتنعا من غير سبب تجدد وهذا ممتنع فى صريح العقل .

وهو أيضا انقلاب الجنس من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى ، فان ذات جنس الحوادث عندهم تصير ممكنة بعد أن كانت ممتنعة ، وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين ، فانه ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله ، فيلزم أنه لم يزل هذا الانقلاب ممكنا ، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكنا ، وهذا أبلغ فى الامتناع من قولنا لم يزل الحادث ممكنا ، فقد لزمهم فيما فروا إليه أبلغ مما لزمهم

فيما فروا منه ، فانه يعقل كون الحادث ممكنا ، ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل وأما كون الممتنع ممكنا فهو ممتنع فى نفسه ، فكيف إذا قيل لم يزل إمكان هذا الممتنع ، وهذا مبسوط فى موضعه .

فالحاصل أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها فى المستقبل والماضى أم لا ، أو فى المستقبل فقط أو الماضى فقط فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم ، أضعفها قول من يقول لا يمكن دوامها لا فى الماضى ولا فى المستقبل كقول جهم بن صفوان وأبى الهذيل العلاف . وثانيها قول من يقول يمكن دوامها فى المستقبل دون الماضى كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم ، والثالث قول من يقول يمكن دوامها فى الماضى والمستقبل كما يقوله أئمة الحديث وهى من المسائل الكبار ، ولم يقل أحد يمكن دوامها فى الماضى دون المستقبل .

ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم . ومن المعلوم بالفطرة أن كون المعقول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال ، ولما كان تسلسل الحوادث فى المستقبل لا يمنع يكون الرب سبحانه هو الآخر الذى ليس بعده شىء فكذا تسلسل الحوادث فى الماضى لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى الأول الذى ليس قبله شىء فان الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء قال تعالى (كذلك الله يفعل ما يشاء) وقال تعالى (ولكن الله يفعل ما يريد) وقال تعالى (ذو العرش المجيد فعال لما يريد) وقال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً .

والمثبت إنما هو الكلام الممكن الوجود ، وحينئذ فاذا كان النوع دائماً فالممكن هو القديم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون فى أجزاء العالم شىء يقارنه بوجه من الوجوه .

وأما دوام الفعل فهو أيضاً من الكمال فان الفعل إذا كان وصفه كمال فدوامه دوام الكمال .

قالوا والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفسه ولا اثباته كتاب ولا سنة ليجب مراعاة لفظه وهو ينقسم إلا واجب وممتنع ، وممكن ، فالتسلسل فى المؤثرين محال ممتنع لذاته ، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية .

والتسلسل الواجب ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى فى الأبد وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيما آخر لا نفاد له ، وكذلك التسلسل فى أفعال سبحانه من طرف الأزل وأن كل فعل مسبوق بقول آخر فهذا واجب فى كلامه فانه لم يزل متكلماً إذا شاء ولم تحدث له صفة الكلام فى وقت وهكذا أفعاله التى هى من لوازم حياته فان كل حى فعال والفرق بين الحى والميت : الفعل ، ولهذا قال غير واحد من السلف الحى الفعال ، وقال عثمان بن سعيد كل حى فعال ، ولم يكن ربنا تعالى قط فى وقت من الأوقات معطلا عن كماله من الكلام والإرادة والفعل .

وأما التسلسل الممكن فالتسلسل فى مفعولاته من هذا الطرف كما تتسلسل فى طرف الأبد ، فاذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلما وذلك من لوازم ذاته فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له . وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل ، ولا يلزم من هذا أنه لم نزل الخلق معه ، فانه سبحانه متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له ، فلكل مخلوق أول والخالق سبحانه لا أول له ، فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن .

قالوا وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضى ببطلانه ، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل لزمه أحد أمرين لا بد له منهما إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنا . وإما أن يقول لم يزل واقعاً ، وإلا تناقض تناقضاً بينا حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل والفعل محال ممتنع لذاته

لو أراد لم يمكن وجوده بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له ، وهذا قول ينقض بعضه بعضا .

والمقصود أن الذى دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن . أما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم فعل فليس فى الشرع ولا فى العقل ما يثبته ، بل كلاهما يدل على نقيضه .

وقد أورد أبو المعالى فى إرشاده وغيره من النظار على التسلسل فى الماضى فقالوا: إنك لو قلت لا أعطيك درهما إلا أعطيك بعده درهما كان هذا ممكنا ، ولو قلت لا أعطيك درهماً حتى أعطيك قبله درهما كان هذا ممتنعا .

وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة بل الموازنة الصحيحة أن تقول : ما أعطيتك درهما الا أعطيتك قبله درهما ، فتجعل ماضيا قبل ماض كما جعلت هناك مستقبلا بعد مستقبل ، وأما قول القائل لا أعطيك حتى أعطيك قبله فهو نفى للمستقبل حتى يحصل فى المستقبل ويكون قبله فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل . وهذا ممتنع أما نفى الماضى حتى يكون قبله ماضى فان هذا ممكن ، والعطاء المستقبل ابتداؤه من المعطى والمستقبل الذى له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله مالا نهاية له ، فان ما لا نهاية له فيما يتناهى ممتنع .

قوله (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا باحداثه البرية استفاد اسم البارى) ،

ش : ظاهر كلام الشيخ رحمه الله أنه يمنع تسلسل الحوادث فى الماضى ، ويأتى فى كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه فى المستقبل وهو قوله ، والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان ، وهذا مذهب الجمهور كما تقدم ، ولا شك فى فساد قول من منع ذلك فى الماضى والمستقبل كما ذهب اليه الجهم وأتباعه وقال بفناء الجنة والنار لما يأتى من الأدلة إن شاء الله تعالى .

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها فأظهر فى الصحة من قول من فرق بينهما فانه سبحانه لم يزل حيا ، والفعل من

لوازم الحياة فلم يزل فاعلا لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول (ذو العرش المجيد فعال لما يريد) .

والآية تدل على أمور (أحدها) أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته (الثانى) أنه لم يزل كذلك ، لأنه ساق ذلك فى معرض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه ، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال فى وقت من الأوقات وقد قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ولما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن (الثالث) أنه إذا أراد شيئاً فعله فان (ما) موصولة عامة أى يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله . وإما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر ، فان أراده حتى يريد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلا وجد الفعل .

وهذه هى النكتة التى خفيت على القدريه والجبريه وخبطوا فى مسئلة القدر لغفلتهم عنها ، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد وارادة أن يجعله فاعلا . وسيأتى الكلام على مسئلة القدر فى موضعه إن شاء الله تعالى (الرابع) أن فعله وإرادته متلازمان ، فما أراد أن يفعل فعل ، وما فعله فقد أراده بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل . وقد يفعل ما لا يريده . فما ثم فعال لما يريد الا الله وحده (الخامس) اثبات ارادات متعدده بحسب الأفعال وإن كل فعل له إرادة تخصه ، هذا هو المعقول فى الفطر ، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد .

(السادس) أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله ، فاذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا وأن يجىء يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يرى عباده نفسه وأن يتجلى لهم كيف شاء ، ويخاطبهم ويضحك إليهم ، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله فانه تعالى فعال لما يريد وإنما يتوقف صحة ذلك على أخبار الصادق به فاذا أمر[1] .وكذلك هو ما يشاء واثبات ما يشاء كل يوم هو فى شأن سبحانه وتعالى .

---

(١) بياض بالأصل .

والقول بأن الحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك . وإن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا . ولا يلزم من ذلك قدم العالم لإن كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود موجود فايجاد الله تعالى له ، ليس له من نفسه إلا العدم والفقر والاحتياج ، وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غني لذاته ، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى .

وللناس قولان في هذا العالم هل هو مخلوق من مادة أو لا واختلفوا في أول هذا العالم ما هو ، وقد قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال ، قال أهل اليمن لرسول الله (ص) جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال « كان الله ولم يكن شيء قبله » وفي رواية « ولم يكن شيء معه » وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء » وخلق السموات والأرض » وفي لفظ « ثم خلق السموات والأرض » فقوله كتب في الذكر يعني اللوح المحفوظ كما قال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) يسمى ما يكتب في الذكر ذكراً . كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتاباً .

والناس في هذا الحديث على قولين : منهم من قال أن المقصود إخباره بأن الله كان موجوداً وحدة ولم يزل كذلك دائماً . ثم ابتدأ احداث لجميع الحوادث فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم وإن جنس الزمان حادث لا في زمان وإن الله صار فاعلا بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل حين ابتدأ الفعل ولا كان الفعل ممكنا . والقول الثاني المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي (ص) أنه قال « قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء » فأخبر صلى الله عليه وسلم « أن تقدير هذا

العالم مخلوق فى ستة أيام كان قبل خلق السموات بخمسين ألف سنة وأن عرش الرب تعالى حينئذ على الماء » .

دليل صحة هذا القول الثانى من وجوه) أحدها) أن قول أهل اليمن جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر ، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود ، والأمر هنا بمعنى المأمور أى الذى كونه الله بأمره . وقد أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات لأنهم لم يسألوه عنه ، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء ، لم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل السموات والأرض .

وأيضاً فانه قال « كان الله ولم يكن شيئاً قبله » وقد روى « معه » وروى « غيره » والمجلس كان واحداً ، فعلم أنه قال أحد الألفاظ ، والآخران رويا بالمعنى ولفظ القبل ثبت عنه فى غير هذا الحديث ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى دعائه « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء » الحديث ، واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما فى موضع آخر ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القبل كالحميدى والبغوى وابن الأثير ، وإذا كان كذلك لم يكن فى هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق .

وأيضاً فانه قال « كان الله ولم يكن شيئاً قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء » فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو ، وخلق السموات روى بالواو وبثم ، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض والأرض وما بينهما وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة أيام ، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقهما وذكر من قبلهما بما يدل على كونه ووجوده ولم يتعرض لابتداء خلقه .

وأيضاً فانه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل ، فاذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطىء قطعاً ، ولم يأت فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل على المعنى الآخر فلا يجوز إثباته

بما يظن أنه معنى الحديث ، ولم يرد كان الله ولا شيئاً معه مجرداً وانما ورد على السياق المذكور ، ولا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائما عن الفعل حتى خلق السموات والأرض .

وأيضا فقوله (ص) « كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء ، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلا لأن قوله « وكان عرشه على الماء » يرد ذلك ، فان هذه الجملة وهى « كان عرشه على الماء » إما حالية أو معطوفة ، وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود فى ذالك الوقت ، فعلم أن المراد لم يكن شيء من العالم المشهود .

قوله (له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق) .

ش : يعنى أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب ، وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق ، قال بعض المشايخ الشارحين وإنما قال له معنى الربوبية ومعنى الخالق دون الخالقية ، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير ، والرب يقتضى معانى كثيرة وهى الملك والحفظ والتدبير والتربية ، وهى تبلغ الشيء كماله بالتدريج ، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعانى وهى الربوبية انتهى . وفيه نظر لأن الخلق يكون بمعنى التقدير ايضا .

قوله (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيي استحق هذا الاسم قبل احيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم) .

ش : يعنى أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيى الموتى قبل إحيائهم فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم ، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم كما حكينا عنهم فيما تقدم ، وتقدم تقدير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء .

قوله (ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء اليه فقير ، وكل أمر اليه يسير لا يحتاج إلى شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

ش : « ذلك » إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه . والكلام

على كل وشمولها وشمول كل فى كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن يأتى فى مسألة الكلام إن شاء الله تعالى .

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى (والله على كل شيء قدير) فقالوا إنه قادر على كل ما هو مقدور له ، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم ، وتنازعوا هل يقدر على مثلها أم لا ، ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال هو عالم بكل ما يعلمه ، وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التى لا فائدة فيها فسلبوا صفة تمام قدرته على كل شيء .

وأما أهل السنة فعندهم أن الله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج فى هذا ، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوما فى حال واحدة فهذا لا حقيقة له ولا يتصور وجوده ولا يسمى شيئا باتفاق العقلاء . ومن هذا الباب خلق مثل نفسه وأمثال ذلك من المحال .

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة فانه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير ، وأنما تنازعوا فى المعدوم الممكن هل هو شيء أم لا ؟ والتحقيق أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) فيكون شيئاً فى العلم والذكر والكتاب لا فى الخارج كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) قال تعالى ولقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) أى لم تكن شيئاً فى الخارج وإن كان شيئا فى علمه تعالى ، وقال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) .

وقوله (ليس كمثله شيء) رد على المشبهة وقوله تعالى (وهو السميع البصير) رد على المعطلة فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيه فالمخلوق وإن كان يوصف أنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به ، وصفات الخالق كما يليق به

ولا تنفى عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه ، وما يجب له وما يمتنع عليه وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم وأقدرهم على البيان ،

فانك إن نفيت شيئا من ذلك كنت كافراً بما أنزل على محمد (ص) ، وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شيء ، فاذا شبهته بخلقه كنت كافرا به ، قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها ، وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى (الذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) وقال تعالى (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر أن المثل الاعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده . فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى . وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى ، وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الاعلى المطلق اثنان ، لانهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ بالموصوف به أحدهما وحده ؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الاعلى مثل أو نظير .

واختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى ، ووفق بين أقوالهم بعض من وفقه الله وهداه فقال : المثل الاعلى يتضمن الصفة العليا وعلم العالمين بهـــا ووجودها العلمي والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابدية وذاكرية ،

فههنا أمور أربعة : ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى سواء علمها العباد أولا وهذا معنى قول من فسرها بالصفة (الثاني) وجودها في العلم .

والشعور وهذا معنى قـــول من قال من السلف والخلف أنه ما فى قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه ، وهذا الذى فى قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره أصلا بل يختص به فى قلوبهم كما اختص به فى ذاته .

وهذا معنى قول من قال من المفسرين معناه أن أهـــل السموات يحبونه ويعظمونه ويعبدونه وأهل الأرض كذلك وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها ، فأهـــل الأرض معظمون له مجلون خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزته وجبروته قال تعالى (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) .

(الثالث) ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل .

(الرابع) محبة الموصوف بها وتوحيده والاخلاص له والتوكل عليه والإنابة اليه . وكلما كان الايمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى .

فعبارات السلف كلها تدل على هذه المعانى الأربعة . فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى (وله المثل الاعلى) وبين قوله (ليس كمثله شىء) ويستدل بقوله (ليس كمثله شىء) على نفى الصفات ، ويعمى عن تمام الآية وهو قوله (وهو السميع البصير) حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم وهو أحمد ابن أبى داود القاضى إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة ليس كمثله شىء وهو العزيز الحكيم ، حرف كلام الله بنفى وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر جهم بن صفوان : وددت أن أحك من المصحف قوله تعالى (ثم استوى على العرش) فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بمنه وكرمه .

وفى إعـــراب قوله « كمثله » وجوه : (أحدها) أن الكاف صلة زيدت للتأكيد ، وقال أوس بن حجر .

ليس كمثل الفتى زهـــير   خلق يوازيه فى الفضـــائل

وقال آخر　　ما أن كمثلهم فى الناس من بشر

وقال آخر　　ومثلى كمثل جزوع النخيل ،

فيكون مثله خبر ليس بشيء وهذا وجه قوى حسن تعرف العرب معناه فى ولا يخفى عنها إذا خوطبت به ، وقد جاء عن العرب أيضاً زيادة الكاف للتأكيد فى قول بعضهم وصاليات ككما يؤثفين [1] .

وقول الآخر　　فأصبحت مثل كعصف مأكول .

(الوجه الثانى) أن الزائد مثل أى ليس كهو شيء ، وهذا القول بعيد لأن مثل اسم والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم .

(الثالث) أنه ليس ثم زيادة أصلا بلا هذا من باب قولهم مثلك لا يفعل كذا أى أنت لا تفعله ، وأتى بمثل للمبالغة وقالوا فى معنى المبالغة هنا أى ليس كمثله مثل لو فرض المثل فكيف ولا مثل له ، وقيل غير ذلك والأول أظهر .

قوله (خلق الخلق بعلمه) .

ش : خلق أى أوجد وأنشأ وأبدع ويأتى خلق أيضاً بمعنى قدر والخلق مصدر وهو هنا بمعنى المخلوق ، وقوله بعلمه فى محل نصب على الحال أى خلقهم عالما بهم قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) وفى ذلك رد على المعتزلة .

قال الإمام عبد العزيز المكى صاحب الامام الشافعى وجليسه فى كتاب الحيدة الذى حكى فيه مناظرته بشراً المريسى عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى فقال بشراً قول لا يجهل ، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم تقريراً له ، وبشر يقول لا يجهل ، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الامام عبد العزيز : نفى الجهل لا يكون صفة مدح فان هذه الاسطوانه لا تجهل وقد مدح الله الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفى الجهل ، فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل ومن

---

(١) قوله صاليات هى الحجارة المحترقة . قوله يؤثفين بمثناة تحتية مضمونة فهمزة مفتوحة فثلثة ساكنة ففاء : أثافي للقدر يوضع عليها عند الطبخ . حاشية المغنى .

ففى الجهل لم يثبت العلم ، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبت الله تعالى لنفسه وينفوا ما نفاه ويمسكوا عما أمسك عنه .

والدليل العقلى على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل . ولأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والارادة تستلزم تصور المراد . وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزما للارادة ،والارادة مستلزمة للعلم ،فالايجاد مستلزم للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها لأن العلم المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما وهذا له طريقان :

(أحدهما) أن يقال : نحن نعلم بالضروره أن الخالق أكمل من المخلوق وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم ضرورة أن لو فرضنا شيئين : أحـــدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع .

(الثانى) أن يقال : كل علم فى الممكنات التى هى المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوى هو والمخلوق لا فى قياس تمثيلى ولا فى قياس شمولى، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما ، فتنزه الخالق عنه أولى .

قوله (وقدر لهم أقداراً) .

ش : قال تعالى (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) وقال تعال (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقال تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدورا) وقال تعالى (الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى «ص» أنه قال (قدر الله مقادير الخلق قبـــل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه الماء .

قوله (وضرب لهم آجالا) .

ش : يعني أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قال تعالى (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلا) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي (ص) ، اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ، قال فقال النبي «ص» قد سألت لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً قبل أجله ولن يؤخر شيئاً عن أجله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر كان خيراً وأفضل » .

فالمقتول ميت بأجله ، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل وهذا بسبب الهدم ، وهذا بسبب الحرق ، وهذا بالغرق إلى غير ذلك من الأسباب ، والله سبحانه خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت والحياة .

وعند المعتزلة المقتول مقطوع عليه أجله ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكان له أجلان وهذا باطل ، لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلا يعلم أنه لا يعيش اليه البتة أو يجعل أجله أحد الامرين كفعل الجاهل بالعواقب ، وأوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهى عنه ومباشرته السبب المحظور ، وعلى هذا يخرج قوله (ص) « صلة الرحم تزيد فى العمر » أى سبب طول العمر ، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبب وقضاه . وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا كما قلنا فى القتل وعدمه .

فان قيل : هل يلزم من تأثير صلة الرحم فى زيادة العمر ونقصانه تأثير

الدعاء فى ذلك أم لا (فالجواب) أن ذلك غير لازم لقوله (ص) لأم حبيبة « قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة » الحديث كما تقدم فعلم أن الأعمال مقدرة لم يشرح الدعاء بتغييرها بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فان الدعاء مشروع له نافع فيه ، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروى شرع فى الدعاء الذى رواه النسائى من حديث عمار بن ياسر عن النبى (ص) أنه قال « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » إلى آخر الدعاء .

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم فى صحيحه من حديث ثوبان عن النبى (ص) لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمـــر إلا البر ، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفى الحديث رد على من يظن أن النذر سبب فى دفع البلاء ، وحصول النعماء ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى (ص) أنه نهى عن النذر وقال « إنه لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » .

وأعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً فى بعض الأشياء دون بعض وكذلك هو ، ولهذا لا يجيب الله المعتدين فى الدعاء . وكان الإمام أحمد يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول : هذا أمر قد فرغ منه .

وأما قوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) فقد قيل فى الضمير المذكور فى قوله تعالى (من عمره) نه بمنزلة قولهم عندى درهم ونصفه أى ونصف درهم آخر ، فيكون المعنى ولا ينقص من عمر معمر آخر وقيل الزيادة والنقصان فى الصحف التى فى أيدى الملائكة ، وحمل قوله تعالى (لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) على أن المحو والإثبات من الصحف التى فى أيدى الملائكة وأن قوله (وعنده أم الكتاب) اللوح المحفوظ ويدل على هذا الوجه سياق الآية وهو قوله (لكل أجل كتاب) ثم قال (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أى من ذلك الكتاب (وعنده أم الكتاب) أي أصله وهو اللوح المحفوظ .

وقيل يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت مايشاء فلا ينسخه ، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول وهى قوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب) فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتى بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله ثم قال (لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت) أى أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهى إليها ثم تنسخ بالشريعة الأخرى ، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل ويثبت ما يشاء ، وفى الآية أقوال أخرى والله أعلم بالصواب .

قوله (لم يخف عليه شىء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم) .

ش : فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وإن كان يعلم أنهم لا يردون ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وفى ذلك رد على الرافضة والقدرية الذين قالوا : إنه لا يعلم الشىء قبل أن يخلقه ويوجده ، وهو من فروع مسئلة القدر وسيأتى لها زيادة إن شاء الله تعالى .

قوله (وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته) .

ش : ذكر الشيخ الأمر والنهى بعد ذكر الخلق والقدر إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وقال تعالى (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

قوله (وكل شىء يجرى بتقديره ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن) .

ش : قال تعالى (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما) وقال (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا

إلا أن يشاء الله) وقال تعالى (ولو شاء ربك ما فعلوه) وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) وقال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال تعالى (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكيف يكون فى ملكه ما لا يشاء .

ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فإن قيل يشكل على هذا قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) الآية . وقوله تعالى (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه شىء) الآية وقوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى إذ قال (رب بما أغويتنى لأزينن لهم الأرض ولأغوينهم أجمعين) .

قيل قد أجيب عن هذا بأجوبة من أحسنها أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك ، أو أنه أنكر عليهم ذلك ، أن مشيئة الله دليل على أمره به أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه كفعل الزنادقة والجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر ،

وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقدر فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره . يشهد لذلك قوله تعالى فى الآية (كذلك كذب الذين من قبلهم) فعلم أن مرادهم التكذيب فهو من قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره اطلع الغيب .

فإن قيل فما يقولون فى احتجاج آدم على موسى بالقدر إذ قال له أتلو منى على أمر قد كتبه الله على قبل أن أخلق أربعين عاماً ، وشهد النبى صلى الله عليه وسلم أن آدم حج موسى أى غلب عليه بالحجة .

قيل نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة ، بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو كان أعلم بربه وذنبه بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر فانه باطل ، وموسى كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه ، وتاب الله عليه واجتباه وهداه ، وإنما وقع اللوم على المصيبة التى خرجت أولاده من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة ، فان القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب .

وهذا المعنى أحسن ما قيل فى الحديث ، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فانه من تمام الرضا بالله ربا ، وأما الذنب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب ، قال تعالى (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) .

وأما قول إبليس (رب بما أغويتنى) إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له ، ألم تسمع قول نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) ولقد أحسن القائل :

فما شئت كان وإن لم أشأ   وما شئت إن لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه أنه قال نظرت فى القدر فتحيرت ، ثم نظرت فيه فتحيرت ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به .

قوله يهدى من يشاء ويعصم ويعافى فضلا ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا) .

ش : هذا رد على المعتزلة قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله وهى مسئلة الهدى والضلال ، قالت المعتزلة الهدى من الله بيان طريق الصواب ، والإضلال تسمية العبد ضالا ، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال فى نفسه وهذا مبنى على أصلهم الفاسد : أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والدليل على ما قلناه قوله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفى عن نبيه لأنه (ص) بين الطريق لمن أحب وأبغض وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها — يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام فى كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة . وكذا قوله تعالى (ولو لا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقوله (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .

قوله (وكلهم يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله) .

ش : فانهم كما قال تعالى (والله خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فمن هداه إلى الإيمان فبفضله وله الحمد ، ومن أضله فبعدله وله الحمد وسيأتى لهذا المعنى زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى فان الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى القدر فى مكان واحد ، بل فرقه ، فأتيت به على ترتيبه .

قوله (وهو متعال عن الأضداد والأنداد) .

ش : الضد المخالف ، والند المثل ، وهو سبحانه لا معارض له بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثل له كما قال تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) ويشير الشيخ رحمه الله بنفى الضد والند إلى الرد على المعتزلة فى زعمهم أن العبد يخلق فعله .

قوله (لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره) .

ش : أى لا يرد قضاء الله راد ولا يعقب أى لا يؤخر حكمه مؤخر ولا يغلب أمره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

قوله (آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده) .

ش : أما الإيمان فسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى والإيقان والاستقرار من قر الماء فى الحوض إذا استقر والتنوين فى « كلا » بدل إضافى أى كل دائن حدث من عند الله أى بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه ، وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله (وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى) .

ش : الاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقارب المعنى ، وأعلم أن كمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله تعالى ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وإن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم ، وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) إلى غير ذلك من الآيات ـ وذكر الله نبيه (ص) باسم العبد فى أشرف المقامات فقال فى ذكر الإسراء (سبحان الذى أسرى بعبده) وقال تعالى (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) وقال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وبذلك استحق التقديم على الناس فى الدنيا والآخرة ، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام « اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى .

وقوله « وإن محمداً » بكسر الهمزة عطفاً على قوله : إن الله وحده لا شريك له لأن الكل معمول القول ، أعنى قوله « نقول فى توحيد الله » .

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات ، وقد روى ذلك

بطرق مضطربة ، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك .

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح ، ولكن الدليل غير محصور فى المعجزات فإن النبوة يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين . ولا يلبس هذا إلا على أجهل الجاهلين ، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما ، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوة النبوة ، فكيف بدعوة النبوة . وما أحسن ما قال حسان رضى الله عنه :

ولو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحوذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز ، فان الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ، ويأمرهم بأمور ، ولا بد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه . والكاذب يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده . بل كل شخصين ادعى أمراً أحدهما صادق والآخر كاذب لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما فى الصحيحين عن النبي (ص) أنه قال : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

ولهذا قال تعالى (أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقاً ، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذى يخبرون به ليس عن ملك ، وليسوا بانبياء ، ولهذا لما قال النبي (ص)

لابن صياد « قد خبأت لك خبأ فقال هو الدخ » قال له النبي (ص) « اخسأ فلن تعدو قدرك » يعني إنما أنت كاهن وقد قال للنبي (ص) « يأتيني صادق وكاذب » وقال (أرى عرشاً على الماء وذلك هو عرش الشيطـان) وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون ، والغاوى الذى يتبع هواه وشهوته وإن ذلك مضراً له فى العاقبة .

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاء ومطابقة قوله لعمله ، علم علماً يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن .

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة هى فى المدعى للصناعات والمقالات كمن يدعى الفلاحة والفصاحة والكتابة أو علم النحو والطب والفقه وغير ذلك ، والنبوة مشتمـلة على علوم وأعمال لا بد أنه يتصف الرسـول بها ، وهى أشرف العلوم وأشرف الأعمال ، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثه قد يقترن به من القرائن مايحصل معه العلم الضرورى كما يعرف الرجل رضا الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما فى نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكن التعبير عنها كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) ثم قال (ولتعرفنهم فى لحن القول) وقد قيل ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

فاذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن ، فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله ، كيف يخفى صدق هذا من كذبه وكيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة .

ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبى (ص) أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحى إنى قد خشيت على نفسى ، فقالت كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمـــل الكل ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه

(ص) أنه لم يكذب وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء وهو المقام الثاني ، فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ، ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة) وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي (ص) بما رآه وكان ورقة قد تنصر ، وكان يكتب الإنجيل بالعربية فقالت له خديجة أي عم اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبي (ص) بما رأى ، فقال هذا هو الناموس الذي كان يأتي به موسى .

وكذلك هرقل ملك الروم فإن النبي (ص) لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلب من كان هناك من العرب ، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام ، وسألهم عن أحوال النبي (ص) ، فسأل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه ، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار ، سألهم : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقالوا لا ، قال : هل قال هذا القول أحد قبله ، فقالوا لا ، وسألهم أهو ذو نسب فيكم فقالوا نعم ، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا ما جربنا عليه كذبا ، وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم ؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه ، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكروا أنهم يزيدون ، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطه له بعد أن يدخل فيه ؟ فقالوا لا ، وسألهم هل قاتلتموه قالوا نعم وسألهم عن الحرب بينهم وبينه ، فقالوا يدال علينا مرة وتدال عليه أخرى ، وسألهم هل يغدر ؟ فذكروا أنه لا يغدر ، وسألهم بماذا يأمركم ، فقالوا يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

وهـذه أكثر من عشر مسائل ، ثم بين لهم مافى هـــذه المسائل من الأدلة فقال .

سألتـكم هل كان فى آبائه من ملك فقلتم لا ، قلت لو كان فى آبائه من ملك لقلت رجل يطيب ملك أبيه .

وسألـكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبـله ؟ فقلتم لا . فقلت لو قال هـذا القول أحد قبله لقلت رجل أئتم بقول قيل قبله .

وسألتـكم هل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ما قال . فقلتم لا ، فقلت قد علمت أنه لم يـكن ليدع الـكذب على الناس ثم يذهب فيـكذب على الله .

وسألتـكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم . فقلتم ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل يعنى فى أول أمرهم ثم قال :

وسألتـكم أيزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم .

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقلتم لا ، وكذلك الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد .

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فان الـكذب والباطل لا بد أن ينـكشف فى آخر الأمر فيرجـع عنه صاحبه ، ويمتنع عنه من لم يدخل فيـــه . والـكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينـكشف .

وسألتكم كيف الحرب بينـكم وبينـه ؟ فقلتم إنها دول ، وكذلك الرسل تبتلى وتـكون العاقبة لها ، قال :

وسألتكم هل يغدر فقلتم لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وهو لـــما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تاره ينصرهم ، وتارة يبليهم، وإنهم لا يغدرون . علم أن هذه علامات الرسل . وأن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشـكر والصبر ، كما فى الصحيـح عن النبى (ص) أنه قال « والذى نفسى بيـده لا يقضى الله للمؤمن

قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

والله تعالى قد بين فى القرآن ما فى إدالة العدو عليهم يوم أحـــد من الحكمة فقال (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) الآيات وقال تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الآيات إلى غير ذلك من الايات والأحاديث الدالة على سنته فى خلقه ، وحكمته التى بهرت العقول .

قال : وسألتكم عما يأمر به فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئاً ويأمركم بالصلاه والصدق والعفاف والصلة وينها كم عما كان يعبد آباؤكم ، وهذه صفة نبى ، وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث ولم أكن أظنه منكم ، ولوددت أنى أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه ، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وكان المخاطب بذلك أبو سفيان ابن حرب وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبى (ص) .

قال أبو سفيان بن حرب . فقلت لأصحابى ونحن خروج لقد أمر أمر ابن أبى كبشة ، إنه ليعظمه ملك بنى الأصفر ، وما زلت موقنا بأن أمر النبى (ص) سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام وأنا كاره .

ومما ينبغى أن يعرف أن ما يحصل فى القلب بمجموع أمـــور قد لا يستقل بعضها به بل ما يحصل للانسان من شفيع ووزير وشكر وفرح وغم بأمور مجتمعه لا يحصل ببعضها لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر(١) .

وكذلك العلم بخبر من الأخبار فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن ثم الاخر يقويه إلى أن ينتهى إلى العلم حتى يتزايد ويقوى ، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك .

وأيضاً فإن الله سبحانه أبقى فى العـــالم الاثار الدالة على ما فعله بأنبيائه

---

(١) كذا بالأصل وهو غير مفهوم .

وإغراق فرعون وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة (إن ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول أنه رسول الله . وأن أقواما اتبعوهم ، وأن أقواما خالفوهم ، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم . وعاقب أعداؤهم ، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها ، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه . .

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم ، علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة : منهم أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم ، وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم . ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذى حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم عرف صدق الرسل . ومنها أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل ، وأن فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ، ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر عن راحم بر ، يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق .

ولذكر دلائل نبوة محمد (ص) من المعجزات وبسطها موضع آخر ، وقد افردها الناس بمصنفات كالبيهقي .

بل إنكار رسالته (ص) طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبة له إلى الظلم والسفه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل جحد للرب بالكلية وإنكار ،

وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق بل ملك ظالم فقد تهيأ له

أن يفترى على الله ويتقول عليه ويستمر، حتى يحلل ويحرم ويفرض الفـــرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبي نساؤهم ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى تفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له. والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلى أمره، ويمكن له من اسباب النصر الخارجة على عادة البشر، وابلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ويهلك أعداؤه ويرفع له ذكره هذا وهو عندهم فى غاية الكذب والافتراء والظلم، فانه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائـــع أنبيائه وبدلها. وقتل أوليائه، واستمرت نصرته عليهم دائماً والله تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين، فيلزمهم أن يقولوا لا صـانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حليم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله نكالا للصالحين. إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين.

ولا ريب أن الله تعالى رفع له ذكره وأظهر دعـــوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الإشهاد فى سائر البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام فى الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره ولم تطل مـدته، بل يسلط الله عليه رسله وأتباعهم وقطعوا دابره واستأصلوه، هـــذه سنة الله التى قد خلت من قبل حتى أن الكفـار يعلمون ذلك. قال تعـالى (أم يقولون شاعر يتربص به ريب المنون، قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) أفـلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن تقر من يقول عليه بعض الاقاويل، لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه. وقال تعـالى (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك) وهنا انتهى جواب الشرط ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق عليه أنه يمحق الباطل ويحق الحق وقال تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فأخبر سبحانه أن من نفى

عنه الإرسال والكلام لم يقدره .

وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول ، وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول أخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل ، فانهم لايتناولون الأنبياء وغيرهم ، بل الأمر بالعكس ، فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها .

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه ، وخصوصاً محمداً صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

قوله (وانه خاتم الأنبياء) .

ش : قال تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وقال صلى الله عليه وسلم « مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لايعيبون سواها ، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ، ختم بي الرسل » أخرجاه في الصحيحين ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن لي أسماء أنا محمد وأنا محمد وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي » وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لانبي بعدي » الحديث ، ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون »

قوله (وإمام الاتقياء) .

ش : الإمام الذى يؤتم به أى يقتدون به ، والنبى صلى الله عليه وسلم إنما بعث للإقتداء به لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء .

قوله (وسيد المرسلين) .

ش : قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنـــه القبر وأول شافع مشفع » رواه مسلم وفى أول حديث الشفاعة « أنا سيد الناس يوم القيامة وروى مسلم والترمذى عن واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله صلى عليه وسلم « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » .

فان قيل يشكل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتفضلونى على موسى ، فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بساق العرش فلا أدرى هل أفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » خرجاه فى الصحيحين ، فكيف يجمع بين هذا وبين قوله أنا سيد ولد آدم ولا فخر .

(فالجواب) إن هذا كان له سبب ، فانه كان قد قال يهودى لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فلطمه مسلم وقال أتقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا ، فجاء اليهودى فاشتكى من الذى لطمه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا لان التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما ، فان الله حرم الفخر وقد قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول .

وعلى هذا يحمل أيضاً قوله «ص» لا تفضلوا بين الأنبياء . إن كان ثابتاً فان هذا قد روى فى نفس حديث موسى وهو فى البخارى وغيره ، لكن بعض الناس يقول إن فيه علة ، بخلاف حديث موسى فانه صحيح لا علة فيه باتفاقهم .

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر وهو أن قوله «ص» «لا تفضلوا على موسى» وقوله لا تفضلوا بين الأنبياء نهى عن التفضيل الخاص أى لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه ، بخلاف قوله أنا سيد ولد آدم ولا فخر ! فانه تفضيل عام فلا يمنع منه ، وهذا كما لو قيل فلان أفضل أهل البلد ، لا ينصب على أفرادهم . بخلاف ما لو قيل لاحدهم : فلان أفضل منك . ثم أنى رأيت الطحاوى قد أجاب بهذا الجواب فى شرح معانى الآثار .

وأما ما يروى أن النبى (ص) قال «لا تفضلونى على يونس بن متى» وان بعض الشيوخ قال . « لا يفسر هذا الحديث حتى يعطى مالا جزيلا ، فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو فى بطن الحوت كقربى من الله ليلة المعراج ، وعدوا هذا تفسيراً عظيما .

وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى ، فان هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التى يعتمد عليها ، وإنما اللفظ الذى فى الصحيح « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وفى روايه « من قال أنى خير من يونس بن متى فقد كذب » وهذا اللفظ يدل على العموم أى ينبغى لاحد ان يفضل بنفسه على يونس بن متى ، ليس فيه نهى المسلمين ان يفضلوا محمداً على يونس ، وذلك لان الله تعالى قد أخبر عنه أن التقمه الحوت وهو مليم ، أى فاعل ما يلام عليه ، وقال تعالى (وذا النون ذهب مغاضباً فظن أن لا نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فقد يقع فى نفس بعض الناس انه أكمل من يونس ، فلا يحتاج إلى هذا المقام إذ لا يفعل ما يلام عليه .

ومن ظن هذا فقد كذب بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس أن لا إله

إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، كما قال أول الأنبياء وآخرهم فأولهم آدم قد قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، وآخرهم وأفضلهم سيدنا محمد (ص قال فى الحديث الصحيح ، حديث الاستفتاح من رواية على بن أبى طالب وغيره بعد قوله وجهت وجهى إلى آخره « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت » إلى آخر الحديث وكذا قال موسى عليه السلام : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فاغفر له إنه هو الغفور الرحيم ،

وأيضاً فيونس (ص) لما قيل فيه (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) فنهى نبينا عن التشبه به وأمره بالتشبه بأولى العزم حيث قيل (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) فقد يقول من يقول: أنا خير من يونس، للأفضل أن يفخر على من دونه . فكيف إذا لم يكن أفضل فان الله لا يحب كل مختال فخور.

وفى صحيح مسلم عن النبى (ص) أنه قال . أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد ، فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين فكيف على نبى كريم فلهذا قال لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ، فهذا نهى عام لكل أحد أن يفضل ويفتخر على يونس . قوله « من قال أنى خير من يونس بن متى فقد كذب » فانه لو قدر أنه كان أفضل فهذا الكلام يصير نقصاً فيكون كاذباً ، وهذا لا يقوله نبى كريم ، بل هو تقدير مطلق أى من قال هذا فهو كاذب وإن كان لا يقوله نبى كما قال تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وإن كان (ص) معصوماً من الشرك لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الاعمال .

وإنما أخبر (ص) أنه سيد ولد آدم ، لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره إذ لا نبى بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله كما أخبرنا هو بفاضل الأنبياء قبله (ص) أجمعين . ولهذا أتبعه بقوله « ولا فخر » كما جاء فى رواية .

وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر أن مقام الذى أسرى به إلى ربه وهو مقرب مكرم كمقام الذى ألقى فى بطن الحوت وهو مليم ، وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب ، فهذا فى غاية التقريب ، وهذا فى غاية التأديب .

فانظر إلى هذا الاستدلال لأن بهذا المعنى المحرف به اللفظ لم يقله الرسول ، وهل يقاوم هذا الدليل على نفى علو الله تعالى على خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه التى تزيد على ألف دليل كما يأتى الإشاره إليها عند قول الشيخ رحمه الله ، محيط بكل شىء وفوقه ، إن شاء الله تعالى .

قوله (وحبيب رب العالمين) .

ش : ثبت له (ص) أعلى مراتب المحبة وهى الخلة كما صح عنه (ص) أنه قال « إن الله اتخذنى خليلا » ، وقال « ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن ، والحديثان فى الصحيح وهما يبطلان قول من قال : الخله لإبراهيم والمحبة لمحمد ، فابراهيم خليل الله ، ومحمد حبيبه ، وفى الصحيح أيضاً انى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، والمحبة قد ثبتت لغيره قال تعالى (والله يحب المحسنين - فإن الله يحب المتقين - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد ، بل الخلة خاصة بهما المحبة عامة ، وحديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى الذى فيه ، أن ابراهيم خليل الله ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، لم يثبت .

المحبة مراتب (أولها) العلاقة وهى تعلق القلب بالمحبوب (والثانية) الارادة وهى ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له (الثالثة) الصبابه وهى انصباب القلب اليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء فى الحدور (الرابعة) الغرام وهى الحب اللازم للقلب ومنه الغريم لملازمته ، ومنه أن عذابها كان غراما (الخامسة) المودة والود وهى صفو المحبة وخالصها ولبها . قال تعالى (سيجعل لهم الرحمن وداً) (السادسة) الشغف وهو وصول المحبه إلى شغاف القلب

(السابعة) العشق وهو الحب المفرد الذى يخاف على صاحبه منه ، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد فى محبة ربه ، وإن كان قد أطلقه بعضهم ، واختلف فى سبب المنع فقيل عدم التوقيف وقيل غير ذلك . ولعل امتناع اطلاقه أن العشق محبة مع شهوة (الثامنة) التيم وهو بمعنى التعبد (التاسعة) التعبد (العاشرة) الخلة . وهى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه ، وقيل فى ترتيبها غير ذلك ، وهذا الترتيب تقريب حسن لا يعرف حسنه إلا بالتأمل فى معانيه .

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صفاته تعالى ، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة حيثما ورد النص .

وقد اختلف فى تحديد المحبة على أقوال نحو ثلاثين قولا ، ولا تحد المحبة بحد أوضح منها فالحدود لا تزيدها إلا خفاء . وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك .

(قوله وكل دعوى النبوة بعده فغى وهوى) .

ش : لما ثبت أن خاتم النبيين علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب ، ولا يقال فلو جاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه ، لأنا نقول هذا لا يتصور أن يوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين ، فمن المحال أن يأتى مدع يدعى النبوة ولا يظهر أمارة فى دعواه ، والغى ضد الرشاد ، والهوى عبارة عن شهوة النفس ، أى أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس لا عن دليل فتكون باطلة .

قوله (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهدى ، والنور والضياء) .

ش : ما كونه مبعوثاً إلى عامة الجن فقال تعالى حكاية عن قول الجن (يا قومنا أجيبوا داعى الله) الآية وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً ، قال مقاتل لم يبعث الله رسولا إلى الإنس والجن قبله ، وهذا قوله بعيد ، فقد قال تعالى (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) الآية

والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسول ، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف ، وقال ابن عباس الرسل من بنى آدم ومن الجن نذر ، وظاهر قوله تعالى حكاية من الجن (إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) الآية يدل على أن موسى مرسل إليهم أيضاً والله أعلم

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن فى الجن رسلا ، واحتج بهذه الآية الكريمة . وفى الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة، وهى والله أعلم كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) والمراد من أحدهما ،

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى فقد قال (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا) وقد قال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وقد قال تعالى وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أى وأنذر من بلغه ، وقال تعالى (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) وقال تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) الآية وقال تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) .

وقال صلى الله عليه وسلم ـ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ـ أخرجاه فى الصحيحين وقال صلى الله عليه وسلم ـ لا يسمع بى رجل من الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار ـ رواه مسلم .

وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى النـــاس كافة معلوم من دين بالضرورة .

وأما قول النصارى أنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان ، فانهم لما صدقوا بالرساله لزمهم تصديقه فى كل مايخبر به ، وقد قال أنه رسول الله إلى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ، فلزم تصديقه حتما ، فقد أرسل رسله وبعث كتبه فى أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس ، وسائر ملوك الأطراف يدعوا إلى الإسلام .

وقوله « وكافة الورى » فى جر كافة نظر ، فانهم قالوا لم تستعمل كافة فى كلام العرب إلا حالا ، واختلفوا فى إعرابها فى قو تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) على ثلاثة أقوال (أحدها) أنها حال من الكاف فى أرسلناك وهى اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة أى إلا كافة الناس عن الباطل ، وقيل هى مصدر كف فهى بمعنى كفاً اى إلا ان تكف الناس كفاً ووقوع المصدر حالا كثير .

(الثانى) إنها حال من الناس ، واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور ، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبوله . وهو اختيار ابن مالك أى (وما أرسلناك إلا للناس كافة) .

(الثالث) أنها صفة لمصدر محذوف أى رسالة كافة . واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالا .

وقوله « بالحق والهدى وبالنور والضياء » هذه أوصاف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة والضياء اكمل من النور ، قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) .

قوله (وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية ، وأنزله على رسوله وحياً وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه واوعده بسقر ، حيث قال تعالى (ساصليه سقر) فلما اوعده الله بسقر قال (ان هذا إلا قول البشر) علمنا وايقنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر)

ش : هذه قاعدة شريفة واصل كبير من اصول الدين ، ضل فيه طوائف كثيرة

من الناس ، وهذا الذى حكاه الطحاوى رحمه الله هو الحق الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرها ، وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقد افترق الناس فى مسألة الكلام عن تسعة أقوال (أحدها) أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعانى إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

(وثانيها) وأنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه ، وهذا قول المعتزلة (وثالثها) أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهى والخبر والاستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة . وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعرى وغيره ، (ورابعها) أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة فى الازل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ، ومن أهل الحديث ، (وخامسها) أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما ، وهذا قول الكرامية وغيرهم ، (وسادسها) أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته ، وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازى فى المطالب العالية (وسابعها) أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه فى غيره وهذا قول أبى منصور الماتريدى (وثامنها) أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات ، وبين ما يخلقه فى غيره من الاصوات ، وهذا قول أبى المعالى ومن تبعه .

(وتاسعها) أنه تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم وان لم يكن الصوت المعين قديماً . وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

وقول الشيخ رحمه الله ـ وان القرآن كلام الله ـ ان بكسر الهمزة عطف على قوله ان الله واحد لا شريك له ، ثم قال ـ وان محمداً عبده المصطفى ـ وكسر همزة ـ ان ـ فى المواضع الثلاثة لانها معمول القول أعنى قوله فى أول كلامه نقول فى توحيد الله .

وقوله « كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا » رد على المعتزلة وغيرهم ، فان

المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبد منه كما تقدم حكاية قولهم ، قالوا وإضافته إليه إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله يحرفون الكلام عن مواضعه وقولهم باطل . فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان ، فإضافة الأعيان إلى الله التشريف وهي مخلوقة له كبيت الله وناقة الله بخلاف إضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره ، فإن هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) فكان عباد العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة ، فإنه لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم أيضا ، وقال تعالى عن العجل أيضاً (أفلا يرون لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا) فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم أنهم يقولون يلزم منه التشبيه والتجسيم ، فيقال لهم إذا قلنا أنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت ، ألا ترى أنه تعالى قال (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم ، وكذا قوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وكذلك تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر ، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف .

وإلى هنا أشار الشيخ رحمه الله بقوله « منه بدأ بلا كيفية قولا » أي ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به ، وأكد هذا المعنى بقوله « قولا » أتى بالمصدر المعرف للحقيقة كما أكد الله تعالى الكلام بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله (وكلم الله موسى تكليما) فماذا بعد الحق إلا الضلال .

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة أريد أن تقرأ (وكلم الله موسى) بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله ، فقال له أبو عمرو ، هب أني قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى :

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه به) فبهت المعتزلى .

وكم فى الكتاب والسنة دليل على تكلم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم . وقال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) .

عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا أبصارهم فاذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال السلام عليكم أهل الجنة وهو قول الله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، وتبقى بركته ونوره » رواه ابن ماجه وغيره ففى هذا الحديث إثبات صفة الكلام وإثبات الرؤية وإثبات العلو . وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً وقد قال تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) فأهانهم بترك تكليمهم ، والمراد أنه لا يتكلم تكليم تكريم وهو الصحيح إذ قد أخبر فى الآية الأخرى أنه يقول لهم من النار (اخسأوا فيها ولا تكلموا فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا فى ذلك هم وأعداؤه سواء ، ولم يكن فى تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلا .

وقال البخارى فى صحيحه (باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة) وساق فيه عدة أحاديث ، فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم ، فإنكار ذلك انكار لروح الجنة ، وأعلى نعيمها وأفضله الذى ما طابت لأهلها الا به .

وأما استدلالهم بقوله تعالى (الله خالق كل شيء) والقرآن شيء فيكون داخلا فى عموم « كل » فيكون مخلوقاً . فمن أعجب العجب . وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى . وانما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم « كل » وأدخلوا كلام الله فى عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة اذ بأمره تكون المخلوقات قال تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) ففرق بين الخلق والأمر ،

فلو كان الأمر مخلوقا للزم أن يكون مخلوقا بأمر آخر ، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسل وهو باطل ، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم ومقدرة وغيرهما . وذلك صريح الكفر ، فيكون مخلوقا بعد أن لم يكن ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وكيف يصبح أن يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ، ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه ، وكذلك أيضاً ما خلقــــه في الحيوانات ، ولا يفرق حينئذ بين نطق أو نطق ، وإنما قالت الجلود أنطقنا الله . ولم تقل نطق الله ، بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذبا أو كفراً وهذيانا ، تعالى الله عن ذلك ، وقد طرد ذلك الاتحادية فقال ابن عربى .

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال البصير أعمى والأعمى بصير ، لان البصير قد قام وصف العمى بغيره ، والاعمى قد قام وصف البصر بغيره ، ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التى خلقهـــا في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك .

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكى بشراً المريسى بين يدى المأمون بعد أن تكلم معه ملتزما أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة فقال بشر : يا امير المؤمنين ليدع مطالبتى بنص التنزيل ويناظرنى بغيره ، فان لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمى حلال ، قال عبد العزيز : تسألنى ام اسألك فقال بشر اسأل انت . وطمع فى فقلت له : يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها : إما ان تقول ان الله خلق القرآن وهو عندى انا كلامه فى نفسه او خلقه قائماً بذاته ونفسه او خلقه وغيره .

قال اقول : خلقه كما خلق الأشياء كلها : وحاد عن الجواب .

فقال المأمون : اشرح انت هذه المسألة ودع بشراً فقد انقطع .

فقال عبد العزيز إن قال خلق كلامه فى نفسه فهذا محال ، لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة ولا يكون فيه شيء مخلوق ، وإن قال خلقه فى غيره فهو محال أيضا ، لانه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله فى غيره هو كلام الله وإن قال خلقه قائما بنفسه وذاته فهو ، فهذا محال ، لا يكون الكلام إلا من متكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ، ولا العلم إلا من عالم ، ولا يعقل كلام قائم بنفسه متكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقا ، علم أنه صفه لله ، هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز فى الحيدة .

وعموم « كل » فى كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن ، ألا ترى إلى قوله تعالى (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) ومساكنهم شيء ولم تدخل فى عموم كل شيء دمرته الريح ، وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير ، وكذلك قوله تعالى حكاية عن بلقيس (وأوتيت كل شيء) المراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة فى أمر الملك ، غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها ، ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى (خالق كل شيء) أى كل مخلوق ، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل فى هذا العموم أفعال العباد حتما ولم يدخل فى العموم الخالق تعالى ، وصفاته وليست غيره لانه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله وما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم ، فاذا كان قوله تعالى (خالق كل شيء) مخلوقا لا يصح أن يكون دليلا.

وأما استدلاله بقوله تعالى (أنا جعلناه قرآنا عربيا) فما أفسده من استدلال . فان « جعل » إذا كان بمعنى خلق يتعدد إلى مفعول واحد كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ـ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا

سبلا لعلهم يهتدون ـ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق ، قال تعالى (ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وقال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وقال تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) وقال تعالى (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) وقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) .

وقد أفسد استدلالهم بقوله تعالى (نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها ، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فان الله تعالى قال (فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن) والنداء هو الكلام من بعده ، فسمع موسى النداء من حافة الوادي ثم قال (في البقعة المباركة من الشجرة) أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم ، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة هي القائلة ياموسى إني أنا رب العالمين . وهل قال إني أنا الله رب العالمين : غير رب العالمين .

ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله فكان قول فرعون (أنا ربكم الاعلى) ، صدقا ، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله ، وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة أن ذاك كلام خلقه الله في الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون ، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله ، وسيأتي الكلام على مسئلة أفعال العباد إن شاء الله تعالى .

فان قيل فقد قال تعالى (إنه لقول رسول كريم) وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبرائيل أو محمد .

قيل : ذكر الرسول معروف أنه مبلغ عن مرسله لانه لم يقل أنه قول ملك أو نبي فعلم أنه بلغه عمن أرسله به لا أنه أنشأه من جهة نفسه .

وأيضاً فالرسول فى إحدى الآيتين جبرائيل وفى الأخرى محمد ، فاضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر .

وأيضا فوصف الرسول بأنه أمين دليل على أنه لا يزيد فى الكلام الذى أرسل بتبليغه ولا ينقص منه ، بل هو أمين على ما أرسل به ، يبلغه عن مرسله .

وأيضاً فان الله قد كفر من جعله قول البشر ، ومحمد (ص) بشر ، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول أنه قول بشر أو جنى أو ملك ، والكلام كلام من قاله مبتدياً لا من قاله مبلغاً ، ومن سمع قائلا يقول :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

قال هذا شعر امرىء القيس ، ومن سمعه يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » قال هذا كلام الرسول وإن سمعه يقول (الحمد لله رب العالمين — الرحمن الرحيم — مالك يوم الدين — إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا كلام الله إن كان عنده خبر ذلك وإلا قال لا أدرى كلام من هذا ، ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذب . ولهذا من سمع من غيره نظما أو نثراً يقول له هذا كلام من ؟ هذا كلامك أو كلام غيرك .

وبالجملة فاهل السنة كلهم من اهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون فى ان كلام الله هل هو معنى واحد بالذات او انه حروف واصوات تكلم الله بها بعد ان لم يكن متكلما او انه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وان نوع الكلام قديم ، وان يطلق بعض المعتزلة على القرآن انه غير مخلوق ومرادهم انه غير مختلق مفترى مكذوب ، بل هو حق وصدق، ولا ريب ان هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين .

والنزاع بين اهل القبلة إنما هو فى كونه مخلوقا خلقه الله . او هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته ، واهل السنة إنما سئلوا عن هذا ، وإلا فكونه مكذوبا

مفترى مما لا ينازع مسلم فى بطلانه ، ولا شك أن مشائخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم فى التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وإنمـــا يزعمون أن العقل دلهم عليه ، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرع ،

ولو ترك الناس على فطرتهم السليمة ، وعقولهم المستقيمة ، لم يكن بينهم نزاع ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطـــة من أغاليطه فرق بها بينهم وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

والذى يدل عليه كلام الطحاوى رحمه الله أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء كيف شاء وإن نوع كلامه قديم ، وكذلك ظاهر كلام الإمام أبى حنيفة رحمه الله فى الفقه الأكبر فانه قال : والقرآن فى المصاحف مكتوب فى القلوب محفوظ ، وعلى الألسن مقروء ، وعلى النبى «ص» منزل ، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق . وما ذكر الله فى القرآن عن موسى عليه السلام وغيره ، وعن المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، فلمـــا كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته لم يزل وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا قدرتنا ويرى لا كرؤيتنا ، ويتكلم لا كـكلامنا انتهى .

فقوله ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته ، يعلم منه أنه حين جاء كلمه لا أنه لم يزل ولا يزال أزلا وأبداً يقول « يا موسى » كما يفهم ذلك من قوله تعالى ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه فنفهم منه الرد على من يقول من أصحابه أن معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع ، وإنما يخلق الله الصوت فى الهواء . كما قاله أبو منصور الماتريدى وغيره .

وقوله : الذى هو من صفاته لم يزل ، رد على من يقول أنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً .

وبالجملة فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء وإنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فهو حق يجب قبوله ، وما يقوله من يقول أن كلام الله قائم بذاته وإنه صفة له والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به ، فيجب الأخذ بما فى قـــول كل من الطائفتين من الصواب ، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما .

فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا هذا القول مجمل ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة ، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك ونصوص الأئمة أيضاً مع صريح العقل .

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول ، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذى أفهموهم إياه أن الله نفسه هو الذى تكلم والكلام قائم به لا بغيره ، وإنه هو الذى تكلم به وقاله كما قالت عائشة رضى الله عنها فى حديث الإفك : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله بوحى يتلى ، ولو كان المراد من ذاك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز . ولا يعرف فى لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام ، وإنما قام الكلام بغيره ، فانهم إذا قالوا يعلم لا كعلمنا قلنا ويتكلم لا كتكلمنا ، وكذلك سائر الصفات .

وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة أو حى لا تقوم به الحياة ، وقد قال «ص» أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، فهل يقول عاقل أنه «ص» عاذ بمخلوق ، بل هذا كقوله « أعوذ برضاك من سخطك وأعـــوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وكقوله « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » وكقوله « وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا » كل هذه من صفات الله تعالى .

وهذه المعانى مبسوطة فى مواضعها . وإنما أشير اليها هنا إشارة .

وكثير من متأخرى الحنفية على أنه معنى واحد ، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل فى الدلالات لا فى المدلول ، وهذه العبارات مخلوقة وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها ، فان عبر بالعربية فهو قرآن ، وان عبر بالعبرانية فهو توراة فاختلفت العبارات لا الكلام قالوا ، وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً .

وهذا الكلام فاسد فان لازمه أن معنى قوله (ولا تقربوا الزنا) هو معنى قوله (وأقيموا الصلاة) ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدين ومعنى سورة الاخلاص وهو معنى تبت يدا أبى لهب وتب ، وكلما تأمل الانسان هذا القول تبين له فساده ، وعلم أنه مخالف لكلام السلف .

والحق أن التوراة والانجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة وكلام الله تعالى لا يتناهى ، فانه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء ولا يزال كذلك قال تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) وقال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) ولو كان ما فى المصحف عبارة عن كلام الله ، وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه ولو كان ما يقرأ القارىء ليس كلام الله ما حرم على الجنب المحدث قراءته ، بل كلام الله محفوظ فى الصدور ، مقروء بالألسن ، مكتوب فى المصاحف كما قاله أبو حنيفة فى الفقه الأكبر وهو فى هذه المواضع كلها حقيقة .

وإذا قيل المكتوب فى المصحف كلام الله ، فهم منه معنى صحيح حقيقى ، وإذا قيل خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقى ، وإذا قيل فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقى ، وإذا قيل المداد فى المصحف ، كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل فيه السموات والأرض ، وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك ، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل فيه خط فلان الكاتب ، وهذه المعانى الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل فيه كلام الله ،

ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعانى ضل ولم يهتد للصواب .

وكذلك الفرق بين القراءة التى هى فعل القارىء ، والمقروء الذى هو قـــول البارى ، من لم يهتد له فهو ضال أيضاً .

ولو أن إنسان وجد فى ورقة مكتوبا ، ألا كل شيء ما خـلا الله باطل ، من خط كان معروفاً لقال : هذا من كلام لبيد حقيقة ، وهذا خط فلان حقيقة ، وهذا كل شىء حقيقة وهذا خبر حقيقة ، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى .

والقرآن فى الأصل مصدر فتارة يذكر ويراد به القراءة قال تعالى (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) وقال (ص) زينوا القرآن بأصواتكم ، وتارة يذكرون ويراد به المقروء قال تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (وقال تعالى (وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال «ص» « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على ذكر المعنين المذكورين .

فالحقائق لها وجود عينى وذهنى ولفظى ورسمى ، ولكن الأعيـــان تعلم ثم تذكر ثم تكتب ، فكتابتها فى المصحف هى المرتبة الرابعة وأما الكلام فانه ليس بينه وبين المصحف واسطة بل هو الذى يكتب بلا واسطة وذهن ولا لسان .

والفـــرق بين كونه فى زبر الأولين ، و بين كونه فى رق منشور أو لوح محفوظ أو فى كتاب مكنون واضح ، فقوله عن القرآن (وإنه لفى زبر الأولين) أى ذكره ووصفه والاخبار عنه كما أن محمدا مكتوب عندهم إذ القرآن أنزله الله على محمد لم ينزله على غيره أصلا ، ولهذا قال الزبر ، ولم يقل فى المصحف ولا فى الرق لأن الزبر جمع زبور ، والزبر هى الكتابة والجمع ، فقوله (وإنه لفى زبر الأولين) أى مزبور الأولين ، ففى نفس اللفظ واشتقاقه ما بين المعنى المراد ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس .

وهذا مثل قوله (الذى يجدونه مكتوبا عندهم) أى ذكره بخلاف قوله (فى رق منشور) ولوح محفوظ وكتاب مكنون ، لأن العامل فى الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك أو بقـــدر

مكتوب فى كتاب أو فى رق ، والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة ، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب ، ويجب التفريق بين كتابة الكلام فى الكتاب ، وكتابة الأعيان الموجودة فى الخارج فيه ، فان تلك إنما تكتب ذكرها ، وكلما تدبر الانسان هذا المعنى وضح له الفرق .

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هى ما يسمع منه أو من المبلغ عنه ، فاذا سمعه السامع علمه وحفظه فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ ، فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ، فان كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة فى هذه الوجوه لا يصح نفيه ، والمجاز يصح نفيه ، فلا يجوز أن يقال ليس فى المصحف كلام الله ، ولا ما قرأ القارىء كلام الله ، وقد قال تعالى (وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وهو لا يسمع كلام الله من الله وإنما يسمعه من مبلغه عن الله ، والآية تدل على فساد قول من قال : إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فانه تعالى قال (حتى يسمع كلام الله) ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله ، والأصل الحقيقة ، ومن قال أن المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمه ، وكفى بذلك ضلالا .

وكلام الطحاوى يرد قول من قال إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه ، وأن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله وإنما هو عبارة عنه فان الطحاوى رحمه الله يقول كلام الله منه بدا ، وكذلك قال غيره من السلف ويقولون: منه بدا وإليه يعود ، وإنما قالوا منه بدا لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون أنه خلق الكلام فى محل ، فبدا الكلام من ذلك المحل. فقال السلف منه بدا أى هو المتكلم به فمنه بدا لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ــ ولكن حق القول منى ــ قل نزله روح القدس من ربك بالحق) ومعنى قولهم : وإليه يعود ، يرفع من الصدور والمصاحف . فلا يبقى فى الصدور منه آية ، ولا فى المصاحف كما جاء ذلك فى عدة آثار .

وقوله « بلا كيفية » أى لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز ، وأنزله على رسوله وحيا أى أنزله إليه على لسان الملك فسمعه الملك جبرائيل من الله وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك وقرأ على الناس ، قال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) وفى ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى .

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر أو إنزال الحديد وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام .

والجواب أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله قال وتعالى . (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وقال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال تعالى (تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال تعالى (تنزيل من حكيم حميد) وقال تعالى (إن أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين) وقال تعالى (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) وقال تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (قل نزل الروح القدس من ربك بالحق) .

وانزال المطر مقيـــد بأنه منزل من السماء قال تعالى (أنزل من السماء ماء) والسماء العلو وقد جاء فى مكان آخر أنه منزل من المزن ، والمزن السحاب . وفى مكان آخر أنه منزل من المعصرات .

وإنزال الحديد والأنعام مطلق فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الانزال فالحديد إنما يكون من المعادن التى فى الجبال وهى عالية على الأرض ، وقد قيل أنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث ، ولهذا يقال أنزل ولم يقل نزال ، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض ، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء وينزل ماء الفحـــل من علو إلى رحم الأنثى وتلقى ولدها عند الولادة من علو إلى أسفل .

وعلى هذا فيحتمل قوله (وأنزل لكم من الأنعام) وجهين (أحدهما) أن يكون (من) لبيان الجنس (الثانى) أن يكون (من) لابتداء الغاية وهذان الوجهان يحتملان فى قوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً) .

وقوله (وصدقه المؤمنون على ذلك حقا) الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله ، أى هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهم السلف الصالح ، وأن هذا حق وصدق .

وقوله (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية) رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر ، وفى قوله بالحقيقة رد على من قال أنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه ، وإنما هو الكلام النفسانى لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسانى ولم يتكلم به أن هذا كلام حقيقة وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلما ولزم أن لا يكون الذى فى المصحف عند الاطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هى كلام الله كما لو أشار أخرس إلى شخص باشارة فهم بها مقصوده فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذى أوحاه إليه ذلك الأخرس ، فالمكتوب هى عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى ، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد أخرس لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائما بنفسه لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنى مجرداً ثم عبر عنه فهو الذى أحدث نظم القرآن وتأليفه العربى ، وإن الله خلق فى بعض الأجسام كالهواء الذى هو دون الملك هذه العبارة .

ويقال لمن قال أنه معنى واحد : هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه ؟ فإن قال سمعه كله فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله ، وفساد هذا ظاهر ، وإن قال بعضه فقد قال يتبعض ، وكذلك كل من كلمه الله أنزل إليه شيئاً من كلامه ، ولما قال تعالى للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ولما قال لهم (اسجدوا لآدم) وأمثال ذلك هل هذا جميع كلامه ، أو بعضه ، فإن قال أنه جميعه ، فهذا مكابرة وإن قال بعضه فقد اعترف بتعدده .

وللناس فى مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال (أحدها) أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ (الإنسان) للروح والبدن معاً وهذا قول السلف (الثانى) اسم اللفظ فقط ، والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم (الثالث) أنه اسم للمعنى فقط وإطلاقه على اللفظ مجاز . لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه (الرابع) أنه مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول خامس يروى عن أبى الحسن أنه مجاز فى كلام الله حقيقة فى كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف كلام الله فانه لا يقوم عنده بالله ، فيمتنع أن يكون كلامه وهذا مبسوط فى موضعه .

وأما من قال أنه معنى واحد ، واستدل عليه بقول الأخطل[1] .

ان الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فاستدلال فاسد ولو استدل مستدل بحديث فى الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به ، فكيف وهذا البيت قد قيل أنه موضوع منسوب إلى الأخطل ، وليس هو فى ديوانه وقيل إنما قال « إن البيان لفى الفؤاد » وهذا أقرب إلى الصحة ، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به ، فان النصارى قد ضلوا فى معنى الكلام ، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله ، واتحد اللاهوت بالناسوت أى شىء من الإله بشىء من الناس .

أفيستدل بقول نصرانى قد ضل فى معنى الكلام ، على معنى الكلام ، ويترك ما يعلم من معنى الكلام فى لغة العرب .

وأيضاً فمعناه غير صحيح إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه ، والكلام على ذلك مبسوط فى موضعه وإنما أشير إليه إشارة .

---

(١) هو شاعر نصرانى .

وهذا معنى عجيب وهو أن هذا القول له شبه قوى بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت ، فإنهم يقولون كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذى لا يمكن سماعه ، وأما النظم المسموع فمخلوق ، فان المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذى قالته النصارى فى عيسى عليه السلام فأنظر إلى هذا الشبه ما أعجبه .

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله (ص) « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » وقال « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإنما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمون على هذا ليس بكلام .

وأيضاً فى الصحيحين عن النبي (ص) أنه قال « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » فقد أخبر أن الله عفى عن حديث النفس إلا أن تتكلم ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء ، فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب .

وأيضاً ففى السنن أن معاذاً رضى الله عنه قال يا رسول الله إنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال « وهل يكتب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » فبين أن الكلام إنما هو باللسان ، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر ، واسم فاعل ، إنما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظا ومعنى ، ولم يكن فى مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع ثم انتشر .

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى

قول شاعر ، فان هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك .

ولا شك أن من قال إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى ، وإن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء كلام الله وهو مخلوق فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فان الله يقول (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) افتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما فى نفسه أو إلى المتلو المسموع ، ولا شك أن الإشارة إنما هى إلى هذا المتلو المسموع ، إذ ما فى ذات الله غير مشار إليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع .

وقوله « لا يأتون بمثله » أفتراه سبحانه يقول لا يأتون بمثل ما فى نفسى مما لم يسمعوه ولم يعرفوه ، وما فى نفس الله عزوجل لاحيلة إلى الوصول إليه ، ولا الى الوقوف عليه ،

فان قالوا إنما أشار إلى حكاية ما فى نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع ، فأما أن يشير إلى ذاته فلا ، فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق ، بل هم فى ذلك أكفر من المعتزلة ، فان حكاية الشىء بمثله وشبهه . وهذا تصريح بأن صفات الله محكية ، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله ، فأين عجزهم ويكون التالى فى زعمهم قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف ، وليس القرآن الا سوراً مسورة وآيات مسطرة فى صحف مطهرة قال تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات — بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحـد بآياتنا الا الظالمون — صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) ويكتب لمن قرأ بكل حرف منه عشرة حسنات ، قال صلى الله عليه وسلم « أما انى لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وهو المحفوظ فى صدور الحافظين ، والمسموع من ألسن التالين .

قال الشيخ حافظ الدين النسفى رحمه الله فى المنار : القرآن اسم للنظم والمعنى ، وكذلك قال غيره من أهل الأصول ، وما ينسب إلى أبى حنيفة رحمه

الله أن من قرأ فى الصلاة بالفارسية أجزأه فقد رجع عنه وقال لا يجوز فى القراءة مع القدرة بغير العربية ، وقالوا لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنوناً فيداوى أو زنديقاً فيقتل ، لأن الله تكلم به بهذه اللغة والاعجاز حصل بنظمه ومعناه .

وقوله « ومن سمعه وقال أنه كلام البشر فقد كفر » لا شك فى تكفير من من أنكر أن القرآن كلام الله ، بل قال أنه كلام محمد أو غير من الخلق ملكا كان أو بشراً ، وأما إذا قرأ أنه كلام الله ثم أول وحرف فقد وافق قول من قال إن هذا إلا قول البشر ، فى بعض ما به كفر ، أولئك الذين استزلهم الشيطان . وسيأتى الكلام عليه عند قول الشيخ ؟ ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ولا يشبه قول البشر يعنى أنه أشرف وأفصح وأصدق قال تعالى (ومن أصدق من الله حديثاً) وقال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية وقال تعالى (قل فأتوا بعشر سور مثله) وقال تعالى (قل فأتوا بسورة مثله) فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة المداوة عن الاتيان بسورة مثله . تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله ، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط ، هذا مـــع أنه قرآن عربى غير ذى عوج بلسان عربى مبين أى بلغة عربية . فنفى المشابهة من حيث التكلم ، ومن حيث التكلم به . ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف .

وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة فى أوائل السور ، أى أنه فى أسلوب كلامهم وبلغتهم التى يخاطبون بها ، ألا ترى أنه يأتى بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن كما فى قوله تعالى (ألم ، ذلك الكتـــاب لا ريب فيه ـــ ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) الآية (المص ، كتاب أنزل إليك) الآية (الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم) وكذلك الباقى ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه بل خاطبكم بلسانكم

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به وسماع جبرائيل منه كما يتذرعون بقوله تعالى (ليس كمثله شيء) إلى نفي الصفات وفي الآيه ما يرد عليهم قولهم ، وهو قوله تعالى (وهو السميع البصير) كما في قوله تعالى (فأتو بسورة مثله) ما يرد على من ينفي الحرف . فانه قال فأتوا بسورة ولم يقل فأتوا بحرف الا بكلمة . واقصر سورة في القرآن ثلاث آيات ولهذا قال أبو يوسف ومحمد : إن أدنى ما يجزيء في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك والله أعلم .

قوله (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر ، من أبصر هذا اعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر . علم أنه ليس بصفاته كالبشر) .

ش : لماذا ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة منه بدا ، نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر نفيا للتشبيه عقيب الاثبات ، يعني أن الله تعالى وإن وصف بأن متكلم لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلما ، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه ، والمعطل يعبد صنما ، وسيأتي في كلام الشيخ « ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه ، وكذا قوله « وهو بين التشبيه والتعطيل » أي دين الاسلام ، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه بما سأذكره إن شاء الله تعالى ، وليس ما وصف الله به ولا ما وصفه به رسوله تشبيها ، بل صفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به .

وقوله « فمن أبصر هذا اعتبر » أي ما نظر بين بصيرته فيما قاله من اثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه ، اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار .

قوله (والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وتفسير على ما أراد الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله (ص)

فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل فى ذلك متأولين بأرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه) .

ش : المخالف فى الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة ، وقدقال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الاسلام المعروفون بالامامة فى الدين وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة .

وهذه المسئله من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهى الغاية التى شمر إليها المشتمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، وحرمها الذين عن ربهم محجوبون وعن بابه مردودون .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وهى من أظهر الأدلة ، وما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلا ، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وهذا الذى أفسد الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهود والنصارى فى نصوص التوراة والانجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مالهم ، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية ، فهل قتل عثمان رضى الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ،

وكذا ما جرى فى يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة . وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد .

وإضافة النظر إلى الوجه الذى هو محله فى هـــذه الآية وتعديته بأداة (إلى) الصريحة فى نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه

حقيقة موضوعة فى أن الله أراد بذلك نظر العين التى فى الوجه إلى الرب جل جلاله .

فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه ، فان عدى بنفسه معناه التوقف والانتظار كقوله : (أنظرونا نقتبس من نوركم) وإن عدى بـ (فى) فمعناه التفكر والاعتبار كقوله (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) وإن عدى بـ(إلى) فمعناه المعاينة بالابصار كقوله تعالى (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذى هو محل البصر .

وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة) قال من البهاء والحسن (إلى ربها ناظرة) قال فى وجه الله عز وجل وعن الحسن قال نظرت إلى ربها فنضرت بنوره ، وقال أبو صالح عن ابن عباس (إلى ربها ناظرة) قال تنظر إلى وجه ربها عز وجل ، وقال عكرمة (وجوه يومئذ ناضرة) قال من النعيم (إلى ربها ناظرة قال تنظر إلى ربها نظراً . ثم حكى عن ابن عباس مثله ، وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث .

وقال لهم (لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد) قال الطبرى . قال على بن أبى طالب وأنس بن مالك والنظر إلى وجه الله عز وجل ، وقال تعالى (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنة الجنة ، والزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم فسرها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعــــده كما روى مسلم فى صحيحه عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه » فيقولون : ماهو ، ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ، فيكشف الحجاب فينظرون اليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهى الزيادة ، رواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل .

وكذلك فسرها الصحابة رضى الله عنهم . روى ذلك عن ابن جرير عن جماعة

منهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وحذيفة وأبو موسى الأشعرى وابن عباس رضى الله عنهم .

وقال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) احتج الشافعى رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبرى وغيره عن المزنى عن الشافعى .

وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد ابن إدريس الشافعى وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول فى قول الله عز وجل (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فقال الشافعى : لما أن حجب هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضاء .

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى (لن ترانى) وبقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فالآيتان دليل عليهم .

أما الآية الأولى فالاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه : (أحدها) أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه فى وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال ، (الثانى) أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين (الثالث) أنه تعالى قال : لن ترانى ، ولم يقل : إنى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، ألا ترى أن من كان فى كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال أطعمنيه . فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل ، أما إذا كان طعاما صح أن يقال أنك لن تأكله ، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئى ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته فى هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى .

يوضحه : (الوجه الرابع) وهو قوله (ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلى فى هذه الدار فكيف بالبشر الذى خلق من ضعف .

(الخامس) أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً وذلك ممكن

وقد علق به الرؤية ولو كانت محالا لكانت نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام ، والكل عندهم سواء (السادس) قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) فاذا جاز أن يتجلى للجبل الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته ، ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار فالبشر أضعف (السابع) أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار رؤيتـــه إلا بانكار كلامه وإن جمعوا بينهما .

وأما دعواهم تأبيد النفى بـ (لن) وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخره ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الاخـــرة فكيف إذا أطلقت قال تعالى (ولن يتمنوه أبداً) مع قوله (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك قال تعالى (فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى) فثبت أن (لن) لا تقتضى النفى المؤبد . قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله ،

ومن رأى النفى بلن مؤبداً قوله أردد وسواه فاعضدا

وأما الاية الثانية فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف وهو أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح . ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمراً وجوديا كمدحه بنفى السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفى الموت المتضمن كمال الحياه ، ونفى اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفى الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره ونفى الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفى النسيان وعزوب شىء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفى المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمرا ثبوتياً ، فان المعدوم يشارك الموصوف فى ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فان المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به ، فقوله (لا تدركه

الأبصار) يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لايدرك بحيث لايحاط به ، فان الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى . (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا) ، فلم ينف موسى الرؤيا وإنما نفى الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولايحاط به علماً وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية كما ذكرت أقوالهم فى تفسير الآية بل هذه الآية المخلوقة لايتمكن رائيها من إدراكها على ماهى عليه .

وأما الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة : رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها حديث أبى هريرة أن ناساً قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا . لا يارسول الله قال : هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا ، قال فانكم ترونه كذلك » الحديث أخرجاه فى الصحيحين بطوله ، وحديث أبى سعيد الخدرى أيضاً فى الصحيحين نظيره .

وحديث جرير بن عبدالله البجلى قال كنا جلوساً مع النبى صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليله أربع عشرة فقال « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لاتضامون فى رؤيته » الحديث أخرجاه فى الصحيحين ، وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره .

وحديث أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » أخرجاه فى الصحيحين .

ومن حديث عدى بن حاتم « وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه

حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يا رب ، فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى يا رب ، أخرجه البخارى فى صحيحه .

وقد روى أحاديث الرؤيا نحو ثلاثين صحابياً . ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها . ولولا أنى التزمت الاختصار لسقت ما فى الباب من الأحاديث

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية فان فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء ، وأنه يأتى لفصل القضاء يوم القيامة وأنه فوق العالم ، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ؛ وأنه يتجلى لعباده ، وأنه يضحك إلى غير ذلك من الصفات التى سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله ، كيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم الذين نزل القرآن بلغتهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

وسئل أبو بكر رضى الله عنه عن قوله تعالى (وفاكهة وأبا) : ما الأب ؟ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرضى تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم ؟

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ، ولكن فيه دليل على علو الله فى خلقه . وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : يرى لا فى جهة - فليراجع عقله ؟ فاما أن يكون مكابراً لعقله وفى عقله شىء ، وإلا فاذا قال يرى لا أمام الرائى ولا خلفه ولا عن يمينه ولا يساره ، ولا فوقه ولا تحته - : رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة .

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية ، وقالوا كيف تعقل رؤية بغير جهة ؟ وإنما لم نره فى الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ،

فهذه الشمس إذا حدق الرائى للبصر فى شعاعها ضعف عن رؤيتها ، لا لامتناع فى ذات المرئى ، بل لعجز الرائى ، فان كان فى الدار الآخــــرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤية :

ولهذا لما تجلى الله للجبل خــــر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . بأنه لا يراك حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤيه الملك فى صورته إلا من أيده الله كما أيد نبينا.

وقال تعالى : (وقالوا لو أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر) قال غير واحد من السلف : لا يطيقون أن يروا الملك فى صورته ، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه فى صورة بشر ، وحينئذ يشتبه عليهم . هل هو بشر أو ملك ؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولا منا .

وما ألزمهم المعتزلة هذا الالزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه لكن قول من أثبت موجوداً يرى لا فى جهة ـ أقرب من العقل من قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يرى ولا فى جهة .

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة ـ : أتريد بالجهة أمراً وجودياً ؟ أو أمــــراً عدمياً ؟ فان أراد بها أمراً وجودياً كان التقرير : كل ما ليس فى شىء موجود لا يرى ، وهذه المقدمة ممنوعة ، ولا دليل على إثباتها بل هى باطلة ، فان سطح العالم يمكن أن يرى ، وليس العالم فى عالم آخر . وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً فالمقدمة الثانية ممنوعة فلا نســـلم أنه فى جهة بهذا الاعتبار .

وكيف يتكلم فى أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة ، وإنما يتلقاه من قول فلان ؟ وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ، ولا ينظر فيها . ولا فى ما قاله الصحابة والتابعون لهم باحسان ، والمنقول إلينا عن الثقات النقلة ، الذين تخيرهم النقاد ، فانهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده ، بل نقلوا نظمه ومعناه ، ولا كانوا يتعلمون القرآن

كما يتعلم الصبيان ، بل يتعلمونه بمعانيه ، ومن لا يسلك سبيلهم فانما يتكلم برأيه ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب ـ فهو مأثوم وإن أصاب ـ وما أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور ، وإن أخطأ ، لكن إن أصاب يضاعف أجره .

وقوله « الرؤية » حق لأهل الجنة تخصيص أهل الجنة بالذكر ، يفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم ولاشك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة ، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويدل عليه قوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام).

واختلف في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه لا يراه إلا المؤمنون الثاني : يراه أهل الموقف : مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك . الثالث: يراه المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار . وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

واتفقت الأمة على أنه لايراه أحد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين ، ومنهم من أثبته له صلى الله عليه وسلم .

وحكى القاضي عياض في كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، وأنها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، ثم قالت : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب .

ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهور على بن مسعود وأبي هريرة واختلف عنه . وقال بانكار هذه وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم رآه بعينه . وروى عطاء عنه . إنه رآه بقلبه ، ثم ذكر أقوالا وفوائد . ثم قال . وأما وجوبه

لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه . فليس فيه قاطع ولا نص ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن .

وهذا القول الذى قاله القاضى عياض رحمه الله هو الحق . فان الرؤية فى الدنيا ممكنة ، إذ لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام ، لكن لم يرد نص بأنه (ص) رأى ربه بعين رأسه ، بل ورد ما يدل على نفى الرؤية ، وهو ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله (ص) هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى أراه ، وفى رواية : « رأيت نوراً » .

وقد روى مسلم أيضاً عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار . وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، وفى رواية : « النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، فيكون ـ والله أعلم ـ معنى قوله : لأبى ذر « رأيت نوراً » : إنه رأى الحجاب ، ومعنى قوله « نور أنى أراه » : النور الذى هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى أراه ؟ أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته فهذا صريح فى نفى الروية . والله أعلم . وحكى عثمان ابن سعد الدارمى اتفاق الصحابة على ذلك ، ونحن إلى تقرير رؤيته لربه تعالى ، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى ، فان النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة .

وقوله (بغير إحاطة ولا كيفية) هذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به كما يعلم ولا يحاط به علماً . قال تعالى (لا تدركه الأبصار) وقال تعالى (ولا يحيطون به علماً) .

وقوله (وتفسير على ما أراد الله وعلمه) إلى أن قال (لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا) أى كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة فى الرؤية وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه .

فالتأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة. والفاسد المخالف له فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فان هذا لا يقصده المبين الهادى بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع فى اللبس والخطأ. فان الله أنزل كلامه بياناً وهدى، فاذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذى يتبادر غيره إلى فهم كل أحد — لم يكن بياناً ولا هدى. فالتأويل إخبار بمراد المتكلم، لا إنشاء.

وفى هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فان المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فاذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذى عنى المتكلم فان لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم. ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة، منها: أن يصرح بارادة ذلك المعنى. ومنها: أن يستعمل اللفظ الذى له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينه تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه انما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله (وكلم الله موسى تكليما)، و «انكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب».

فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم، فاذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذى وضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقا فى اخباره.

وأما اذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقتران به ما يدل عليه، فاخباره بأن هذا مراد كذب عليه، وهو تأويل بالرأى، وتوهم بالهوى.

وحقيقة الأمر: أن قول القائل. نحمله على كذا، أو: تأوله بكذا، انما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فان منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده — دفع معناه، وقال أحمله على خلاف ظاهره.

فان قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكروه، وهو اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله — استدللنا بوروده وعدم ارادة ظاهره على أن مجازه هو المراد، فحملنا عليه دلالة لا ابتداء:

قيل : فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده ، وهو ما صدق وإما كذب كما تقدم ، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذى أراده ، بل يعرف بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة . ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره ، إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك ، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والايضاح وإفهام مراده : كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز ، ويكرره غير مرة ، ويضرب له الأمثال .

وقوله : « فانه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه إلا عالمه » ، أى سلم النصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة : أو بقوله : العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل والعقل أصل النقل فاذا عارضه قدمنا العقل ! ! وهذا لا يكون قط لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك : فاذا كان النقل صحيحاً فذلك الذى يدعى أنه معقول انما هو مجهول ، ولو حقق النظر لظهر ذلك . وان كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة ، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً . ويعارض كلام من يقول ذلك بنظيره ، فيقول : اذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ورفعهما رفع النقيضين ، وتقديم العقل ممتنع ، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل ، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل ، ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء ، فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمه . وهذا بين واضح . فان العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته ، وان خبره مطابق لمخبره ؛ فان جاز أن تكون الدالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون النقل دليلا صحيحا ، وإذ لم يكن دليلا صحيحا لم يجز أن يتبع بحال . فضلا عن أن يقدم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحا فى العقل .

فالواجب كمال التسليم للرسول «ص» ، والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا ، أو نحمله شبهة أو شكا ، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والإنقياد والاذعان ، كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والانابة والتوكل فهما توحيدان ، لانجاه للعبد من عذاب الله إلا بهما ، توحيد المرسل ، وتوحيد متابعة الرسول ، فلا نحاكم إلى غيره ، ولا نرضى بحكم غيره ، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه . فان أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فان طلب السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره ، وإلا حرفه عن مواضعه ، وسمى تحريفه تأويلا وحملا فقال نؤوله ونحمله . فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب - ماخلا الاشراك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال . بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله «ص» ، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه ؟ بل كان الفرض المبادرة إلى إمتثاله ، من غير التفات إلى سواه ، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان ، بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياس ، بل نهدر الأقيسة ، ونتلقى نصوصه ولا نحرف كلامه عن حقيقته . لخيال يسميه أصحابه معقولا ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول ولا يوقف قبوله على موافقة فلان دون فلان كائنا من كان .

قال الامام أحمد : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنا أبو حازم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده . قال : لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي ، وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً ، قد أحمـــر وجهه . يرميهم بالتراب ، ويقول : مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضهم ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً ، بل

يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه .

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم ، قال تعالى : قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه هو والحق الذي يجب اتباعه ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فان وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم . هل خالفه أو وافقه ـ يكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، وقد عرف مراده ، لكن لم يعرف هل جاء الرسـول بتصديقه أو بتكذيبه : فانه يمسك عنه . ولا يتكلم الا بعلم ، والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة ، وأما الأمور الإلهية ، والمعارف الدينية ، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غير .

قوله : (ولا تثبت قدم الإسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام) .

ش : هذا من باب الاستعارة ، اذ القدم الحسي لا تثبت الا على ظهر شيء أي لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد اليها ، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم . وهذا كلام جامع نافع .

وأما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل ، وهو : أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد بل هو دون ذلك بكثير ، فان العامي يمكنه أن يصير عالما ، ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولا ، فاذا عرف العامي المقلد عالماً ، فدل عليه عامياً آخر . ثم اختلف المفتي الدال ، فان المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدال ، فلو قال الدال : الصواب معي دون المفتي ، لأني أنا الأصل في علمك فأنه مفت ، فاذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت

أنه مفت ، فلزم القدح فى فرعه . فيقول له المستفتى : أنت شهدت له بأنه مفت ، ودللت عليه ، شهدت له بوجوب تقليده دونك ، فموافقتى لك فى هـذا العلم المعين ، لا تستلزم موافقتك فى كل مسألة ، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتى الذى هو أعلم منك ، لا يستلزم خطاك فى علمك بأنه مفت ، هذا مع علمه أن ذلك المفتى قد يخطىء .

والعقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره على الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ . فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره . وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذى تلقيه علينا ، والحكمة التى جئتنا بها ، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميـــع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحاً فى ما علمنا به صدقك ، فنحن نعتقد موجب الأقوال الناقصة لما ظهر من كلامك ، وكلامك نعرض عنه ، لا نتلقى منه هدياً ولا علماً — : لم يكن مثل هـذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا ، بل يعلم أن هـذا لو ساغ لأمكن كل أحـد أن يؤمن بشىء مما جاء به الرسول ، إذ العقـول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ، والشياطين لا تزال تلقى الوسواس فى النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمره به ! وقد قال تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ) وقال (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (وما أرسلنا من رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، (وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (حم والكتاب المبين) (تلك آيات الكتاب المبين) . (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن .

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر . إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا ؟ الثانى باطل ، وإن كان قد تكلم — بما يدل — على الحق بألفاظه

مجملة محتملة ، فما بلغ البلاغ المبين ، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ . وأشهد الله عليهم فى الموقف الأعظم ، فمن يدعى أنه فى أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين — فقد افترى عليه (ص) .

قوله : (فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافى المعرفة وصحيح الإيمان) .

ش : هذا تقرير الكلام الأول . وزيادة تحذير أن يتكلم فى أصول الدين — بل وفى غيرها — بغير علم . وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) وقال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) وقال تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين) وقال تعالى (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهـــدى) إلى غير ذلك من الايات الدالة على هذا المعنى .

وعن أبى أمامه الباهلى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله (ص) : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . ثم تلا : (ما ضربوه لك إلا جدلا) » رواه الترمذى ، وقال حديث حسن . وعن عائشة رضى الله عنها . قالت : قال رسول الله (ص) . إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ، خرجاه فى الصحيحين .

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده ، فإنه يقول برأيه وهواه ، ويقلد ذا رأى وهوى بغير هدى من الله ، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول ، فإنه قد اتخذه فى ذلك إلهاً غير الله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . أى . عبد ما تهواه نفسه . وإنما دخل الفساد فى العالم من ثلاث فرق ، كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه .

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخـــير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار ســـوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ، ويعارضونها بها ، ويقدمونها على حكم الله ورسوله وأحبار السوء ، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة ، المتضمنة تحليل ماحرم الله ورسوله ، وتحريم ما أباحه واعتبارُ ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وإطلاق ماقيده ، وتقييد ماأطلقه ، ونحو ذلك والرهبان وهم جهال المتصوفة ، المعترضون على حقائق الايمان والشرع ، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذى شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم والتعوض عن حقائق الايمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس . فقال الأولون إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة ! وقال الآخرون . إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ! وقال أصحاب الذوق إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف !

ومن كلام أبى حامد الغزالى رحمة الله فى كتابه الذى سماه « إحياء علوم الدين » وهو من أجل كتبه ، أو أجلها :« فان قلت : فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه — : فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافاً فى أطراف : فمن قائل : إنه بدعة وحرام ، وأن العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل : إنه فرض ، إما على الكفاية ، واما على الأعيان ، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فانه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله قال : وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد ابن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف » .

وساق الألفاظ عن هؤلاء . قال :« وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، لاينحصر مانقل عنهم من التشديدات فيه . قالوا : ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم — الا لما يتولد

منه من الشر . وكذلك قال «ص» : « هلك المتنطعون » أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى على أربابه . ثم ذكر بقية استدلالهم ، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر . إلى أن قال : فان قلت : فما المختار عندك ؟ فأجاب بالتفصيل ، فقال ، « فيه منفعة ، وفيه مضرة : فهو فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام .

قال : فأما مضرته ، فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل بالابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرورة فى اعتقاد الحق ، وله ضرر فى تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها فى صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل .

قال : وأما منفعته . فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيئتها ، فليس فى الكلام وفاء بهـذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف .

قال : وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا من خبر الكلام ، ثم قالة بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم آخر سوى نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور . ولكن على الندور » . انتهى ما نقلته عن الغزالى رحمه الله .

وكلام مثله فى ذلك حجة بالغة ، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحا جديداً على معان صحيحة ، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة ، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق . ومن

ذلك . مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة ، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام فى إثباتها مع قلة نفعها ، فهى لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى ، وأحسن ما عندهم فهو القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد كما قيل .

لو لا التنافس فى الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقداً وبالذى وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك .

ومن المحال أن يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هى الأصل ، ويتدبر معناه ويعقله ، ويعرف برهانه ودليله العقلى والخبرى السمعى ويعرف دلالته على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التى توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحابها . هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول ، قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد . وهذا مثل لفظ « المركب » و « الجسم » و « التحيز » و « الجوهر » و « الجهة » و « الحيز » و « العرض » : ونحو ذلك . فان هذه الألفاظ لم تأت فى الكتاب والسنة بالمعنى الذى يريده أهل الاصطلاح بل ولا فى اللغة ، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها . بها ، فتفسر تلك المعانى بعبارات أخر ، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل مثال ذلك ، فى « التركيب » . فقد صار له معانى .

أحدها . التركيب من متباينين فأكثر . ويسمى . تركيب مزج ، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك . وهذا المعنى منفى عن الله سبحانه وتعالى ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال أن يكون مركبا بهذا المعنى المذكور .

والثانى ، تركيب الجوار ، كمصراعى الباب ونحو ذلك ، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب .

الثالث : التركيب من الأجزاء المتماثلة ، وتسمى الجواهر المفردة .

الرابع : التركيب من الهيولى والصورة ، كالخاتم مثلا ، هيولاه : الفضة ، وصورته معروفة .

وأهل الكلام قالوا : إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة ؛ ولهم كلام فى ذلك يطول ، ولا فائدة فيه ، وهو أنه : هل يمكن التركيب من جزءين ، أو أربعة ، أو ستة أو ثمانية ، أو ستة عشر ؟ وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه . والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء ، وإنما قولهم مجرد دعوى . وهذا مبسوط فى موضعه .

الخامس : التركيب من الذات والصفات ؛ هم سموه « تركيباً » لينفوا به صفات الرب تعالى ، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف فى اللغة ولا فى استعمال الشارع ، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة . ولان سموا اثبات الصفات تركيباً — : فنقول لهم : العبرة للمعانى لا للالفاظ ، سموه ما شئتم . ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم ! فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً لم يحرم بهذه التسمية .

السادس . التركيب من الماهية ووجودها ، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران ، وأما فى الخارج : هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها مجرد عنها ؟ هذا محال . فترى أهل الكلام يقولون هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده ؟ ولهم فى ذلك خبط كثير . وأمثلهم طريقة رأى الوقف والشك فى ذلك . وكم يزول بالاستفسار . والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل .

وسبب الإضلال الاعراض عن تدبر كلام الله ورسوله . والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة . وإنما سمى هؤلاء أهل الكلام . لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً . وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد . وهو مايضربونه من القياس لايضاح ماعلم بالحس . وإن كان هذا القياس وأمثاله

بلتفع به فى موضع آخر ، ومع من ينكر الحسن . وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته ـ مع وجود النص ، أو عارض النص بالمعقول ـ فقد ضاهى ابليس ، حيث لم يسلم لأمر ربه ، بل قال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) . وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما .

قوله : (فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والانكار ، موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ، ولا جاحداً مكذباً) .

ش : يتذبذب يضطرب ويتردد . وهذه الحال التى وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم . أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة . وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأى والآراء المختلفة . فؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك . كما قال ابن رشد الحفيد . وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم . فى كتابه « تهافت التهافت » : « ومن الذى قال فى الالهيات شيئاً يعتد به » وكذلك الآمدى ، أفضل أهل زمانه . واقف فى المسائل الكبار حائر . وكذلك الغزالى رحمه الله . انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة فى المسائل الكلامية . ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . فمات والبخارى على صدره وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى . قال فى كتابه الذى صنفه : (أقسام) اللذات :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه : قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال ، فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . اقرأ فى الإثبات : (الرحمن على العرش استوى) ، (اليه يصعد الكلم الطيب) واقرأ فى النفى : (ليس كمثله شيء) ، (ولا يحيطون به علماً) . ثم قال : « ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » . وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ، حيث قال :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الاسلام وعلومهم ، ودخلت فى الذى نهونى عنه ، والآن فان لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى ، أو قال ، على عقيدة عجائز نيسابور . وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهى وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازى ، لبعض الفضلاء ، وقد دخل عليه يوماً فقال : ما تعتقده ؟ قال : ما يعتقده المسلمون ، فقال وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ، أو كما قال ، فقال : نعم ، فقال : أشكر الله على هذه النعمة ، ولكنى والله ما أدرى ما أعتقد ، والله ما أدرى ما أعتقد ، والله ما أدرى ما أعتقد ، وبكى حتى أخضل لحيته . ولابن أبى الحديد ، الفاضل المشهور بالعراق :

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمرى وانقضى عمرى
سافرت فيك العقول فما ربحت الا أذى السفر
فلحى الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا ، أن الذى ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال الخونجي عند موته ماعرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح ، ثم قال : الافتقار وصف سلبي ، أموت وما عرفت شيئاً . وقال آخر: أضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي منها شيء .

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق ، كما قال أبو يوسف . من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيميا أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب وقال الشافعي رحمه الله . حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال . ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال . هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . وقال . لقد أطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله . ولأن يبتلى العبد بكل مانهى الله عنه ـ ما خلا الشرك بالله ـ خير له من أن يبتلى بالكلام . انتهى .

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز ، فيقر بما أقروا به ، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة . التي كان يقطع بها . ثم تبين له فسادها . أو لم تبين له صحتها : فيكونون في نهايتهم ـ إذا سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب .

والدواء النافع لمثل هذا المرض . ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله ـ إذا قام من الليل يفتتح الصلاة . ـ « اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل . فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . أهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » أخرجه مسلم . توجه صلى الله عليه وسلم إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه إذ حياة القلب بالهداية . وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة . فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب . وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان ، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي

هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها ، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم فى حصول المطلوب والله المستعان .

قوله (ولا يصلح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم ، إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الرؤية بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوق النفى والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش . يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم فى نفى الرؤية ، وعلى من يشبه الله بشىء من مخلوقاته فان النبي صلى الله عليه وسلم قال « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » الحديث أدخل كاف التشبيه على (ما) المصدرية أو الموصولة بما ترون » التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذى هو الرؤية ، فيكون التشبيه فى الرؤية لا فى المرئى وهذا بين واضح فى أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها ، وماذا بعد هذا البيان وهذا الايضاح .

فاذا سلط التأويل على مثل هذا النص ، كيف يستدل بنص من النصوص ، وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه أنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر . ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التى من أفعال القلوب .

ولا شك أن « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك ، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أصل معانيه من الباقى ، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعانى لكان مجملا ملغزاً لا مبينا موضحاً ، وأى بيان وقرينة فوق قوله « ترون ربكم كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب » ، فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو برؤية القلب ، وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه .

فان قالوا ألجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور إمكانها .

فالجواب أن هذه دعوى منكم خالفكم فيها أكثر العقلاء . وليس في العقل ما يحيلها بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال .

وقوله « لمن اعتبرها منهم بوهم » أي توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيها . ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه ، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو ماجاء حد معطل . بل والوجب دفع ذلك الوهم وحده ولا يعم بنفيه الحق والباطل فينفيهما رداً على من أثبت الباطل بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق ،

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله « ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه » فان هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي . وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال . فان نفي الرؤية ليس بصفة كمال . إذ المعدوم لا يرى وانما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة كما في العلم . فان نفي العلم به ليس بكمال وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الاحاطة به علما ، فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علما .

وقوله « أو تأولها بفهم » أي ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها . فانه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل أنه صرف اللفظ عن ظاهره . وبهذا تسلط المحرفون على النصوص وقالوا نحن نتأول ما يخالف قولنا . فسموا التحريف تأويلا تزييناً له وزخرفة ليقبل . وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل . قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) والعبرة للمعاني لا للالفاظ ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق .

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم « لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين

بأهوائنا ، ثم أكد هذا المعنى بقوله . إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ومراده ترك التأويل الذى يسمونه تأويلا وهو تحريف ، ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتى هى أحسن كما أمر الله تعالى بقوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة ، وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف التى يدل الكتاب والسنة على فسادها ، وترك القول على الله بلا علم .

فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية ، وأدلة العلو ، وأنه لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ إبراهيم خليلا .

ثم قد صار لفظ التأويل مستعملا فى غير معناه الأصلى ، فالتأويل فى كتاب الله وسنة رسوله هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام فتأويل الخبر هو عين المخبر به وتأويل الأمر فى نفس الفعل المأمور به كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن ، وقال تعالى (هل ينظرون إلى تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) ،

ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله (هذا تأويل رؤياى من قبل) وقوله (ويعلمك تأويل الأحاديث) وقوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) وقوله (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) إلى قوله (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً (فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهى منه ، وأما ما كان خبرا كالأخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يعلم تأويله الذى هو حقيقته ، إذ كانت لا تعلم بمجرد الأخبار ، فان المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به أو ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته التى هى تأويله بمجرد الأخبار وهذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، لكن لا يلزم من نفى العلم بالتأويل نفى العلم بالمعنى الذى قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه . فما فى القرآن آية إلا وقد

أمر الله بتدبرها ، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها ، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله .

فهذا معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف . وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر أو مخالفاً له .

والتأويل فى كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالف ، وهذا اصطلاح معروف ، وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه ويرد باطله . وقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم) الآية فيهـــا قراءتان . قراءة من يقف على قوله (إلا الله) وقراءة من لا يقف عندها وكلتا القراءتين حق ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله . ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله . ولا يريد من وقف على قوله (إلا الله) أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى ، فإن لازم هـذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ويكون الراسخون فى العلم لاحظ لهم فى معرفة معناه سوى قوله (آمنا به كل من عند ربنا) وهذا القدر يقوله غير الراسخ فى العلم من المؤمنين ، والراسخون فى العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين فى ذلك .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله ، ولقد صدق رضى الله عنه فان النبى صلى الله عليه وسلم دعا له وقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » رواه البخارى وغيره ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لا يرد . قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم فى جميع معانى القرآن ولم يقل عن آية أنها من المتشابه الذى لا يعلم أحد تأويله إلا الله .

وقول الأصحاب رحمهم الله فى الأصول . المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ويروى هذا عن ابن عباس مع أن هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس ، فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه . وإن لم يكن معروفا وهى المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى ، وهذا المطلوب .

وأيضاً فان الله قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات) وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادين .

والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك ، وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية . فالتأويل الصحيح منه الذى يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة . وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد ، وهو مبسوط فى موضعه وذلك فى التبصرة أن نصير بن يحيى البخلى روى عن عمرو بن إسماعيل بن حماد بن أبى يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله أنه سئل عن الآيات والأخبار التى فيها من صفات الله تعالى ما يؤدى ظاهره إلى التشبيه فقال : نمرها كما جاءت ونؤمن بها ولا نقول كيف وكيف ، ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفرى ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه ، وإن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه وإذا كان قد قيل فى قول بعض الناس :

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وقيل : على نحت القوافى من أماكنها وما على إذا لم تفهم البقر

فكيف يقال فى قول الله الذى أصدق الكلام وأحسن الحديث وهو الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وأن حقيقة قولهم أن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال ، وأنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه ، هذا حقيقة قول المتأولين ، والحق أن ما يدل عليه القرآن فهو حق ، وما كان باطلا لم يدل عليه ، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذى يتعين صرفه .

فيقال لهم : هذا الباب الذى فتحتموه وإن كنتم تزعمون إنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين فى مواضع قليلة خفية ، فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين المبتدعين لا تقدرون على سده . فانكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعى ، فما الضابط فيما يسوغ تأوله

وما لا يسوغ ، فان قلتم ما دل القاطع العقلى على استحالته تأولناه وإلا أقررناه قيل لكم وبأى عقل نزن القاطع العقلى ؟ فان القرمطى الباطنى يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ، ويزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى ، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى .

وباب التأويلات التى يدعى أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر فى هذا المقام ، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان : (أحدهما) أن لا نقر بشيء من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة فى إمكان ذلك العقل ، وكل طائفة من المختلفين فى الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة (الثانى) أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول ، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة ، فيلزم عزل الكتاب والسنة على الدلالة والارشاد إلى ما أنبأ الله به العباد ، وخاصة النبى هى الإنباء ، والقرآن هو النبأ العظيم ، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتقاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه ، وإن خالفته أولوه . وهذا فتح باب الزندقة نسأل الله العافية .

قوله (ومن لم يتوق النفى والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش : النفى والتشبيه مرضان من أمراض القلوب فان أمراض القلوب نوعان مرض شبهة ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور فى القرآن ، قال تعالى (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) فهذا مرض الشهوة وقال تعالى (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم) فهذا مرض الشبهة وهو أردى من مرض الشهوة ، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته .

والشبهة التى فى مسألة الصفات نفيها وتشبيهها ، وشبه النفى أردى من شبه

التشبيه ، فان شبه النفى رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وشبهة التشبيه غلو ومجاوزه للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وتشبيه الله بخلقه كفر ، فان الله تعالى يقول (ليس كمثله شىء) ونفى الصفات كفر فان الله تعالى يقول (وهو السميع البصير) وهذا أصل نوعى التشبيه فان التشبيه نوعان . تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهذا الذى يتعب أهل الكلام فى رده وإبطاله . وأهله فى الناس أقل من النوع الثانى والذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق كعباد المشايخ وعزير والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك ، وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

قوله (فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية . منعوت بنعوت الفردانية ليس فى معناه أحد من البرية) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى تنزيه الرب تعالى بالذى وصفه كما وصف نفسه نفيا وإثباتا ، وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص ، فقوله . موصوف بصفات الوحدانية ، مأخوذ من قوله تعالى (قل هو الله أحد) وقوله منعوت بنعوت الفردانية ، من قوله تعالى (الله الصمد لم يلد ولم يولد) وقوله ليس فى معناه أحد من البرية ، من قوله تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) وهو أيضا مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفى التشبيه . والوصف والنعت مترادفان وقيل متقاربان ، فالوصف للذات ، والنعت للفعل ، وكذلك الوحدانية والفردانية وقيل فى الفرق بينهما أن الوحدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى متوحد فى ذاته ، منفرد بصفاته ، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد ، ولكن فى اللفظ نوع تكرير . وللشيخ نظير هذا التكرير فى مواضع من العقيدة ، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد ، والتسجيع بالخطب أليق ، وليس كمثله شىء أكمل فى التنزيه من قوله . ليس فى معناه أحد من البرية .

قوله (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات . لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .

ش : أذكر بين يدى الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة وهى : إن الناس فى اطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاث أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها . وطائفة تفصل وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفى بها فهو منفى ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ فى اصطلاحهم فيها إجمال وابهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها فى نفس معناها اللغوى ، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلا ، ويذكرون عن مثبتها مالا يقولونه به ، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلا يخالف لقول السلف ، ولما دل عليه الكتاب والميزان ، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً ، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب أن ينظر فى هذا الباب أعنى باب الصفات فما أثبته الله ورسوله أثبتناه وما نفاه الله ورسوله نفيناه ، والألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الإثبات والنفى ، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعانى ، وننفى ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعانى . وأما الألفاظ التى لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر فى مقصود قائلها ، فان كان معنى صحيحاً قبل ، ولكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجوارب وأمثاله القائلين إن الله جسم ، وأنه جثة وأعضاء وغير ذلك . تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً . فالمعنى الذى أراده الشيخ رحمه الله من النفى الذى ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل فى عموم نفيه حقا وباطلا ، فيحتاج إلى بيان ذلك . وهو أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون حداً وإنهم لا يحدون شيئاً من صفاته .

قال أبو داود الطيالسى كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لايحدون ولا يشبهون ولا يمثلون ، يرون الحديث ولا يقولون كيف ، وإذا سئلوا قالوا بالأثر وسيأتى فى كلام الشيخ ، وقد أعجز خلقه عن الاحاطة به ، فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم .

سئل عبد الله بن المبارك بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على العرش بائن من خلقه قيل : بحد ؟ قال بحد انتهى . ومن المعلوم أن الحد يقال على ماينفصل به الشىء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حال فى خلقه ولا قائم بهم بل هو القيوم القائم بنفسه . المقيم لمــــا سواه فالحد بهذا المعنى لايجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلا فانه ليس وراء نفيه إلا نفى وجوب الرب ونفى حقيقته . وأما الحد بمعنى العلم والقول وهو أن يحده العباد فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة .

قال أبو القاسم القشيرى فى رسالته: سمعت الشيخ أبا عبدالرحمن السلمى سمعت أبا منصور بن عبدالله سمعت أبا الحسن العنبرى سمعت سهل بن عبدالله التسترى يقول وقد سئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم . غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الايمان من غير حـــد ولا إحاطة ولا حلول ؛ وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه وقدرته . قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته . ودلهم عليه بآياته . فالقلوب تعرفه . والعيون لاتدركه . ينظر اليه المؤمن بالابصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وأما لفظ الأركان والأعضاء والادوات فيستدل بها النفاة على نفى بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه ، قال أبو حنيفة رضى الله عنه فى الفقه الاكبر : له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى فى القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس . فهو له صفة بلا كيف . ولا يقال أن يده قدرته ونعمته . لان فيه إبطال الصفة انتهى .

وهذا الذى قاله الامام رضى الله عنه ثابت بالأدلة القاطعة، قال تعالى (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ـ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقال تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه ـ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال تعالى: (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) وقال تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال تعالى (واصطنعتك لنفسى) وقال تعالى (ويحذركم الله نفسه).

وقال «ص» فى حديث الشفاعة لما يأتى الناس آدم فيقولون له «خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء» الحديث.

ولا يصح تأويل من قال: أن المراد باليد القدرة فان قوله (لما خلقتُ بِيَدَىَّ) لا يصح أن يكون معناه بقدرتى مع تثنية اليد، ولو صح لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتنى بقدرتك، فلا فضل له على بذلك، فابليس مع كفره كان أعرف بربه من الجهمية، ولا دليل لهم فى قوله تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون) لانه تعالى جمع الأيدى لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة، ولم يقل أيدى مضافا إلى ضمير المفرد، ولا يدينا بتثنية اليد مضافا إلى ضمير الجمع، فلم يكن قوله (مما عملت أيدينا) نظير قوله (لما خلقت بيدى) وقال «ص» عن ربه عز وجل «حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه».

ولكن لا يقال لهذه الصفات أنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزأ سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية (١) تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هى الآلات التى ينتفع بها فى جلب المنفعة ودفع المضرة وكل هذه المعانى منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها فى صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعانى، سالمة من الاحتمالات الفاسدة،

---

(١) التعضية: التقطيع وجعل الشىء أعضاء.

فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا اثباتا لئلا يثبت معنى فاسد أو ينفى معنى صحيح ، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

وأما لفظة الجهة فقد يراد به ماهو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق ، فاذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ولا يحيط به المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك ، وان أريد بالجهة أمر عدمي وهو مافوق العالم فليس هناك إلا الله وحده ، فاذا قيل أنه فى جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح ، ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع عال عليه :

ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفى العلو ، يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقه ، أنه كان قبل الجهات ، وأن من قال إنه فى جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وإنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الألفاظ ونحوها انما تدل على أنه ليس فى شيء من المخلوقات سواء سمى جهة أو لم يسم . وهذا حق ولكن الجهة ليست أمــــراً وجودياً بل أمر اعتبارى ولا شك أن الجهات لانهاية لها ومالا يوجد فيما لانهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله : لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، هو حق باعتبار أنه لايحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه ، وهذا المعنى هو الذى أراده الشيخ رحمه الله لما يأتى فى كلامه أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه ، فاذا جمع بين كلامه وهو قوله : لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات وبين قوله . محيط بكل شيء وفوقه ، علم أن مراده أن الله تعالى لايحويه شيء ولا يحيط به شيء . كما يكون لغيره من المخلوقات ، وإنه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالى على كل شيء .

لكن بقى من كلامه شيئان (أحدهما) أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع مافيه من الاجمال والاحتمال كان تركه أولى ، وإلا تسلط عليه وألزم بالتناقض فى اثبات الاحاطة والفوقيه ونفى جهة العلو ، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه انما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته . فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى

(الثانى) إن قوله كسائر المبتدعات ، يفهم منه أنه مامن مبتدع إلا وهوى محوى ، وفى هذا نظر ، فانه إن أراد أنه محوى بأمر وجودى فممنوع ، فان العالم ليس فى عالم آخر ، وإلا لزم التسلسل ، وإن أراد أمراً عدميا فليس كل مبتدع فى العدم ، بل منها ماهو داخل فى غيره كالسموات والأرض فى الكرسى ونحو ذلك ، ومنها ماهو منتهى المخلوقات كالعرش ، فسطح العالم ليس فى غيره من المخلوقات قطعا للتسلسل كما تقدم .

ويمكن أن يجاب عن هذا الاشكال بأن « سائر » بمعنى البقية لا بمعنى الجميع ، هذا أصل معناها ، ومنه السؤر وهو مايبقيه الشارب فى الإناء ، فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها . إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع ، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوى كما يكون أكثر المخلوقات محوياً ، بل هو محوى بشىء ،تعالى الله عن ذلك .

ولا يظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول أن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفى التعيينين كما ظنه بعض الشارحين ، بل مراده أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شىء من مخلوقاته ، وأن يكون مفتقراً إلى شىء منها : العرش أو غيره ، وفى ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه نظر ، فان أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه ، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به ، وقد نقل أبو مطيع البلخى عنه إثبات العلو كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وظاهر هذا الكلام يقتضى نفيه ، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة ، فلذلك قلت إن فى ثبوته عن الإمام نظراً ، وأن الأولى التوقف فى إطلاقه . فان الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول ونحو ذلك .

ومن ظن الجهال أنه إذا أنزل إلى سماء الدنيا كما أخبر الصادق «ص» يكون العرش فوقه ، ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم . فقوله مخالف لإجماع السلف ، مخالف الكتاب والسنة .

وقال شيخ الاســـلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى

سمعت الأستاذ أبا منصور بن حماد بعد روايته حديث النزول يقول : سئل أبو حنيفة عنه فقال : ينزل بلا كيف انتهى .

وإنما توقف من توقف فى نفى ذلك لضعف علمه بمعانى الكتاب والسنة وأقوال السلف ، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش بل يقول لا مباين ولا مجانب ، لا داخل العالم ولا خارجه ، فيصفونه بصفة العدم والممتنع ، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش ، ويقول بعضهم بحلوله فى كل موجود ، ويقول هو وجود كل موجود . ونحو ذلك ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . وسيأتى لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله « محيط بكل شىء وفوقه » إن شاء الله تعالى .

قوله (والمعراج حق ، وقد أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه فى اليقظة إلى السماء ثم إلى حيث شاء الله من العلا ، وأكرمه الله بما شاء وأوحى اليه ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى ، فصلى الله عليه فى الآخرة والأولى) .

ش : المعراج مفعال من العروج أى الآلة التى يعرج فيها أى يصعد وهو بمنزلة السلم ، لكن لا يعلم كيف هو وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته .

وقوله وقد أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه فى اليقظة ؛ اختلف الناس فى الاسراء فقيل كان الاسراء بروحه ولم يفقد جسده . نقله ابن إسحاق عن عائشة رضى الله عنها ، ونقل عن الحسن البصرى نحوه .

ولكن ينبغى أن يعرف الفرق بين أن يقال كان الاسراء مناما ، وبين أن يقال كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم ، فعائشة ومعاويه رضى الله عنهما لم يقولا كان مناما ، وإنما قالا أسرى بروحه ولم تفقد جسده ، وفرق ما بين الأمرين ، إذ ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء وذهب به إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال ، فما أرادا أن الاسراء كان مناما ،

وإنما أراد أن الروح ذاتها أسرى بها ففارقت الجسد ثم عادت اليه . ويجعلان هذا من خصائصه . فان غيره لاتنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت .

وقيل كان الاسراء مرتين . مرة يقظة ومرة مناما . وأصحاب هذا القول كانهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله « ثم استيقظت » وبين سائر الروايات وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين مرة قبل الوحى ومرة بعده ، ومنهم من قال بل ثلاث مرات ، مرة قبل الوحى ومرتين بعده ، وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق . وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث ، وإلا فالذى عليه أئمة النقل أن الاسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة بسنة وقيل بسنة وشهرين . ذكره ابن عبد البر .

قال شمس الدين بن القيم . ياعجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً . كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين . ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا . فيقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ، ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها إلى خمس . وقد غلط الحفاظ شريكا فى ألفاظ من حديث الاسراء . ومسلم أورد المسند منه ، ثم قال « فقدم وأخر وزاد ونقص » وأجاد رحمه الله . انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله .

وكان من حديث الإسراء أنه صلى الله عليه وسلم أسرى بجسده فى اليقظة على الصحيح من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً على البراق صحبة جبرائيل عليه السلام فنزل هناك وصلى بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد وقد قيل أنه نزل بيت لحم وصلى فيه ، ولا يصح عنه ذلك البتة ثم عرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا فاستفتح له جبرائيل ففتح لهما فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام . وأقر بنبوته . ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم فلقيهما فسلم عليهما فردا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته ثم عرج به إلى السماء الثالثة

فرأى فيها يوسف فسلم عليه ورحب به ، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته ، ثم أعرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى فسلم عليه ورحب به ،وأقر بنبوته فلما جاوزه بكى موسى فقيل له ما يبكيك ، قال أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنه من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته ، ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور ، .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ،وفرض له خمسين صلاة ، فرجع حتى مر على موسى ، فقال بم أمرت ، قال بخمسين صلاة فقال إن أمتك لاتطيق ذلك، ارجع إلى ربك ، فسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار أن نعم إن شئت ، فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه ، هذا لفظ البخارى فى صحيحه فى بعض الطرق ، فوضع عنه عشرا ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى حتى جعلها خمسا ،فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال قد استحييت من ربى ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما نفذ نادى مناد قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة فى رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل بعين رأسه ، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه ، ولم يره بعين رأسه .

وقوله (ما كذب الفؤاد ما رأى ، ولقد رآه نزلة أخرى) صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا المرئى جبرائيل،رآه مرتين على صورته التى خلق عليها .

وأما قوله تعالى فى سورة النجم (ثم دنى فتدلى) فهو غير الدنو والتدلى المذكور فى قصة الإسراء ، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما فإنه قال : (علمه شديد القوى ،

ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى) فالضمائر كلها راجعة إلى هـــذا المعلم الشديد القوى ، وأما الدنو والتدلى الذى فى حديث الاسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تعالى وتدليه ، وأما الذى فى سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، فهذا هو جبرائيل رآه مرتين مرة فى الأرض ومرة عند سدرة المنتهى .

ومما يدل على أن الاسراء بجسده فى اليقظة قوله تعالى (سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروف عند الاطلاق ، وهو الصحيح ، فيكون الاسراء بهذا المجموع ، ولا يمتنع ذلك عقلا، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ، وذلك يؤدى إلى إنكار النبوة فهو كفر .

فان قيل فما الحكمة فى الاسراء إلى بيت المقدس أولا .

فالجواب والله أعلم أنه كان ذلك اظهاراً لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم ، وأخبرهم عن عيرهم التى مر عليها فى طريقه ، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك ، إذ لا يمكن إطلاعهم على مافى السماء لو أخبرهم عنه وقد أطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته .

وفى حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره والله التوفيق .

قوله (والحوض الذى أكرمه الله تعالى به غياثا لأمته حق) .

ش. الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حدالتواتر ، ورواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته فى آخر تاريخه الكبير المسمى بالبداية والنهاية . فمنها مارواه البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن وأن فيه

من الأباريق كعدد نجوم السماء » وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ليردن على ناس من أصحابي حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول : أصحابي فيقول : لاتدري ما أحدثوا بعدك » رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه أنزلت على آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم — إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « هو نهر أعطانيه ربي عزوجل في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتي فيقال لي : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك » ورواه مسلم ولفظه « هو نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة والباقي مثله .

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ، والحوض في العرصات قبل الصراط لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قـــد ارتدوا على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لايجاوزون الصراط .

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أنا فرطكم على الحوض » والفرط الذي سبق إلى الماء ، وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم : فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت نعم فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري سمعته وهو يزيد فيها . فأقول : إنهم من أمتي فقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك فأقول « سحقاً سحقاً لمن غير بعدي » سحقاً أي بعداً .

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض أنه حوض عظيم ومورد كريم . يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذى هو أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفى بعض الأحاديث أنه كل ماشرب منه وهو فى زياده وإتساع ، وإنه ينبت فى خلاله من المسك الرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شىء ، وقد ورد فى أحاديث « أن لكل نبى حوضا ، وأن حوض نبينا «ص» أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً ، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

قال العلامة أبو عبد الله القرطبى رحمه الله فى التذكرة .

واختلف فى الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل الميزان وقيل الحوض ، قال أبو الحسن القابسى : والصحيح أن الحوض قبل ، قال القرطبى المعنى يقتضيه ، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط .

قال أبو حامد الغزالى فى كتاب كشف علم الآخرة .

حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط ، وهو غلط من قائله ، قال القرطبى : هو كما قال ، ثم قال القرطبى ولا يخطر ببالك أنه فى هذه الأرض بل فى الأرض المبدلة أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها أحد قط . تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء انتهى . فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر .

قوله (والشفاعة التى أدخرها لهم حق كما روى فى الأخبار) .

ش : الشفاعة أنواع منها ماهو متفق عليه بين الأمة ومنها ما خالف فيه المعتزله ونحوهم من أهل البدع .

(النوع الأول) الشفاعة الأولى هى العظمى الخاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم

من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة . منها عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فدفع إليه منها الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون لم ذلك ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، ألا ترون إلى ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض .

أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن أكل الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض » وسماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول نوح :

إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى ابراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده ، وذكر كذباته (١) نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : ياموسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالته وبتكليمه على الناس » اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب

---

(١) فى الحديث أنه كذب ثلاث كذبات كلهن فى ذات الله حين قال إنى سقيم ليتركوه فيكسر الأصنام ، وحين قال عن زوجته : إنها أختى لتنجو من الملك . وحين قال بل فعله كبيرهم هذا .

قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، قال هكذا هو ، وكلمت الناس فى المهد فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ، فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون : يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فأقوم فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ، ثم يفتح الله على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه مالم يتفحه على أحد قبلى ، فيقال يامحمد ارفع رأسك . سل تعطه ، اشفع تشفع فأقول : رب أمتى أمتى يارب أمتى أمتى يارب أمتى أمتى . فيقال أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنه . وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب . ثم قال : والذى نفسى بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر . أو كما بين مكة وبصرى ، أخرجاه فى الصحيحين بمعناه ، اللفظ للإمام أحمد .

والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه . لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى فى أن يأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء كما ورد هذا فى حديث الصور . فانه المقصود فى هــذا المقام ومقتضى سياق أول الحديث . فان الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء فى أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه فاذا وصلوا إلى الجزاء انما يذكرون الشفاعة فى عصاة الأمة واخراجهم من النار .

وكان مقصود السلف فى الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها . فيذكرون هذا القدر من الحديث الذى فيه النص الصريح فى الرد عليهم فيماذهبوا اليه

من البدعة المخالفة للأحاديث، وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور ، ولولا خوف الاطالة لسقته بطوله لكن من مضمونه أنهم يأتون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتون رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم فيذهب فيسجد تحت العرش فى مكان يقال له الفحص فيقول الله ماشأنك وهو أعلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقول : يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بينهم . فيقول سبحانه وتعالى : شفعتك أنا آتيكم فأقض بينهم ، قال فأرجع فأقف مع الناس ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل الملائكة فى الغمام ، ثم يجىء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، والكربيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح ، قال فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ثم يقول : إنى أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم ، وأرى أعمالكم فانصتوا إلى ، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

إلى أن قال : فاذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا · من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة فيقولون من أحق بذلك من أبيكم إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلا فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه ، وذكر نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمدا صلى الله عليه وسلم .

إلى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآتى الجنة فنظرت إلى ربى عز وجل خررت له ساجداً فيأذن لى من حمده وتحميده بشىء ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول الله لى أرفع يامحمد واشفع تشفع وسل تعطه ، فاذا رفعت رأسى . قال الله وهو أعلم ماشأنك فأقول يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله عز وجل قد شفعتك وأذنت لهم فى دخول الجنة. الحديث رواه الأئمة ابن جرير فى تفسيره والطبرانى وأبو يعلى الموصلى والبيهقى .

(النوع الثانى والثالث من الشفاعة) شفاعته صلى الله عليه وسلم فى أقوام

قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفى أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار لا يدخلونها .

(النوع الرابع) شفاعته صلى الله عليه وسلم فى رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم،وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث فيها .

(النوع الخامس) الشفاعة فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب والحديث مخرج فى الصحيحين .

(النوع السادس) الشفاعة فى تخفيف العذاب عن يستحقه كشفاعته فى عمه أبى طالب أن يخفف عنه عذابه، ثم قال القرطبى فى التذكرة بعد ذكر هذا النوع،

فإن قيل فقد قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) قيل لا تنفعه فى الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

(النوع السابع)شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة كما تقدم وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا أول شفيع فى الجنة » .

(النوع الثامن) شفاعته فى أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار فيخرجون منها وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث،وقد خفى علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا فى ذلك جهلا منهم بصحة الأحاديث ، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته ، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً ، وهذه الشفاعه تتكرر منه صلى الله عليه وسلم أربع مرات .

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » رواه الإمام أحمد ، وروى البخارى رحمه الله فى كتاب التوحيد[1] حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد

---

(١) فى باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم .

ابن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزى . قال اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهبنا معه بثابت البنانى اليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فاذا هو فى قصره فوافيناه يصلى الضحى فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا لثابت : لاتسأله عن شىء أول من حديث الشفاعة . فقال يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة فقال حدثنا محمد «ص» قال . إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض، فيأتون آدم فيقولون:

اشفع لنا إلى ربك فيقول . لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فانه خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول : لست لها ولكن عليكم بموسى فانه كليم الله ، فيأتون موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى فانه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد فيأتونى فأقول : أنا لها ، فاستأذن على ربى فيأذن لى ويلهمنى محامد أحمده بها لاتحضرنى الآن فاحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا فيقال يامحمد أرفع رأسك وقل يسمع لك ، واشفع تشفع وسل تعط. فأقول : يارب أمتى أمتى ، فيقال انطلق فاخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان فانطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يامحمد أرفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع واسأل تعط فأقول يارب امتى امتى ، فيقال انطلق فاخرج من كان فى قلبه ذرة أو خردلة من إيمان ، فانطلق فافعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يامحمد أرفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع . فأقول يارب أمتى أمتى فيقول انطلق فاخرج منها من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان ، فأخرجه من النار فانطلق فأفعل » .

قال فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن وهو متوار فى منزل أبى خليفة فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك . فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا فقلت له يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ماحدثنا فى الشفاعة فقال هيه ، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع فقال : هيه فقلنا لم يزد لنا على هذا ، فقال لقد حدثنى وهو جميع منذ عشرين سنة فما أدرى أنسى

أم كره أن تتكلموا فقلنا يا أباسعيد فحدثنا فضحك وقال : خلق الإنسان عجولا ماذ كرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم ، حدثنى كما حدثكم به قال ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يا محمد أرفع رأسك وقل يسمع لك . وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله فيقول سبحانه وتعالى وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله ، وهكذا رواه مسلم .

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة . الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ، وفى الصحيح من حديث أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعا قال فيقول الله تعالى « شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيراً قط » الحديث .

ثم إن الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة فى المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة فى الدنيا ، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره فى أهل الكبائر . وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله ويحد له حداً كما فى الحديث الصحيح حديث الشفاعة ، إنهم يأتون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام فيقول لهم عيسى عليه السلام اذهبوا الى محمد فانه عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتون فأذهب ، فاذا رأيت ربى خررت له ساجداً فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقول أى محمد أرفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع ، فأقول ربى أمتى ، فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أنطلق فأسجد فيحد لى حدا ، ذكر هذا ثلاث مرات .

وأما الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وسلم وغيره فى الدنيا الى الله تعالى فى الدعاء ففيه تفصيل ، فان الداعى تارة يقول بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته فهذا محذور من وجهين (أحدهما) أنه أقسم بغير الله

(والثانى) اعتقاده أن لأحد على الله حقاً ولا يجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق الا ما أحقه على نفسه كقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وكذلك ما ثبت فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضى الله عنه وهو رديفه : « يامعاذ أتدرى ما حق الله على عباده » قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك » قلت الله ورسوله أعلم قال : « حقهم عليه أن لا يعذبهم » فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق ، لا أن العبد نفسه يستحق على الله شيئاً كما يكون المخلوق على المخلوق ، فان الله هو المنعم على العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم ، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به لان السبب هو ما نصبه الله سبباً .

وكذلك الحديث الذى فى المسند من حديث أبى سعيد عن النبى الله صلى الله عليه وسلم فى قول الماشى الى الصلاة « أسألك بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك فهذا حق السائلين هو أوجبه على نفسه فهو الذى أحق السائلين أن يجيبهم ، والعابدين أن يثيبهم ، ولقد أحسن القائل .

ما للعباد عليه حق واجب . كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

فان قيل فأى فرق بين قول الداعين بحق السائلين عليك وبين قوله بحق نبيك أو نحو ذلك (فالجواب) ان معنى قوله بحق السائلين عليك ، أنك وعدت السائلين بالاجابة ، وأنا من جملة السائلين فاوجب دعائى ، بخلاف قوله بحق فلان وان كان له حق على الله بوعده الصادق . فلا مناسبة بين ذلك ، ولا اجابة دعاء هذا السائل ، فكأنه يقول لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاى ، وأى مناسبة فى هذا وأى ملازمة ، وانما هذا من الاعتداء على الدعاء . وقد قال تعالى (أدعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين) وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة ولم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عن التابعين

ولا عن أحد من الأئمة . وإنما يوجد مثل هذا فى الحروز والهيا كل التى يكتب بها الجهال والطرقية .

والدعا من أفضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع .

وإن كان مراده الاقسام على الله بحق فلان فذلك محذور أيضاً لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لايجوز ، فكيف على الخالق وقد قال صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك » ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضى الله عنهم يكره أن يقول الداعى « أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام » ونحو ذلك حتى كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الرجل : « اللهم إنى أسألك بمعقد العز من عرشك » ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه ، وتارة يقول بجاه فلان عندك أو يقول نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك ، ومراده لأن فلاناً عنـــدك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعائنا .

وهذا أيضاً محذور فانه لو كان هذا هو التوسل الذى كان الصحابة يفعلون فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته وإنما كانوا يتوسلون فى حياته بدعائه يطلبون منـــه أن يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه كما فى الاستسقاء وغيره ، فلما مات قال عمر رضى الله عنه لما خرجوا يستسقون : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد أنا نقسم عليك به أو نسألك بجاهه عندك إذا لو كان ذلك مراداً لـــكان جاه النبى صلى الله عليه وسلم أعظم وأعظم من جاه العباس .

وتارة يقول باتباعى لرسولك ومحبتى له وإيمانى به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقى لهم ونحو ذلك .

فهذا من أحسن مايكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع .

فلفظ التوسل بالمشخص والتوجيه به فيه إجمال ، غلط بسببه من لم يفهم معناه ،

فان أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً ، وهذا فى حياته يكون أو لكون الداعى محباً له ، مطيعاً لأمره ، مقتدياً به ، وذلك أهل المحبة والطاعة والاقتداء فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، وإنما بمحبة السائل وأتباعه ، أو يراد به الإقسام به والتوسل به ، فهذا الثانى هو الذى كرهوه ونهوا عنه .

وكذلك السؤال المطلوب بالشيء قد يراد به التسبب به لكونه سبباً فى حصول المطلوب وقد يراد به الإقسام به .

ومن الأول حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار ، وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما فان الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال ، لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه إليه ويسأله به ، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

فالحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر ، فان الشفيع عند البشر كما أنه شافع الطالب شفعه فى الطلب بمعنى أنه صار به شفعاً فيه بعد أن كان وتراً فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه وبشفاعته صار فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب منه . والله تعالى وتر لا يشفعه أحد ، فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه . فالأمر كله إليه ، فلا شريك له بوجه ، فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله : أرفع وأسك وقل يسمع واسأل تعطه واشفع تشفع ، فيحد له حداً فيدخلهم الجنة ، فالأمر كله لله . كما قال تعالى (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى : (ليس لك من الأمر شىء) وقال تعالى (ألا له الخلق والامر) .

فاذا كان لا يشفع عنده أحد إلا باذنه لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته كما قال صلى الله عليه وسلم « اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه مايشاء » وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يابنى عبد مناف

لا أملك لكم من الله شيئاً ياصفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله شيئاً يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله شيئاً » .

وفى الصحيح أيضاً عن النبى صلى عليه وسلم « لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها ثغاء أو رقاع يخفق فيقول أغثنى أغثنى فيقول قد أبلغتك لا أملك لك من الله شيء » .

فاذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به لا أملك لكم من الله من شيء ، فما الظن بغيره ، وإذا دعاه الداعى وشفع عنده الشفيع فسمع الدعاء وقبل الشفاعة لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق ، فانه سبحانه وتعالى هو الذى جعل هذا يدعو ويشفع وهو الخالق لأفعال العباد ، وفق العبد للتوبه ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه ، وهو مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء .

قوله (والميثاق الذى أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق) .

ش : قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله الا هو ، وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتميزهم الى أصحاب اليمين والى أصحاب الشمال ، وفى بعضها الاشهاد عليهم بأن الله ربهم .

فمنها ماراه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . الى قوله المبطلون » ورواه النسائى أيضاً وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون : ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال صلى الله عليه وسلم « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » ورواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن جرير وابن حبان فى صحيحه .

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال أى ربى من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أى رب من هذا . قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب كم عمره قال ستون سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ، قال أو لم تعطها ابنك داود ، فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطيت ذريته ، ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى الامام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا . قال فيقول نعم قال فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى شيئا) وأخرجاه فى الصحيحين أيضا .

وذكر أحاديث أخر أيضا وكلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل النار وأهل الجنة ؛ ومن هنا قال من قال إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ، وهذه الآثار لاتدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستمرا ثابتاً ، وغايتها أن تدل على باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها واجلها وعملها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها اليها وقدر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له ، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها فى موضع واحد ، ثم يرسلها منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله ابن حزم .

نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة كما قاله على الوجه الذى سبق به التقدير أولا ، فيجىء الخلق الخارجى مطابقاً للتقدير السابق كشأنه سبحانه فى جميع مخلوقاته ، فانه قدر لها أقداراً وآجالا وصفات وهيآت ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق .

فالآثار المروية فى ذلك إنما تدل على القدر السابق ، بعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة ، وأما الاشهاد عليهم هناك فانما هو فى حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضى الله عنهم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهـــذا الاشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة فى حديث أبى هريرة .

ومعنى قوله شهدنا أى قالوا بلى شهدنا أنك ربنا ، وهذا قول ابن عباس وأبى ابن كعب ، وقال ابن عباس أيضا اشهد بعضهم على بعض ، وقيل (شهدنا) من قول الملائكة . والوقف على قوله (بلى) وهذا قول مجاهد والضحاك والسدى وقال السدى أيضا هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إفراد بنى آدم ، والأول أظهر ، وماعداه احتمال لادليل عليه وإنما يشهد ظاهر الآية للأول .

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم

من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم كالثعلبي والبغوي وغيرهما ومنهم من لم يذكره بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم كالزمخشري وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم لكن نسب الرازي القول الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة ولاريب أن الآية لاتدل على القول الأول أعني أن الأخذ كان من ظهر آدم وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بني آدم ، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والاشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة ، وبعضهم إلى النار ، كما في حديث عمر رضي الله عنه ، وفي بعضها الأخذ وإراءة آدم إياهم من غير قضاء ولا اشهاد كما في حديث أبي هريرة ، والذي فيه الاشهاد على الصفة التي قالها أهل القول الأول موقوف على ابن عباس وعمر ، تكلم فيه أهل الحديث ، ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، والحاكم معروف تساهله رحمه الله ،

والذي فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار ، دليل على مسئلة القدر . وذلك شواهده كثيرة ولانزاع بين أهل السنة ، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون ،

وأما الأول فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف ، ولولا ماالتزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك ، وما قيل من الكلام عليها ، وماذكر فيه من المعاني المعقولة ، ودلالة ألفاظ الآية الكريمة .

قال القرطبي وهذه الآية مشكلة . وقد تكلم العلماء في تأويلها ، فنذكر ماذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم معنى الآية أن الله أخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض ، ومعنى أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، دلهم على توحيده ، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا سبحانه وتعالى . قال فقام ذلك مقام الاشهاد عليهم كما قال تعالى في السموات والأرض (قالتا أتينا طائعين) ذهب إلى هذا القفال وأطنب .

وقيل أنه سبحانه وتعالى أخرج الأرواح قبل خلق الاجساد وأنه جعل فيها من المعرفة به ما خاطبها ، ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك إلى آخر كلامه .

وأقوى مايشهد لصحة القول الأول حديث أنس المخرج في الصحيحين الذى فيه « قد أردت منك ماهو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لاتشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » ولكن قد روى من طريق أخرى «قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فيرد إلى النار » وليس فيه « في ظهر آدم » وليس في الرواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التى ذكرها أصحاب القول الأول .

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين (أحدهما) كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا الإيمان ، وأنه بهذا يقوم الحجة عليهم يوم القيامة (والثانى) أن الاية دلت على ذلك والآية لاتدل عليه بوجوه (أحدها) أنه قال «من بنى آدم» ولم يقل من آدم (الثانى) أنه قال « من ظهورهم » ولم يقل من ظهره ، وهذا يدل بعض أو بدل الشمال وهو أحسن (الثالث) أنه قال في ذياراتهم ولم يقل ذريته (الرابع) أنه قال وأشهدهم على أنفسهم ، ولا بد أن يكون الشاهد ذاكر لماشهد به ، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار كما تأتى الاشارة إلى ذلك ، لا يذكر شهادة قبله .

(الخامس) أنه سبحانه أخبر أن حكمته بهذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هـــذا غافلين) والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى (رســـلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (السادس) تذكيرهم بذلك (لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (ومعلوم أنهم غافلون عن الاخراج لهم من صلب آدم كلهم وأشهادهم جميعاً ذلك الوقت ، فهذا لايذكره أحد منهم (السابع) قوله تعالى(أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا الاشهاد : لئلا يدعوا الغفلة أو يدعوا التقليد فالغافل لاشعور له والمقلد متبع

فى تقليده لغيره . ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قدمت به الحجة من الرسل والفطرة .

الثامن قوله (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك ، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، وإنما يهلكهم بعد الاعذار والانذار بارسال الرسل (التاسع) أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليه بهذا فى غير موضع من كتابه كقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فهـــذه هى الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) .

(العاشر) أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها وهذا شأن آيات الرب تعالى فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) وإنما ذلك بالفطرة التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله فما من مولود إلا يولد على الفطرة لا يولد مولود على غير هذه الفطرة ، هذا أمر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير ، وقد تقدمت الاشارة إلى هذا والله أعلم .

وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره ، ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدى فى شرح التأويلات ، ورجح القول الثانى وتكلم عليه ومال إليه .

ولاشك أن الاقرار بالربوبية أمر فطرى والشرك حادث طارىء والأبناء تقلدوه عن الآباء فاذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجرى الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن ، يقال لهم أنتم كنتم معترفين بالصانع مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم ، فان شهادة المرء على نفسه هى إقراره بالشىء ليس إلا . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) وليس المراد أن يقول أشهد على نفسى بكذا بل من أقر بشىء فقد شهد على نفسه به فلم عدلتم

عن هذه المعرفة والإقرار الذى شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك ، بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة تقليداً لمن لاحجة معه ، بخلاف أتباعهم فى العادات الدنيوية ، فان تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها ، وفيه مصلحة لكم بخلاف الشرك فانه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدو لكم فيه عن الصواب .

فان الذى يأخذه الصبى عن أبويه هو دين التربيه والعادة ، وهو لاجل مصلحة الدنيا فان الطفل لابد له من كافل ، وأحق الناس به أبواه ، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما فى أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه على الصحيح حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة ، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل ، وهو الذى يعلم بعقله هو أنه دين صحيح ، فان كان آباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق) وقال ليعقوب بنوه (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسمعيل واسحق) وإن كان الآباء مخالفين للرسل كان عليه أن يتبع الرسل كما قال تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما) الآية .

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم بل يعدل عن الحق المعلوم إليه ، فهذا اتبع هواه كما قال تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون) .

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام يتبع أحدهم آباءه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة ، بل هو من مسلمة الدار ، لامسلمة الاختيار ، وهذا إذا قيل له فى قبره من ربك قال قال هاه هاه لاأدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته .

فليتأمل اللبيب هذا المحل وينصح نفسه وليقم معه ولينظر من أى الفريقين هو والله الموفق . فان توحيد الربوبية لايحتاج إلى دليل ، فانه مركوز فى الفطر وأقرب ماينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة وقد خرج من بين الصلب والترائب ، والترائب عظام الصدر ثم صارت تلك النطفة فى قرار مكين فى ظلمات

ثلاث ، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق ، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا ، ومحال توهم عمل الطبائع فيها لأنها موات عاجزة لا توصف بحياة ، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير ، فإذا تفكر فى ذلك وانتقال هذه النقطة من حال إلى حال ، علم بذلك توحيد الربوبية فانتقل منه إلى توحيد الإلهية ، فإذا علم بالعقل أن له رباً أوجده كيف يليق به أن يعبد غيره . وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً ، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه .

قوله (وقد علم الله تعالى فى الأزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزاد فى ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه) .

ش : قال تعالى (إن الله بكل شىء عليم — وكان الله بكل شىء عليما) فالله تعالى موصوف بأنه بكل شىء عليم أزلا وأبداً لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة وما كان ربك نسيا .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس رأسه ينكث بمخصرته ثم قال « مامن نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، قال فقال رجل . يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فقال « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . ثم قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة . وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوه ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) خرجاه فى الصحيحين .

قوله (وكل ميسر لما خلق له والأعمال بالخواتيم . السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله) .

ش تقدم من حديث على رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وعن زهير عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال ففيم العمل ؟ قال زهير : ثم تكلم أبو الزبير بشىء لم أفهمه فسألت ما قال . فقال « اعملوا فكل ميسر » رواه مسلم .

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » خرجاه فى الصحيحين وزاد فى البخارى « وإنما الأعمال بالخواتيم » .

وفى الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقياً أم سعيداً فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف ، قال أبو عمر ابن عبد البر فى التمهيد : قد أكثر الناس من تخريج الآثار فى هذا الباب ، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه . وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

قوله (وأصل القدر سر الله فى خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان .

ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكرا ووسوسة ، فان الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى فى كتابه (لا يسئل عما يفعل وهم يسألون) فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) .

ش : أصل القدر سر الله فى خلقه وهو كونه أوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأمات وأحيا وأضل وأهدى قال على رضى الله عنه وكرم وجهه : القدر سر الله فلا نكشفه ، والنزاع بين الناس فى مسئلة القدر مشهور ، والذى عليه أهل السنة والجماعة إن كل شىء بقضاء الله وقدره . وأن الله تعالى خالق أفعال العباد قال تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقال تعالى (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) وإن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه ، فيشاؤه كونا ولا يرضاه دينا .

وخالف فى ذلك القدرية والمعتزلة وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر . وإلى هذا الآن لا يقولون شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه، ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فانهم هربوا شىء فوقعوا فيما هو شر منه فانه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى ، فان الله قد شاء الايمان منه على قولهم والكافر شاء الكفر . فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى ، وهذا من اقبح الاعتقاد ، وهو قول لادليل عليه بل هو مخالف الدليل .

وروى اللالكائى من حديث بقية عن الأوزاعى حدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد المكى عن ابن عباس قال : قيل لابن عباس ان رجلا قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال دلونى عليه وهو يومئذ قد عمى فقالوا له ما تصنع به، فقال والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى اقطعه ولئن وقعت رقبته بيدى لأدقنها فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كأنى بنساء بنى فهر يطفن بالخزرج تصطفق إلياتهن مشركات ، هذا أول شرك فى الإسلام والذى نفسى بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن

يقدر الخير كما أخرجوه من أن يقدر الشر »

قوله : وهذا أول شرط فى الإسلام إلى آخره من كلام ابن عباس ، وهذا يوافق قوله : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

وروى عمر بن الهيثم قال : خرجنا فى سفينة وصحبنا فيها قدرى ومجوسى فقال القدرى للمجوسى أسلم قال المجوسى أراد الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان . هذا شيطان قوى ، وفى رواية أنه قال فأنا مع أقواهما .

ووقف إعرابى على حلقة فيها عمرو بن عبيد فقال ياهؤلاء إن ناقتى سرقت فادعو الله أن يردها على ، فقال عمرو بن عبيد الله إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقتها فارددها عليه ، فقال الأعرابى لاحاجة لى فى دعائك قال ولم ؟ قال أخاف كما أراد أن لاتسرق فسرقت أن يريد ردها فلا ترد .

فقال رجل لأبى عصام القسطلانى أرأيت إن منعنى الهدى وأوردنى الضلال ثم عذبنى أيكون منصفاً ؟ فقال له أبو عصام إن يكن الهدى شيئاً هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء .

وأما الأدلة من الكتاب والسنة فقد قال تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما) وقال تعالى (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وقال تعالى . (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) .

ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبة والرضا فسوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوباً مرضيا ، وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصى محبوبة لله

ولا مريضه له فليست مقدرة ولا مقضية فهى خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة ، أما نصوص المشيئة والإراد من الكتاب فقد ذكر بعضها ، وأما نصوص المحبة والرضا فقال تعالى (والله لايحب الفساد) ولا يرضى لعباده الكفر ، وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً) .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله كره لكم ثلاثاً ، قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » وفى المسند « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » وكان دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك » .

فتأمل صفة استعاذته بصفة الرضا من صفة سخطك ، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، فالأول الصفة والثانى لأثرها المرتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه ، وإن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره ، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك ، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه ، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه فأعذنى مما أكره وأمنعه أن يحل بى هى بمشيئتك أيضاً ، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك فعياذى بك منك فعياذى بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ، ولا أستعيذ بك من شىء صادر عن غير مشيئتك بل هو منك ، فلا يعلم ما فى هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته .

فان قيل كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ، وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته ،

قيل هذا السؤال هو الذى افترق الناس لأجله فرقاً وتباينت طرقهم وأقوالهم

فاعلم أن المراد نوعان . مراد لنفسه ومراد لغيره . فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته ، وما فيه من الخير فهو مراد وإرادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده ، فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاؤه. وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسمه . وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية ، فهو سبحانه يكره الشيء . ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب اليه من فوته .

ومن ذلك أنه خلق إبليس الذي هـــو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وهو السبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى . وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها أحب اليه من عدمها .

منها أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى عـــلى خلق المتضادات المتقابلات . فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر ، في مقابلة ذات جبرائيل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير ، فتبارك خالق هذا وهذا كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والدواء والداء . والحياة والموت والحسن والقبيح ، والخير والشر ، وذلك من أدل دليل كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه ، فانه خلق المتضادات وقابل بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقاب ، والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل ، فان هذه الأسماء

والأفعال كمال لابد من وجود متعلقها ، ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء ومنها ظهور آثار اسمائه المتضمنة كلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » .

ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء فى غير موضعه ولا ينزله فى غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه وأعلم بمن لا يصلح لذلك فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيره ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ليعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب .

وهذا كالشمس والمطر والرياح التى فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر .

ومنها حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت فان عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولوكان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها .

فان قيل فهو كان يمكن وجود تلك الحكم ، بدون هذه الأسباب ، فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجودها الملزوم بدون لازمه كفرض وجود الابن بدون الأب والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون التائب .

فان قيل فاذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضى اليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم هى مسخوطة من جميع الوجوه :

قيل : هذا السؤال يرد على وجهين (أحدهما من جهة الرب تعالى وهل يكون محباً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وان كان يبغضها لذاتها : (والثانى) من جهة العبد وهو أنه يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً فهذا سؤال له شأن .

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية اليه : وهو من هذه الجهة شر ، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه مثاله أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة ، وانما حصل لها الشر بقطع الخير عنها فانها خلقت فى الأصل متحركة . فان أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به . وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه وحركتها من حيث هى حركة خير ، وانما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هى حركة والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء فى غير محله ، فلو وضع فى موضعه لم يكن شراً ، فعلم ان جهة الشر فيه نسبيه اضافية ، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة فى محلها خيراً فى نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذى حلت به لما احدثت فيه من الألم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له : فصار ذلك الألم شراً بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه فى موضعه ، فانه سبحانه لم يخلق شراً محضا من جميع الوجوه والاعتبارات ، فان حكمته تأبى ذلك فلا يمكن فى جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه لا مصلحة فى خلقه بوجه ما .

هذا من أبين المحال ، فانه سبحانه بيده الخير كله . والشر ليس اليه بل كل ما اليه فخير ، والشر انما حصل لعدم هذه الإفاضة والنسبة اليه فلو كان اليه لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته اليه هو الذى صيره شرا .

فان قيل لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة .

قيل هو من هذه الجهة ليس بشر ، فان وجوده هو المنسوب اليه وهو

من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذى فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير .

فان أردت مزيد إيضاح فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة ، الإيجاد . والإعداد والإمداد . فإيجاد هذا خير وهو إلى الله وكذلك إعداده وإمداده ، فاذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل ، إنما إليه ضده .

فان قيل : هلا أمده إذ أوجده ، قيل . ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده وإنما اقتضت ايجاده وترك امداده فايجاده خير ، والشر من عدم امداده . فان قيل : فهلا أمد الموجودات كلها ، فهذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ فى الحكمة ، وهذا عين الجهل ، بل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الذى بين الأشياء ، وليس فى خلق كل نوع منها تفاوت ، فكل نوع منها ليس فى خلقه تفاوت ، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق وإلا فليس فى الخلق من تفاوت . فان اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل .

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

فان قيل كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه ، قيل لأن اعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له ، وقد تكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هى أكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة . وقد أشار تعالى الى ذلك فى قوله (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) ـــ الآيتين . فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم الى الغزو مع رسوله وهو طاعته . فلما كرهه منهم ثبطهم عنه . ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى تترتب على خروجهم مع رسوله فقال . (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) أى فسادا وشراً (ولأوضعوا خلالكم) أى سعوا بينكم بالفساد والشر (يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون منهم مستجيبون لهم ؛ فيتولد من سعى هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم

من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه .

فاجعل هذا المثال أصلا وقس عليه .

وأما الوجه الثانى وهو الذى من جهة العبد فهو أيضاً ممكن بل واقع ، فان العبد يسخط الفسوق والمعاصى ويكرهها من حيث فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره . ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكونى ، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه ، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان ، وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً وقولهم يرجع إلى هذا القول ، لأن اطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته :

وسر المسألة أن الذى إلى الرب منها غير مكروه والذى إلى العبد مكروه .

فان قيل ليس إلى العبد شىء منها ، قيل هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق ، والقدرى المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبرى وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين

فان قيل كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة فى التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة .

قيل هذا هو الذى أوقع من عميت بصيرته فى شهود الأمر على غير ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال : إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته ، وفى ذلك قيل :

أصبحت منفعلا لما يختاره   منى ففعلى كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية فان الطاعة هى موافقة الأمر الدينى الشرعى ، لا موافقة القدر والمشيئة . ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له ، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعون ، وهذا غاية الجهل ، لكن إذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين ، كان بالله فى هذه الحال لا بنفسه ، فوقوع الذنب منه لا يتأتى فى هذه الحال البتة ، فان عليه حصناً حصينا فبى يسمع وبى يبصر

بى يبطش وبى يمشى . فلا يتصور منه الذنب فى هذه الحالة ، فاذا حجب عن هذا المشهد وبقى بنفسه استولى عليه حكم النفس ، فهناك نصبت عليه الشباك والأشراك ، وأرسلت عليه الصيادون ، فاذا انتقى عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعى فهناك يحضره الندم والتوبة والانابة ، فانه كان فى المعصيه محجوبا بنفسه عن ربه ، فلما فارق ذلك الوجود صار فى الوجود آخر ، فبقى بربه لا بنفسه .

فان قيل إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه .

(فالجواب) أن يقال أولا : نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره ولم يرد بذلك كتاب ولاسنة ، بل من المقضى مايرضى به ومنه ما يسخط ويمقت كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه بل من القضاء ما يسخط كما أن من الأعيان المقضيه مايغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم .

ويقال (ثانيا) هنا امران : قضاء الله وهوفعل قائم بذات الله تعالى ومقضى وهو المفعول المنفصل عنه فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله ، والمقضى قسمان : منه مايرضى به ومنه مالا يرضى به .

ويقال (ثالثاً) القضاء له وجهان (أحدهما) تعلقه بالرب تعالى ، فمن هذا الوجه ونسبته إليه يرضى به (والوجه الثانى) تعلقه بالعبد ونسبه إليه ، فمن هذا الوجه ينقسم إلى مايرضى به وإلى مالا يرضى ، مثال ذلك قتل النفس له اعتباران فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله آجلا المقتول ونهاية لعمره يرضى به ، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به .

وقوله « والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان » إلى آخره ، التعمق هو المبالغة فى طلب الشىء ، والمعنى أن المبالغة فى طلب القـــدر والغوص فى الكلام فيه ذريعه الخذلان ، الذريعة الوسيلة ، والذريعـة والدرجة والسلم متقاربة المعنى ، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى أيضا

لكن الخذلان فى مقابلة النصر والحرمان فى مقابله الظفر والطغيان فى مقابلة الاستقامة .

وقوله فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله «ص» فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمـــان رواه مسلم ، الإشاره بقوله « ذلك صريح الإيمان » إلى تعاظم أن يتكلموا به .

ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سئل رسول الله «ص» عن الوسوسة فقال (تلك محض الإيمان) وهو بمعنى حديث أبى هريرة فان وسوسة النفس أو مدافعة وساوسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين . فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح ومحض الايمان .

هذه طريقة الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم باحسان ، ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الأوراق بتلك الوساوس التى هى شكوك وشبه ، بل وسودوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله فى ذم الخوض فى الكلام فى القدر والفحص عنه ؛ وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أبغض الرجال الى الله الألد الخصم) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبى هند عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، قال : فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان من الغضب قال فقال لهم : (مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ، بهذا هلك من كان قبلكم) قال فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله لم أشهده ماغبطت نفسى بذلك المجلس . اى لم أشهده . ورواه ابن ماجه أيضا .

وقال تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلهم بخـــلاقهم وخضتم كالذى خاضوا) أى كالخوض الذى خاضوا أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذى خاضوا .

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض لأن فساد الدين إما في العمل أو في الاعتقاد ، فالأول من جهة الشهوات والثاني من جهة الشبهات ،

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع قالوا فارس والروم قال « فمن الناس إلا أولئك » وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقوا على إثنتين وسبعين ملة وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا من هي يارسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » رواه الترمذي .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو إثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح . وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة » يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة . وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر ، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع .

وقوله : فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب . ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين .

أعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله في التسليم وعدم الأسئلة عن تفاسير الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه ، وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها

بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته . وما خفى عنها لم تتوقف فى انقيادها وتسليمها على معرفته . ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك كما فى الإنجيل : يا بنى إسرائيل لا تقولوا لم أمر ربنا ولكن قولوا بم أمر ربنا .

ولهذا كان سلف هذه الأمة التى هى أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما لا تسأل نبيها لم أمر الله بكذا ولم نهى عن كذا ولم قدروا كذا ولم فعل كذا ، لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام . وإن قدم الاسلام لا يثبت إلا على درجة التسليم . فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المسارعة إليه والمبادرة به ، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح فى الاتيان به على أكمل الوجوه . ثم فعله لكونه مأموراً بحيث لا يتوقف الاتيان به على معرفة حكمته ، فان ظهرت له فعله وإلا عطله ، فان هذا ينافى الانقياد ويقدح فى الامتثال .

قال القرطبى ناقلا عن ابن عبد البر : فمن سأل مستفهماً راغباً فى العلم ونفى الجهل عن نفسه باحثاً عن معنى يجب الوقوف فى الديانة عليه ، فلا بأس به فشفاء العى السؤال ، ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم ، فهو الذى لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره .

قال ابن عربى : الذى ينبغى للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة وإيضاح سبل النظر ، وتحصيل مقدمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد ، قال : فاذا عرضت لك مسألة أتيت من بابها ونشدت من مظانها ، والله يفتح وجه الصواب فيها انتهى . وقال صلى الله عليه وسلم « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه الترمذى وغيره .

ولا شك فى تكفير من رد حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بين له الصواب ليرجع إليه ، وهو سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا بمجرد قهره وقدرته كما يقوله جهم وأتباعه وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله

قوله (فهذا جملة مايحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود . فانكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود) .

ش : الاشارة بقوله « فهذا » إلى ماتقدم ذكره مما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة ، وقوله وهي درجة الراسخين في العلم أي علم ماجاء به الرسول جملة وتفصيلا ، نفياً وإثباتا ، ويعني بالعلم المفقود علم القدر الذي طواه الله عن أنامه ونهاهم عن مرامه ، ويعني بالعلم الموجود علم الشريعة أصولها وفروعها ، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين، قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) الآية . وقال تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) .

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ، ولا من جهلنا انتفاء حكمته ، ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات التي لا يعلم منها إلا المضرة ، لم ينف أن يكون الله تعالى خالقاً لها ، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لان عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم

قوله (ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقم) .

ش : قال تعالى (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله خلق لوحا محفوظاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوته حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة يخلق بكل نظره ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه ، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير كما في سنن

أبي داود ، عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله «ص» يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب ، قال يارب وماذا أكتب ؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .

واختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني ، أصحهما أن العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله «ص» قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنه قال وعرشه على الماء » .

فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم بحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله « أول ما خلق الله القلم الخ . إما أن يكون جملة أو جملتين . فان كان جملة هو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له أكتب ، كما في اللفظ « أول ما خلق الله القلم قال له أكتب » بنصب « أول » والقلم ، وإن كان جملتين وهو مروى برفع « أول والقلم » فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان ، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذى أقسم الله به في قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) والقلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذى يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدم لأقلامهم ، وقد رفع النبي «ص» ليلة أسرى به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها أمر العالم العلوي والسفلي .

قوله (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائن ليجعلوه

غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو أجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوا كائنا لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

ش : تقدم حديث جابر عن الرسول (ص) قال جاء سراقة بن مالك ابن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، ففيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما استقبل ؟ ، قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت خلف رسول الله (ص) يوما فقال ، يا غلام ألا أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، وفي رواية غير الترمذى ، احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ، .

وقد جاءت الأقلام فى هذه الأحاديث وغيرها مجموعة ، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الذى تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ . والذى دلت عليه السنة أن الأقلام اربعة ، وهذا التقسيم المقدم ذكره (القلم الاول) العام الشامل لجميع المخلوقات وهو الذى تقدم ذكره مع اللوح (القلم الثانى) خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضا لكن لبنى آدم . ورد فى هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بنى آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم (القلم الثالث) حين يرسل الملك الى الجنين فى بطن أمه فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات (رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد) كما ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة (القلم الرابع) الموضوع على العبد عند بلوغه الذى بأيدى الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك فى الكتاب والسنة

وإذا علم العبد أن كلا من عند الله ، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى قال تعالى (فلا تخشوا الناس واخشونى و إياى فارهبون — فاياى فاتقون — ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقيه فأولئك هم الفائزون — هو أهل التقوى وأهل المغفرة) ونظائر هذا المعنى فى القرآن كثيرة .

ولا بد لكل عبد أن يتقى أشياء فانه لا يعيش وحده ولو كان ملكا مطاعا فلابد أن يتقى أشياء يراعى بها رعيته ، فحينئذ فلابد لكل إنسان أن يتقى ، فان لم يتق الله اتقى المخلوق . والخلق لا يتفق حبهم كلهم و بغضهم بل الذى يريده هذا يبغضه هذا فلا يمكن إرضاؤهم كلهم ، كما قال الشافعى رضى الله عنه الناس غاية لا تدرك فعليك بالأمر الذى يصلحك فالزمه ودع ماسواه فلا تعانه ، فارضاء الخـــلق لامقدور ولا مأمور ، وارضاء الخالق مقدور ومأمور .

وأيضا فالمخلوق لا يغنى عنه من الله شيئا ، فاذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس كما كتبت عائشة إلى معاوية روى مرفوعا وروى موقوفا عليها « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاما » فمن أرضى الله كفاه مؤنة الناس ورضى عنه ثم فيما بعد يرضون ، إذ العاقبة للتقوى ، ويحبه الله فيحبه الناس كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله العبد نادى ياجبرائيل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبرائيل ، ثم ينادى جبرائيل فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع القبول فى الأرض » ، وقال فى البغض مثل ذلك .

فقد بين أنه لابد لكل مخلوق من أن يتقى إما المخلوق وإما الخالق ، وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة ، وتقوى الله هى التى يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة ، فهو سبحانه أهل التقوى ، وهو أيضا أهل المغفرة فانه هو الذى يغفر الذنوب لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره ، وهو الذى يجير ولا يجار عليه .

قال بعض السلف ما احتاج تقى قط لقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فاذا لم يحصل ذلك دل على أن فى التقوى خللا فليستغفر الله وليتب اليه .

ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)أى فهو كافيه لا يحوجه إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب ، وتعاطى الأسباب ، وان الأمور اذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب، وهذا فاسد فان الاكتساب منه فرض، ومنه مستحب ،ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام كما قد عرف فى موضعه . وقد كان النبى (ص) أفضل المتوكلين يلبس لامة الحرب ويمشى فى الأسواق للاكتساب حتى قال الكافرون (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافى التوكل يرزقون على يد من يعطيهم إما صدقة واما هدية ، وقد يكون ذلك من مكاس أو والى شرطة أو نحو ذلك ، وهذا مبسوط فى موضعه لا يسعه هذا المختصر ، وقد تقدمت الاشارة إلى بعض الأقوال التى فى تفسير قوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ،

وأما قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) فقال البغوى قال مقاتل: نزلت فى اليهود حين قالوا أن الله لا يعطى يوم السبت قال المفسرون من شأنه أن يحيى ويميت ويرزق ويعز قوما ويذل آخرين ، ويشفى مريضا ويفك عانيا ، ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطى سائلا ويغفر ذنبا إلى ما لا يحصى من أفعاله وأحداثه فى خلقه ما يشاء .

قوله (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه) .

ش : هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لامحاله . ولقد أحسن القائل حيث يقول :

ما قضى الله كائن لامحاله والشقى الجهول من لام حاله

والقائل الآخر :

اقنع بما ترزق ياذا الفتى فليس ينسى ربنا نمله
إن أقبل الدهر فقم قائماً وإن تولى مدبراً نم له

قوله (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكما مبرما ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه فى سماواته وأرضه) .

ش . هذا بناء على ماتقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها كما قال صلى الله عليه وسلم « قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة ، فكانت كما علم ، فإن حصول المخلوقات على مافيها من غرائب الحكم لايتصور إيجادها إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً فى الأزل وقالوا إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

قال الإمام الشافعى رحمه الله : ناظروا القدرية بالعلم فان أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا ، فالله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه ، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه ، فانما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منه ، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل فيلزم أن يكون العبد قادرا على تغيير علم الله لأن الله علم أنه لا يفعل ، فاذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ،

قيل هذه معضلة وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا يستلزم تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع فيمتنع أن يقع شىء يستلزم تغيير

العلم بل أى شىء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذى لم يفعل لم يأت بما يغير العلم بل هو قادر على فعل لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع ، لا أنه لا يقع .

وإذا قيل فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع ، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم .

قيل ليس الأمر كذلك بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلى وقوعه ، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو فرض محال ، وذلك بمنزلة من يقول أفرض وقوعه مع عدم وقوعه وهو جمع النقيضين .

فان قيل فاذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالا لم يكن مقدوراً .

قيل لفظ المحال مجمل ، وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه فى نفسه بل هو ممكن مقدور مستطاع ، ولكن إذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع وإذا لم يقع كان عالما بأنه لا يقع ، فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدونه لازمه ، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هى محال مما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شىء لا الرب ولا الخلق فان الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه ، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله ، فكذلك ماقدره من أفعال عباده والله تعالى أعلم .

قوله (وذلك من عقد الايمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى فى كتابه (وخلق كل شىء فقدره تقديرا) وقال تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) .

ش : الاشارة إلى ماتقدم من الايمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها قال «ص» فى جواب السائل عن الايمان «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره» وقال صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث «ياعمر أتدرى من السائل ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال فانه جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم» رواه مسلم .

وقوله « والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته » أى لايتم التوحيد والاعتراف بالربوبية إلا بالايمان بصفاته تعالى ، فان من زعم خالقا غير الله فقد أشرك » ، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله . ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الامة . وأحاديثهم فى السنن وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « القدرية مجوس هذه الأمه إن مرضوا فلاتعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » وروى أبو داود أيضا عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لاقدر من مات منهم فلاتشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلاتعودوهم . وهم شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » .

وروى أبو داود أيضاً عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم . وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من بنى آدم ليس لهم فى الاسلام نصيب : المرجئة والقدرية لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وإنما يصح الموقوف منها . فمن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده . وهذا لأن الايمان بالقدر يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذى لايحاط به وكتابة مقادير الخلائق .

وقد ضل فى هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك فان ذلك كله مما يدخل فى التكذيب بالقدر وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذى يكذب به القدرية جملة حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد فأخرجوها عن قدرته وخلقه .

والقول الذى لاريب فى دلالة الكتاب والسنة والاجماع عليه . وإن الذى جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع هو ما قدره الله من مقادير العباد وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمـــة فى ذم القدرية يعنى به هؤلاء كقول

ابن عمر لما قيل له يزعمون أن لاقدر وإن الأمر أنف : أخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منى براء .

والقدر الذى هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولا عظيمة (أحدها) أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها فيثبت علمه القديم ، وفى ذلك الرد على من ينكر علمه القديم (الثانى) أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ومقاديرها هى صفاتها المعينة المختصة بها فان الله قد جعل لكل شىء قدر قال تعالى (وخلق كل شىء فقدره تقديرا) فالخلق يتضمن التقدير ، تقدير الشىء فى نفسه بأن يجعل له قدراً ، وتقديره قبل وجوده ، فاذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذى يخصه فى كميته وكيفيته كان ذلك أبلغ فى العلم بالأمور الجزئية المعينة ، خلافاً أنكر ذلك وقال أنه يعلم الكليات دون الجزئيات فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات .

(الثالث) أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارا مفصلا : فيقتضى أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلا ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم ، فانه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو (الرابع) أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله ، محدث له بمشيئته وإرادته ليس لازماً لذاته (الخامس) أنه يدل على حدوث هذا المقدور ، وإنه كان بعد أن لم يكن ، فانه يقدره ثم يخلقه :

قوله (فويل لمن صار قلبه فى القدر قلبا سقيما ، لقد التمس وهمه فى فحص الغيب سراً كتيما وعاد بما قال فيه أفاكا أثيما) .

ش : اعلم أن القلب له حياة وموت ومرض وشفاء . وذلك أعظم مما للبدن ، قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) أى كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالايمان ، فالقلب الصحيح الحى إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت ، فانه لايفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر)

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان كما تقدم مرض شهوة ومرض شبهة وأردأها مرض الشبهة ، وأردأ الشبهه ما كان من أمر القدر ، وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها ؛ بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة ، فان القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته . وما لجرح بميت إيلام .

وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء ، فان دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك أصعب شيء على النفس ، وليس له أنفع منه ، وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره ، وكمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن وهو يعلم انه ان صبر عليه أنقضى الخوف وأعقبه الأمن ، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يحتمل مشقتها ولاسيما إن عدم الرفق واستوحش من الوحدة وجعل يقول أين ذهب الناس فلى أسوة بهم ، وهذه حال أكثر الخلق ، وهى التى أهلكتهم ، فالصبر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وما أحسن ما قال ابن محمد عبد الرحمن بن اسمعيل المعروف بأبى شامة فى كتاب الحوادث والبدع : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيراً ، لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم . وعن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : السنة والذى لا إله إلا هو بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فان أهل

السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى ، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف فى أترافهم ولا مع أهل البدع فى بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك فكونوا .

وعلامة مريض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة ، وعدوله عن دوائه النافع الى دوائه الضار ، فهنا أربعة أشياء : غذاء نافع ودواء شاف وغذاء ضار ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافى على الضار المؤذى ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلب الشفاء فى غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين ، وأضل الضالين ، فان الله تعالى يقول (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر . وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وقال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً و (من) فى قوله من القرآن لبيان الجنس لا للتبعيض .

وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى رحمة للمؤمنين) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة وماكل أحد يؤهل للاستشفاء به ، واذا أحسن العليل التداوى به ووضعه على دائه بصدق وايمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه ، لم يقاوم الداء أبداً ، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذى لو نزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها ، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان الا وفى القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه ، والحمية منه لمن رزقه الله فهماً فى كتابه .

وقوله لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سرا كتيما أى طلب بوهمه فى البحث عن الغيب سرا مكتوماً اذ القدر سر الله فى خلقه فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب وقد قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من

رسول (إلى آخر السورة ، وقوله . وغاد بما قال فيه أى فى القدر أفاكا كذاباً أثيما أى مأثوماً .

قوله (والعرش والكرسى حق) .

ش : كما بين فى كتابه قال تعالى (ذو العرش المجيد فعال لما يريد — رفيع الدرجات ذو العرش — ثم استوى على العرش) فى غير ما آية من القرآن (الرحمن على العرش استوى — لا إله إلا هو رب العرش الكريم — الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم — الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ويستغفرون للذين آمنوا — ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية — وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) .

وفى دعاء الكرب المروى فى الصحيح « لا إله إلا العظيم الحليم ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم» وروى الإمام أحمد فى حديث الأوعال عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون كم بين السماء والأرض» قال قلنا الله ورسوله أعلم . قال (بينما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .

وروى أبو داود وغيره بسنده إلى رسول الله (ص) من حديث الأطيط أنه (ص) قال (إن عرشه على سمواته كهكذا وقال بأصابعه مثل القبة) الحديث ، وفى صحيح البخارى عن رسول الله (ص) أنه قال (إذا سألتم الله الجنة فاسئلوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) يروى وفوقه بالنصب على الظرفية وبالرفع على الابتداء أى وسقفه .

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع ، وهذا ليس بصحيح لأنه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة كما قال صلى الله عليه وسلم) فان الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمه من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبل أم جوزى بصعقة الطور) والعرش فى اللغة عبارة عن السرير الذى للملك كما قال تعالى عن بلقيس (ولها عرش عظيم) وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك . والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات ، فمن شعر أمية بن أبى الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرآ
بالبناء العالى الذى بهر النا س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله بصر العين ترى حوله الملائك صورا

الصور هنا جمع أصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو ، والشرجع هو العالى المنيف والسرير هو العرش فى اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الذى عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعـــد الله حق وإن النار مثوى الكافرين
وإن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شـــداد ملائـــكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة . وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكه الله عز وجل من حملة العرش أن مابين أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) ورواه ابن أبى حاتم ولفظه تخفق الطير سبعمائة عام .

وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنع بقوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقوله (وكان عرشه على الماء)

أيقول ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ، وكان ملكه على الماء ، ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك ، هل يقول هذا عاقل يدرى مايقول ؟

وأما الكرسى فقال تعالى . (وسع كرسيه السموات والأرض) وقد قيل هو العرش والصحيح أنه غيره نقل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره روى ابن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش والحاكم فى مستدركه وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) أنه قال « الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر قدره إلا الله تعالى » وقد روى مرفوعا ، والصواب ، أنه موقوف على ابن عباس ، وقال السدى (السموات والأرض فى جوف الكرسى بين يدى العرش) .

وقال ابن جرير قال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض) وقيل كرسيه علمه ، وينسب إلى ابن عباس ، والمحفوظ عنه مارواه ابن أبى شيبة كما تقدم ، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن . والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم كما قيل فى العرش . وإنما هو كما قال غيره واحد من السلف بين يدى العرش كالمرقاة اليه .

قوله (وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شىء وفوقه وقد أعجز عن الإحاطة خلقه) .

ش : أما قوله وهو مستغن عن العرش وما دونه فقال تعالى (إن الله لغنى عن العالمين) وقال تعالى (والله هو الغنى الحميد) وانما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا لأنه لما ذكر العرش والكرسى . ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس حاجته اليه بل له فى ذلك حكمة اقتضته . وكون العالى فوقا السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالى . محيطا به حاملا له . ولا أن يكون الأعلى مفتقرآ اليه .

فانظر إلى السماء كيف هى فوق الأرض وليست هى مفتقرة اليها . فالرب

تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك ، بل لوازم علوه من خصائصه وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل ، وغناه هو سبحانه على السافل وإحاطته عز وجل به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته العرش وحملته وغناه عن العرش وفقر العرش إليه ، وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره العرش وعدم حصر العرش له ، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل ، والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا إلى النبي (ص) .

وأما قوله : محيط بكل شيء وفوقه وفي بعض النسخ محيط بكل شيء فوقه بحذف الواو من قوله فوقه ، والنسخة الأولى هي الصحيحة ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء . ومعنى الثانية أنه محيط بكل شيء فوق العرش ، وهذا والله أعلم إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد وانكاراً لصفة الفوقية . وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات فلا يبقى لقوله محيط بمعنى محيط : بكل شيء فوق العرش والحالة هذه معنى ، إذ ليس فوق العرش من المخلوقات مايحاط به فتعين ثبوت الواو ، ويكون المعنى أنه سبحانه محيط بكل شيء وفوق كل شيء .

أما كونه محيطا بكل شيء فقال تعالى (والله من ورائهم محيط — ألا أنه بكل شيء محيط — ولله مافي السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) .

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما المراد إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

ما السموات والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم .

ومن المعلوم ولله المثل الأعلى أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها ، وإن شاء جعلها تحته ، وهو فى الحالين مباين لها عال عليها فوقها من جميع الوجوه ، فكيف بالعظيم الذى لا يحيط بعظمته وصف واصف ، فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة فانه لا يتجدد به إذا ذاك قدرة ليس عليها الآن ، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته أو يدنى إليه من يشاء من خلقه ، فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره .

وفى حديث أبى رزين المشهور الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤية الرب تعالى فقال له أبو رزين كيف يسعنا يارسول الله وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به والله أكبر من ذلك ، وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شىء فهذا يزيل كل إشكال ويبطل كل خيال .

وأما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى (وهو القاهرُ فوق عباده ـــ يخافون ربهم من فوقهم) وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث الأوعال المتقدم ذكره (والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك كله) وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وأقره على ما قال وضحك منه ، وكذا أنشده حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه قوله .

شهدت باذن الله أن محمـــدا	رسول الذى فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما	له عمـــل من ربه متقبل
وأن الذى عادى اليهود ابن مريم	رسول أتى من عند ذى العرش مرسل
وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهم	يجاهد فى ذات الإله ويعدل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم (وأنا أشهد) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده

فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » وفي رواية (تغلب غضبي) ، رواه البخاري وغيره .

وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه قال « بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا اليه رءوسهم . فاذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى (سلام قولاً من رب رحيم) فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون » .

وروى مسلم عن النبي (ص) في تفسير قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) بقوله أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، والمراد بالظهور هنا العلو ، ومنه قوله تعالى (فما استطاعوا أن يظهروه) أي يعلوه ، فهذه الاسماء الاربعة متقابلة (اسمان) منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته (واسمان) لعلوه وقربه ،

وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال أتى رسول الله (ص) أعرابي فقال يارسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال . ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، فقال رسول (ص) — ويحك أتدرى ما الله ؟ وسبح رسول الله (ص) فمازال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدرى ما الله ، إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته ، وقال بأصابعه مثل القبة عليه إنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب .

وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم — لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات — وهو حديث صحيح أخرجه الأموى في مغازيه وأصله في الصحيحين ، وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها أنها كانت تفخر على

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وتقول زوجكن أهاليكن وزوجني ، الله من فوق سبع سموات ، وعن عمر رضي الله عنه أنه مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها ، فقال رجل يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه العجوز ، فقال ويلك أتدرى من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التي أنزل الله فيها (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) أخرجه الدارمي . ورواه عكرمة عن ابن عباس في قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) قال ولم يستطع أن يقول من فوقهم ، لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم .

ومن سمع أحاديث الرسول «ص» وكلام السلف وجد منه في إثبات الفوقيه ما ينحصر .

ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك فانه الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده ، وضد الفوقية السفول ، وهو مذموم على الإطلاق لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده .

(فان قيل) لانسلم أنه قابل الفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها (قيل) لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم ، وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعا ، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو إما داخل العالم وإما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ما هو أجل وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب ، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح وأبين .

وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصا

ولايوجد محذوراً ، ولا يخالف كتابا ولاسنة ولا اجماعا ، فنفى حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذى تأتى به شريعة أصلا . فكيف إذا كان لايمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده التى تقرب من عشرين نوعا :

(أحدها) التصريح بالفوقية مقرونا بأداة من المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) (الثانى) ذكرها مجردة الأداة كقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) (الثالث) التصريح بالعروج نحو (تعرج الملائكة والروح اليه) وقوله (ص) يعرج الذين باتو فيكم فيسألهم) (الرابع) التصريح بالصعود اليه كقوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب) (الخامس) التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه كقوله تعالى (بل رفعه الله إليه) وقوله (إنى متوفيك ورافعك إلى) (السادس) التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وشرفا كقوله تعالى (وهو العلى العظيم — وهو العلى الكبير — إنه على حكيم) ،

(السابع) التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم — تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم — تنزيل من الرحمن الرحيم تنزيل من حكيم حميد — قل نزله روح القدس من ربك بالحق حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركه انا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين) (الثامن) التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وان بعضها أقرب اليه من بعض كقوله (ان الذين عند ربك ـ وله من فى السموات والأرض ومن عنده) ففرق بين من له عموما وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصا وقول النبى (ص) فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى عن نفسه أنه عنده فوق العرش .

(التاسع) التصريح بأنه تعالى فى السماء وهذا عند المفسرين من أهل السنة

على أحد وجهين : إنما أن يكون (فى) بمعنى على ؛ وإما أن يراد بالسما العلو . لا يختلفون فى ذلك ولا يجوز الحمل على غيره (العاشر) التصريح بالاستواء مقرونا بأداة (على) مختص بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات مصاحباً فى الأكثر لأداة (ثم) الدلاله على الترتيب والمهلة .

(الحادى عشر) التصريح برفع الأيدى إلى الله تعالى كقوله (ص) « إن الله يستحى من عبده إذا رفع اليه يديه أن يردهما صفرا » والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع كما يأتى إن شاء الله تعالى (الثانى عشر) التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

(الثالث عشر) الإشارة اليه حسا الى العلو كما أشار اليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر ولما كان بالمجمع الأعظم الذى لم يجمع لأحد مثله فى اليوم الأعظم فى المكان الأعظم، قال لهم « أنتم مسئولون عنى فماذا أنتم قائلون » قالوا نشهدك أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع أصبعه الكريمة الى السماء رافعاً لها الى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا — اللهم اشهد[1] — فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهى مرفوعة الى الله ، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه اليه اللهم اشهد ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر ونصح أمته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وايضاحه الى تنطع المتنطعين ، وحذلقة المتحذلقين ، والحمد لله رب العالمين .

(الرابع عشر) التصريح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه . أين الله . فى غير موضع

(الخامس عشر) شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال ان ربه فى السماء لطلع الى اله موسى فيكذبه فيما أخبره عن أنه سبحانه فوق السموات فقال (يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وانى لأظنه

(١) يشير الى ما فعله (ص) فى خطبة حجة الوداع .

كاذباً) فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعونى ومن أثبته فهو موسوى محمدى .

(السابع عشر) إخباره صلى الله عليه وسلم أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار (الثامن عشر) النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة ، وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، فلا يرونه إلا من فوقهم كما قال صلى الله عليه وسلم « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال ياأهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم» رواه الإمام أحمد فى المسند وغيره من حديث جابر رضى الله عنه ، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية . لهذا طرد الجهمية الشقين ، وصدق أهل السنة بالأمرين معا وأقروا بهما ، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل ، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك .

وكلام السلف فى إثبات صفة العلو كثير جدا ، فمنه ماروى شيخ الإسلام أبو اسمعيل الأنصارى فى كتابه الفزوزق بسنده إلى مطيع البلخى أنه سأل أبا حنيفة عمن قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض فقال قد كفر ، لأن الله يقول (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سبع سمواته ، قلت فإن قال إنه على العرش ولكن يقول لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض . قال هو كافر لأنه أنكر أنه فى السماء ، فمن أنكر أنه فى السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله فى أعلى عليين وهو يدعى منه أعلى لا من أسفل انتهى .

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبى حنيفة فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له فى كثير من اعتقاداته . وقد ينتسب إلى مالك والشافعى وأحمد من يخالفهم فى بعض اعتقاداتهم ، وقصة أبى يوسف

فى استتابة بشر المريسى لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة ، رواها عبدالرحمن بن أبى حاتم وغيره ،

ومن تأول (فوق) أنه (خير) من عباده وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش وأفضل منه كما يقال الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم ، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة فان قول القائل ابتداء : الله خير من عباده وخير من عرشه، من جنس قوله: الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ، والجبال أثقل من الحصا ، ورسول الله أفضل من اليهود ، والسماء فوق الأرض ، وليس فى ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح ، بل هو أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه ، فكيف يليق بكلام الله الذى لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، بل فى ذلك تنقص . كما قيل فى المثل السائر :

ألم تر السيف ينقص قدره   اذا قيل أن السيف أمضى من العصى .

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك ، لضحك منه العقلاء للتفاوت الذى بينهما ، فان التفاوت الذى بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما اذا كان يقتضى ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما فى قول يوسف (الصديق عليه السلام) أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وقوله تعالى (الله خير أما يشركون — والله خير وأبقى) .

وانما يثبت هذا المعنى من الفوقية فى ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه وتعالى فوقية القهر ، وفوقية القدر ، وفوقية الذات ، ومن ثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه ، فان قالوا بل علو المكانة لا المكان ، فالمكانة تأنيث المكان . والمنزلة تأنيث المنزل ، فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل فى بالأمكنة الجسمانية ، فاذا قيل : لك فى قلوبنا منزلة ، ومنزلة فلان فى قلوبنا وفى نفوسنا أعظم من منزلة فلان كما جاء

فى الأثر : « اذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه فان الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه » .

فقوله : منزلة الله فى قلبه هو ما يكون فى قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك فاذا عرف أن المكانة والمنزلة تأنيث المكان والمنزل ، والمؤنث فرع على المذكر فى اللفظ والمعنى وتابع له ، فعلو المثل الذى يكون فى الذهن يتبع علو الحقيقة إذا كان مطابقا كان حقاً وإلا كان باطلا .

فان قيل المراد علوه فى القلوب وأنه أعلى فى القلوب من كل شيء ، قيل : وكذلك هو ، وهذا العلو مطابق لعلوه فى نفسه على كل شيء . فان لم يكن عاليا بنفسة على كل شيء كان علوه فى القلوب غير مطابق ، كمن جعل ماليس بأعلى أعلى

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة ، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه (أحدها) العلم البديهى القاطع بأن كل موجودين : إما أن يكون أحدهما ساريا فى الآخر قائما به كالصفات . وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر (الثانى) أنه لما خلق العالم فأما أن يكون خلقه فى ذاته أو خارجا عن ذاته والأول باطل . أما أولا فبالاتفاق وأما ثانيا فلأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والثانى يقتضى كون العالم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلا فتعينت المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول (الثالث) أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضى نفى وجوده بالكلية لأنه غير معقول ، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه . والأول باطل فتعين الثانى فلزمت المباينه .

وأما ثبوته بالفطرة فان الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى . وذكر محمد بن طاهر المقدسى أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مجلس الأستاذ أبى المعالى الجوينى المعروف بامام الحرمين وهو يتكلم فى نفى صفة العلو ويقول كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ، فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا فانه ما قال عارف قط يا الله

إلا وجد فى قلبه ضرورة طلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا قال فلطم أبو المعالى على رأسه ونزل ، وأظنه قال وبكى وقال: حيرنى الهمدانى حيرنى .

أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين يجدون فى قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه فى العلو .

وقد اعترض على الدليل العقلى بانكار بداهته لأنه أنكره جمهور العقلاء فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية . والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط فى موضعه ، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة وهو أن يقال :

إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم رداً ، فان كان قولنا باطلا فى العقل فقولكم أبطل ، وإن كان قولكم حقا مقبولا فى العقل فقولنا أولى أن يكون مقبولا فى العقل ، فان دعوى الضرورة مشتركة ، فانا نقول نعلم بالضرورة بطلان قولكم وأنتم تقولون كذلك ، فاذا قلتم تلك الضرورة التى تحكم ببطلان قولنا هى من حكم الوهم لا من حكم العقل قابلناكم بنظير قولكم ، وعامة فطر الناس ليسوا منكم ولا منا موافقون لنا على هذا ، فان كان حكم فطر بنى آدم مقبولا ترجحنا عليكم ، وإن كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية . فانكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية ، وبطلت عقلياتنا أيضا ، وكان السمع الذى جاءت به الأنبياء معنا لا معكم فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم .

فان قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا ، قيل : ليس الأمر كذلك ، فان الذين يصرحون بأن صانع العالم شىء موجود ليس هو فوق العالم ، وأنه لا مباين للعالم ولا حال فى العالم طائفة من النظار ، وأول من عرف عنه ذلك فى الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه .

واعترض على الدليل الفطرى أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس فى جهة الأرض .

وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه (أحدها) أن قولكم أن السماء قبلة الدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان . وهذا من الامور الشرعية الدينية فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها (الثانى) أن قبلة الدعاء هى قبله الصلاة فانه يستحب للداعى أن يستقبل القبلة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة فى دعائه فى مواطن كثيرة ، فمن قال إن للدعاء قبلة غير الصلاة أو أن له قبلتين : إحداهما الكعبة ، والأخرى السماء ، فقد ابتدع فى الدين وخالف جماعة المسلمين .

(الثالث) أن القبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة فى الصلاة والدعاء والذكر والذبح ، وكما يوجه المحتضر والمدفون . ولذلك سميت وجهة والاستقبال خلاف الاستدبار ، فالاستقبال بالوجـــه والاستدبار بالدبر ، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازا فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعى وجهه اليها ، وهذا لم يشرع ، والموضع الذى ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازا ، ولأن القبلة فى الدعاء أمر شرعى تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرسل أن الداعى يستقبل السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك .

ومعلوم أن التوحيد بالقلب واللجأ والطلب الذى يجده الداعي من نفسه أمر فطرى يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل ، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله . مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة ، وأمر التوحيد فى الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز فى الفطر ، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعى فانه يتوجه إلى ربه وخالقه ، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده .

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فان واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه ، إذ هو تحته هذا لا يخطر في قلب ساجد ، لكن يحكى عن بشر المريسى أنه سمع وهو يقول فى سجوده :

سبحان ربي الأسفل ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، وإن كان من أفضى به النفي إلى هذه الحال حرى أن يتزندق إن لم يتداركه الله برحمته ، وبعيد من مثله الصلاح قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان نسأل الله العفو والعافية .

وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خلقه أى لايحيطون به علماً ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه محيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء .

قوله . (ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما إيمانا وتصديقاً وتسليما) .

ش : قال الله تعالى (واتخذ الله ابراهيم خليلا) وقال تعالى (وكلم الله موسى تكليما) الخلة كمال المحبة ، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعماً منهم أن المحبة لاتكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة . وكذلك أنكروا حقيقة التكليم كما تقدم ، وكان أول من ابتدع هذا فى الإسلام هو الجعد بن درهم فى أوائل المائة الثانية ، فضحى به خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق والمشرق بواسطة خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس . ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم الناس تكليما ، ثم نزل فذبحه وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضى الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً .

وأخذ هذا المذهب عن الجعد : الجهم بن صفوان فأظهره وناظره عليه وإليه أضيف قول الجهمية فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم فى أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك . وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون أن يكون ابراهيم خليلا ، وموسى كليما .

لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني   ولذا سمي الخليل خليلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي «ص» قال «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه ، وفي رواية « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » وفي رواية « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » فبين «ص» أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا، وأنه لو أمكن لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق : مع أنه «ص» قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كقوله لمعاذ والله إني لأحبك ، وكذلك قوله للأنصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله «ص» وابنه أسامة حبه . وأمثال ذلك .

وقال له عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك ؟ قال عائشة ، قال فمن الرجال ؟ قال أبوها ، فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوبا لذاته لا لشيء آخر . إذ المحبوب لغيره وهو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة لتخللها المحبة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب .

ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلا وكان إبراهيم قـــد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحا فوهب له إسماعيل . فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه ، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره فامتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده ، فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله ، وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته ، نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم ، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر ، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح مفسدة ، فنسخ في حقه وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في إتباعه إلى يوم القيامـــة .

وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك فى حديث الإسراء .

وهنا سؤال مشهور وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم صلى الله عليه وسلم فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم ، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه ، وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين .

وقد أجاب عنه العماء بأجوبة عديدة يضيق هذا المكان عن بسطها ، وأحسنها أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس فى آل محمد مثلهم ، فاذا طلب النبى صلى الله عليه وسلم ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء ، حصل لآل محمد ما يليق بهم لا يبلغون مراتب الأنبياء وتبقى الزيادة التى للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وسلم فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره .

وأحسن من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم ، بل هو أفضل آل ابراهيم ، فيكون قولنا كما صليت على آل ابراهيم متناولا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم .

ولما كان بيت ابراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الاطلاق خصهم الله بخصائص (منها) أنه جعل فيه النبوة والكتاب . فلم يأت بعد إبراهيم نبى إلا من أهل بيته (ومنها) أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فانما دخل من طريقهم وبدعوتهم (ومنها) أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين كما تقدم ذكره (ومنها) أنه جعل صاحب هذا البيت إماما للناس . قال تعالى (إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى . قال لا ينال عهدى الظالمين) (ومنها) أنه أجرى على يديه بناء بيته الذى جعله قياما للناس ومثابة للناس وأمنا وجعله قبلة لهم وحجا فكان ظهور هذا البيت فى الأكرمين ومنها أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت إلى ذلك من الخصائص .

قوله (ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ، ونشهد أنهم كانوا على حق المبين) .

ش. هذه الأمور من أركان الإيمان قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) الآيات وقال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) الآية فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة ، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة لقوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته حديث جبرائيل وسؤاله للنبي (ص) عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل .

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء فان من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر ، فان مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة ، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها ، وكل موجود في الخارج فهو جزئي ، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته ، وإنما العالم عندهم لازم له أزلا وأبدا ، وإن سموه مفعولا له فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه ، وينفون عنه سمعه وسائر صفاته ، فهذا إيمانهم بالله .

وأما كتبه عندهم فانهم لا يصفونه بالكلام ، فلا يكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ، والقرآن عندهم فيض فياض من العقل الفعال على قلب بشر زاك النفس ، طاهر متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص . قوة الادراك وسرعته لينا من العلم أعظم مما يناله غيره وقوة النفس ليؤثر بها في هيولي العلم ، يقلب

صورة إلى صورة وقوة التخييل ليخيل بها القوى العقلية فى أشكال محسوسة وهى الملائكة عندهم ، وليس فى الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجىء وترى وتخاطب الرسول ، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لاوجود لها فى الأعيان ،

وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيبا وانكارا له فى الأعيان ، وعندهم أن هذا العالم لا يخرب ولا تنشق السموات ولا تنفطر ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر ، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى الجنة ونار كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام لاحقيقة لها فى الخارج ، كما يفهم منها اتباع الرسل . فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وهذه هى أصول الدين الخمسة ، وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التى هدموا بها كثيرا من الدين ، فانهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذى هو الموصوف والوصفة عندهم ، واحتجوا بالصفات التى هى الأعراض على حدوث الموصوف الذى هو الجسم ، وتكلموا فى التوحيد على هذا الأصل فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة فى الموصوفات الى هى الأجسام ثم تكلموا بعد ذلك فى افعاله التى هى القدر ، وسموا ذلك العدل ، ثم تكلموا فى النبوة والشرائع والأمر والنهى والوعد والوعيد ، وهى مسائل الأسماء والأحكام التى هى المنزلة بين المنزلتين ، ومسئلة انفاذ الوعيد ، ثم تكلموا فى إلزام الغير بذلك هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال ، فهذه اصولهم الخمسة التى وضعوها بإزاء اصول الدين الخمسة التى بعث بها الرسل .

والرافضة المتأخرون جعلوا الأصول أربعة : التوحيد ؛ والعدل . والنبوة . والإمامة .

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول . وأصل الدين الإيمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك ، ولهذا كانت الآيتان من آخر

سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو عن النبي (ص) قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « بينا جبرائيل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال « أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته » .

وقال أبو طالب المكي أركان الإيمان سبعة ، يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر والإيمان بالجنه والنار ، وهذا حق ، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية ، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة .

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى (فالمدبرات أمرا - فالمقسمات أمرا) وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل ، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة .

ووكل بالسحاب والمطر ملائكته وكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ مايعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة ووكل بالسؤال في القبر ملائكة . ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ، ووكل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة فالملائكة أعظم جنود الله ومنهم المرسلات عرفا والناشرات نشرا والفارقات فرقا والملقيات ذكرا ، ومنهم النازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا ، ومنهم: الصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ، ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة ، ومنهم

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس ، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله .

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسليه ، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر لله الواحد القهار وهم ينفذون أمره (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون — يعلم مابين أيديهم وما خلفهم — ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون — يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) .

فهم عباد مكرمون ، منهم الصافون ومنهم المسبحون ، ليس منهم إلا له مقام معلوم ، ولا يتخطاه وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأعلاهم الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ،

ومنهم : الأملاك الثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، والموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم ، فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده ، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم ويصعدون اليه بالأمر ، قد أطت السموات بهم وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله ، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون اليه آخر ماعليهم .

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم ، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم اليه في مواضع التشريف ، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ومراتبهم من الدنو ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص قال تعالى (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله — شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم —

هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور — الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ويستغفرون للذين آمنوا — وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم — بل عباده مكرمون — إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . كراما كاتبين — كرام بررة — يشهد المقربون لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم . فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التى هى أركان الإيمان .

وقد تكلم الناس فى المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر . وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحى الرسل والأنبياء فقط على الملائكة . وإلى المعتزله تفضيل الملائكة . وأتبــاع الأشعرى على قولين . منهم من يفضل الأنبياء والأولياء . ومنهم من يقف ولا يقطع فى ذلك قولا . وحكى عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة . وحكى ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية . وقالت الشيعة : أن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة . ومن الناس من فصل آخر ، ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر أن الملائكة . أفضل من بعض الأنبياء دون بعض ، وكنت ترددت فى الــكلام على هذه المسئلة لقلة ثمرتها . وأنها قريب مما لا يعنى « ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

والشيخ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسئلة بنفى ولا إثبات . ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصدا . فان الإمام أبا حنيفة رحمه الله وقف فى الجواب عنها على ما ذكره فى « مآل الفتاوى (١) » فانه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب . وعد منها التفضيل بين الملائكة والأنبياء وهذا هو الحق فان الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين ، وليس علينا أن نعتقد أى الفريقين أفضل ، فان هذا لو كان من الواجبات لبين لنا نصاً . وقد قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وما كان ربك نسيا) .

---

(١) كتاب للامام ناصر الدين السمرقندى .

وفى الصحيح « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » فالسكوت عن الكلام فى هذه المسئلة نفيا وإثباتاً والحالة هذه أولى

ولا يقال أن هذه المسئلة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة، لأن الأدلة هنا متكافئة على ما أشير إليه إن شاء الله تعالى، وحملى على بسط الكلام هنا أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم : كان الملك خادماً للنبى صلى الله عليه وسلم أو أن بعض الملائكة خدام بنى آدم ، يعنون الملائكة الموكلين بالبشر ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع ، المجانبة الأدب والتفضيل إذا كان على وجه التنقيص أو الحمية والعصبية للجنس لاشك فى رده وليس هذه المسئلة نظير المفاضلة بين الأنبياء فان تلك قد وجد فيها نص وهو قوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية وقوله تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قول الشيخ - وسيد المرسلين — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم والمعتبر رجحان الدليل ، ولا يهجر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه بعد أن تكون المسألة مختلفاً فيها بين أهل السنة ، وقد كان أبو حنيفة يقول أولا بتفضيل الملائكة على البشر ، ثم قال بعكسه . والظاهر أن القول بالتوقيف أحد أقواله .

والأدلة فى هذه المسئلة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية ولا نزاع فى ذلك ، وللشيخ تاج الدين الفزارى رحمه الله ، مصنف سماه (الإشارة البشارة) فى تفضيل البشر على الملك ، وقال فى آخره :

اعلم أن المسئلة من بدع علم الكلام التى لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة ، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد ، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن ، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان ، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب انتهى والله الموفق للصواب .

فما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وذلك دليل على تفضيله عليهم . ولذلك امتنع ابليس واستكبر وقال (أرأيتك الذى كرمت على)

قال الآخرون إن سجود الملائكة كان امتثالا لأمر ربهم وعبادة وانقياداً وطاعة له وتكريما لآدم وتعظيما . ولا يلزم من ذلك الأفضلية ، كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام تفضيل ابنه عليه ، ولا تفضيل الكعبة على بنى آدم بسجودهم اليها امتثالا لأمر ربهم .

وأما امتناع إبليس فانه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه . وهذه المقدمة الصغرى . والكبرى محذوفة تقديرها والفاضل لايسجد للمفضول وكلتا المقدمتين فاسدة ، وأما الأولى فان التراب يفوق النار فى أكثر صفاته ولهذا خان إبليس عنصره فأبى واستكبر ، فان من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة . وإفساد ما تصل إليه وحرقه وإهلاكه وإحراقه ، ونفع آدم عنصره فى التوبة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب المغفرة ، فان من صفات التراب الثبات والسكوت والرصانة والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل ، وما دنا منه ينبت ويزكو وينمي ويبارك فيه ضد النار .

وأما المقدمة الثانية وهى أن الفاضل لايسجد للمفضول فبطالة فان السجود طاعة الله وامتثال لأمره ، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة ، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه ، وإنما يدل على فضله .

قالوا وقد يكون قوله (هذا الذى كرمت على) بعد طرده لامتناعه عن السجود له لا قبله فينتفى الاستدلال به .

ومنه أن الملائكة لهم عقول وليس لهم شهوات ، والأنبياء لهم عقول وشهوات ، فلما نهوا أنفسهم عن الهوى ومنعوها عما تميل إليه الطباع كانوا بذلك أفضل .

قال الاخرون يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها مابقى بتجنب الأنبياء شهواتهم مع طول مدة عبادة الملائكة ومنه أن الله تعالى جعل الملائكة رسلا الى الأنبياء وسفراء بينه وبينهم ، وهذا الكلام قد احتج به من قال إن الملائكة أفضل ، واستدلالهم به أقوى ، فان الأنبياء المرسلين إن ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فان الرسول الملكي يكون رسولا إلى الرسول البشرى ،

ومنه قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) الايات .

قال الاخرون هذا دليل على التفضيل ، وآدم والملائكة لايعلمون إلا ماعلمهم الله . وليس الخضر أفضل من موسى بكونه علم مالم يعلمه موسى . وقد سافر موسى وفتاه فى طلب العلم إلى الخضر وتزود لذلك وطلب موسى منه العلم صريحا . وقال له الخضر إنك على علم من علم الله إلى آخر كلامه . ولا الهدهد أفضل من سليمان بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان علما .

ومنه قوله تعالى (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) قال الاخرون هذا دليل الفضل لا الأفضلية وإلا لزم تفضيله على محمد (ص) فان قلتم هو من ذريته البر والفاجر ، بل يوم القيامة إذا قيل لادم : ابعث من ذريتك بعثا إلى النار ، يبعث من كل ألف تسعمائة و تسعة وتسعين إلى النار . وواحداً إلى الجنة . فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط ؟

ومنه قول عبدالله بن سلام رضى الله عنه ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد (ص) الحديث فالشأن فى ثبوته وإن صح عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة قالت ياربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون . ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الاخرة ، قال « لا أجعل ذرية من

خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان، أخرجه الطبرانى . وأخرجه عبدالله ابن أحمد بن محمد ابن حنبل عن عروة بن رويم أنه قال أخبرنى الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة قالوا الحديث وفيه « ويناموت ويستريحون، فقال الله تعالى « لا » فأعادوا القول ثلاث مرات كل ذلك يقول لا .

والشأن فى ثبوتهما ، فان فى سنديهما مقالا وفى متنهما شيئا ، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة[1] . وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم متشوقون إلى ما سواها من شهوات بنى آدم والنوم أخو الموت فكيف يغبطونهم به وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو وهو من الباطل .

قالوا بل الأمر بالعكس فان ابليس إنما وسوس إلى آدم ودلاه بغرور إذ أطمعه فى أن يكون ملكا بقوله (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر فى الفطرة يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند رؤية يوسف (وقلن حاشا ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم (وقال تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك) .

قال الأولون ان هذا انما كان لما هو مركوز فى النفس أن الملائكة خلق جميل عظيم مقتدر على الأفعال الهائلة خصوصاً العرب ، فان الملائكة كانوا فى نفوسهم من العظمة بحيث قالوا ان الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ومنه قوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ») ،

قال الآخرون قد يذكر العالمون ولا يقصد به العموم المطلق ، بل فى كل مكان بحسبه كما فى قوله تعالى (لتكون للعالمين نذيراً — أتأتون الذكران من

---

(١) الحديث ضعيف ، ولكن ما فيه ليس من الاعتراض بل هو سؤال لله فاذا لم يستجب رضوا ، ومثال ذلك آيات فى خلق آدم فى أول البقره ،

العالمين ولقد اخترناهم على علم على العالمين) .

ومنه قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) والبرية مشتقة من البر . بمعنى الخلق ، فثبت أن صالحى البشر خير الخلق .

قال الآخرين إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات والملائكة فى هذا الوصف أكمل فانهم لا يسأمون ولا يفترون ، فلا يلزم أن يكونوا خيراً من الملائكة ، هذا على قراءة من قرأ البريئة بالهمزة ، وعلى قراءة من قرأ بالياء إن قلنا إنها مخففة من الهمزة ، وإن قلنا أنها نسبة إلى البر وهو التراب كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهرى فى الصحاح يكون المعنى أنهم خير من خلق من التراب . فلا عموم فيها إذ الغير من خلق من التراب .

قال الأولون إنما تكلمنا فى تفضيل صالحى البشر إذا كملوا ووصلوا إلى غايتهم وأنهى نهايتهم . وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى . وحياهم الرحمن بمزيد قربه . وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم .

قال الاخرون الشأن فى أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها فان كان قد ثبت أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى وإلا فلا .

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر قوله تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه . لأنه لا يجوز أن يقال لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك ، ولا الشرطى أو الحرس ، وإنما يقال لن يستنكف الشرطى أن يكون خادما للملك ولا الوزير . ففى مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى . فاذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت فى حق غيره . إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض :

أجاب الآخرون بأجوبة أحسنها أو من أحسنها أنه لا نزاع فى فضل قوة الملك

وقدرته وشدته وعظم خلقه ، وفى العبودية خضوع وذل وانقياد عيسى عليه السلام لا استنكاف عنها ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خلقا ، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه .

ومنه قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) ومثل هـــذا يقال بمعنى انى لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلتى ولست ممن يدعى ذلك أجاب الآخرون بأن الكفار كانوا قـ قالوا (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) فأمر أن يقول لهم « إنى بشر مثلكم احتاج إلى ما يحتاج اليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب ، لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب ، فلا يلزم حينئذ الأفضليه المطلقه .

ومنه ماروى مسلم باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله «ص» ـ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ـ ومعلوم أن قوة البشر لاتدانى قوة الملك ولا تقاربها .

قال الآخرون : الظاهر أن المراد المؤمن من البشر والله أعلم فلا تدخل الملائكة فى هذا العموم .

وما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى «ص» أنه قال فيما يروى عن ربه عز وجل قال ـــ يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ـ الحديث وهذا نص فى الأفضلية .

قال الآخرون يحتمل أن يكون المراد خير منه المذكور لا الخيرة المطلقة .

ومنه مارواه إمام الأئمـــة محمد بن خزيمة بسنده فى كتاب التوحيد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ بينما أنا جالس إذ جاء جبرائيل فوكز بين كتفى فقمت إلى شجرة مثل وكرى الطير فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر . فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب بصرى ، ولو شئت أن أمس السماء مسست ، فنظرت إلى جبرائيل كأنه جلس

لاطىء فعرضت فضل علمه بالله على — الحديث .

قال الآخرون فى سنده مقال فلا نسلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته .

وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول ، وتوقف أبو حنيفة رحمه الله فى الجواب عنها كما تقدم والله أعلم بالصواب .

وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى فى كتابه من رسله والايمان بأن لله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء لايعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذى أرسلهم فعلينا الايمان بهم جملة لأنه لم يأت فى عددهم نص ، وقد قال تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك) وقال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وعلينا الايمان بأنهم بلغوا جميع ماأرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه بيانا لايسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ولايحل خلافه قال تعالى (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين — وإن تولوا فانما عليك البلاغ المبين — وأن تطيعوه تهتدوا — وما على الرسول إلا البلاغ المبين — وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين) .

وأما أولوا العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها مانقله البغوى وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم قال وهم المذكورون فى قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وفى قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه) .

وأما الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا .

وأما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها فى كتابه من التوراة والانجيل والزبور ، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك

كتبا أنزلها على أنبيائه لايعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى .

وأما الإيمان بالقرآن فالاقرار به واتباع ما فيه ، وذلك أمر زائد على الايمان بغيره من الكتب ، فعلينا الايمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا - إلى قوله وما أوتى النبيون من ربهم - آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم - الى قوله وأنزل الفرقان - آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه - أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لو جدوا فيه اختلافا كثيراً) الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها ، وأنها نزلت من عنده ، وفى ذلك اثبات صفة الكلام والعلو . وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق - وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق - يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين - قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وأمثال ذلك فى القرآن كثيره

(ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين) .

ش . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا ، ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى أن الاسلام والايمان واحد ، وأن المسلم لايخرج من الاسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله ، والمراد بقوله أهل قبلتنا من يدعى الاسلام ويستقبل الكعبة وان كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصى ، ما لم يكذب بشىء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وسيأتى الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، وعند قوله : الاسلام والايمان واحد وأهله فى أصله سواء .

قوله (ولا نخوض فى الله ولا نمارى فى دين الله) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم فإنهم يتكلمون فى الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وعن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال لاينبغى لأحد أن ينطق فى ذات الله بشىء ، بل يصفه بما وصف به نفسه ، وقال بعضهم الحق سبحانه يقول من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب ومن كشفت له حقيقة ذاتى ألزمته العطب ، فاختر الأدب أو العطب . ويشهد لهذا أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات . وقال السبكى الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب .

وقوله : ولا نمارى فى دين الله معناه لانخاصم أهل الحق بالقاء شبهات أهل الأهواء عليهم التماسا لامترائهم وميلهم لأنه فى معنى الدعاء إلى الباطل وتلبيس الحق وإفساد دين الإسلام .

قوله (ولا نجادل فى القرآن ؛ ونشهد أنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين) فعلمه سيد المرسلين محمـــداً صلى الله عليه وسلم وهو كلام الله تعالى لايساويه شىء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه ولانخالف جماعة المسلمين .

ش : فقوله ولانجادل فى القرآن يحتمل أنه أراد أنا لا نقول فيه كما قال أهـل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، بل نقول أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين ، إلى آخر كلامه ، ويحتمل أنه أراد أنا لا نجادل فى القراءة الثابتة بل نقرأه بكل ماثبت وصح ، وكل من المعنيين حق ، يشهد بصحة المعنى الثانى ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله «ص» يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فعرفت فى وجهه الكراهة وقال : « كلا كما محسن لاتختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » رواه البخارى .

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذى فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مـــع صاحبه من الحق ، لأن كلا القارئين كان محسنا فيما قرأه ، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا . ولهذا قال

حذيفة رضى الله عنه لعثمان رضى الله عنه أدرك هذه الأمة لاتختلف كما اختلفت الأمم قبلهم ، لجمع الناس على حرف واحد اجتماعا سائغا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلاله ، ولم يكن فى ذلك ترك لواجب ، ولا فعل لمحظور . إذ كان قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة رخصة من الله تعالى ، وقد جعل الاختيار اليهم فى أى حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصا ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثمانى وكذلك مصحف غيره .

وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية بخلاف السور ، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد جمعهم الصحابة عليه ، هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء . قال ابن جرير وغيره : منهم من يقول إن الترخص فى الأحرف السبعة كان فى أول الاسلام لما فى المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أرفق لهم ، أجمعوا على الحرف الذى كان فى العرضة الأخيرة .

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة . وقـــد اتفقوا على نقل المصحف العثمانى وترك ما سواه وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب وهو أن ذلك كان جائزاً لا واجباً أو أنه صار منسوخا . وأما من قال عن ابن مسعود أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة ، وإنما هو كقول أحدكم هلم وأقبل وتعال فاقرؤا كما علمتم أو كما قال :

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، فكيف بمناظرة أهل القبلة ، فان أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب ، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتى هى أحسن ، وليس إذا أخطأ يقال أنه كافر قبل أن تقام عليه الحجة التى حكم الرسول بكفر من تركها . والله تعالى قد عفا لهذه الامة عن الخطأ والنسيان .

ولهذا ذم السلف أهل الأهواء ، وذكروا أن آخر أمرهم السيف . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً .

وقوله : ونشهد أنه كلام رب العالمين ، قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا .

وقوله (نزل به الروح الأمين) هو جبرائيل عليه السلام سمى روحاً لأنه حامل الوحى الذى به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين وهو أمين حق أمين ، صلوات الله عليه ، قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقال تعالى (إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين) وهذا وصف جبرائيل بخلاف قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر) الآيات فان الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : فعلمه سيد المرسلين ، تصريح بتعليم جبرائيل إياه إبطالا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره فى نفسه إلهاماً .

وقوله : ولانقول بخلقه ولانخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فان سلف الأمة كلهم متفقون على أن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله (ولانخالف جماعة المسلمين) مجرى على إطلاقه أنا لانخالف جماعة المسلمين فى جميع ما اتفقوا عليه ، فان خلافهم زيغ وضلال وبدعة .

قوله (ولانكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، ولانقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) .

ش : أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم فى قوله ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين ، يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

وأعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق وتشتتت فيه الأهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم ، فالناس فيه جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذى بعث الله به رسوله فى نفس الأمر والمخالفة لذلك فى اعتقادهم ، على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف فى تكفير أهل الكبائر العملية .

فطائفة تقول لانكفر من أهل القبلة أحداً فتنفى التكفير نفياً عاما مع العلم بأن فى أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين . وأيضا فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً ، والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور كما ذكره الخلال فى كتاب السنة بسنده إلى محمد بن سيرين أنه قال إن أسرع الناس ردة أهـــل الأهواء ، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لانكفر أحداً بذنب ، بل يقال لانكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج ، وفرق بين النفى العام ونفى العموم ، والواجب إنما هو نفى العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب .

ولهذا والله أعلم قيده الشيخ رحمه الله بقوله : ما لم يستحله ، وفى قوله ما لم يستحله إشارة إلى أن مراده من هذا النفى العام لكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية ، وفيه إشكال فان الشارع لم يكتف من المكلف فى العمليات بمجرد العلم دون العلم ولا فى العمليات بمجرد العلم دون العمل ، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع إلا أن يضمن قوله « يستحله » بمعنى يعتقده أو نحو ذلك .

وقوله « ولا نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمل الخ كلامه ، رد على المرجئة فانهم يقولون لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فهؤلاء فى طرف ، والخوارج فى طرف ، فانهم يقولون يكفر المسلم بكل ذنب أو بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الإيمان ، لكن الخوارج يقولون يخرج من الإيمان ويدخل فى الكفر ، والمعتزلة يقولون يخرج من الايمان ولا يدخل فى الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين ، وبقولهم بخروجه من الايمان أوجبوا له الخلود فى النار .

وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك فى الأعمال لكن فى الاعتقادات البدعية وإن كان صاحبها متأولا فيقولون يكفر كل من قال هذا القول ، لا يفرقون بين المجتهد المخطىء وغيره أو يقولون يكفر كل مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم فى هذا الاثبات العام أمور عظيمة ، فان النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصوص الوعد التى يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التى يحتج بها أولئك ، والكلام فى الوعيد مبسوط فى موضعه . وسيأتى بعضه عند الكلام على قول الشيخ : وأهل الكبائر فى النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون » .

والمقصود هنا أن البدع هى من هذا الجنس ، فان الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً ولكن تأول تأويلا أخطأ فيه إما مجتهداً وإما مفرطا مذنباً ، فلا يقال أن إيمانه حبط لمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعى ، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة ولا نقول لا يكفر ، بل العدل هو الوسط وهو أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفى ما أثبته الرسول أو إثبات ما نفاه أو الامر بما نهى عنه أو النهى عما أمر به ، يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذى دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر ، ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك ، كما يذكر من الوعيد فى الظلم فى النفس والأموال ، وكما قد قال كثير

من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى فى الآخرة ، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها .

وعن أبى يوسف رحمه الله أنه قال : ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدة حتى اتفق رأيى ورأيه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر . وأما الشخص المعين اذا قبل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر ، فهذا لانشهد عليه الا بأمر تجوز معه الشهادة ، فانه من أعظم البغى أن يشهد على معين أن الله لايغفر له ولا يرحمه بل يخلده فى النار ، فان هذا حكم الكافر بعد الموت .

ولهذا ذكر أبو داود فى سننه فى كتاب : باب النهى عن البغى . وذكر فيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله (ص) يقول «كان رجلان فى بنى اسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول اقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له اقصر ، فقال خلنى وربى أبعثت على رقيبا ؛ فقال والله لايغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة ، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد أكنت بى عالما أو كنت على ما فى يدى قادراً ، وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتى . وقال للآخر اذهبوا به الى النار ، وقال أبو هريرة والذى نفسى بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته ،وهو حديث حسن .

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفوراً له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ماوراء ذلك من النصوص ويمكن أن يكون له ايمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله كما غفر للذى قال اذا مت فاستحقونى ثم ذرونى ثم غفر الله له لخشيته ، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه واعادته أو شك فى ذلك .

لكن هذا التوقف فى أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا لمنع بدعته وأن نستتيبه فان تاب وإلا قتلناه .

ثم إذا كان القول فى نفسه كفرا قيل أنه كفر ، والقائل له يكفر بشروط

وانتفاء موانع ، ولا يكون ذلك الا اذا صار منافقاً زنديقاً ، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام الا من يكون منافقاً زنديقا ، وكتاب الله يبين ذلك ، فان الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف : كفار من المشركين ومن أهل الكتاب وهم الذين لايقرون بالشهادة وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا وصنف أقروا به ظاهرا لا باطنا ، وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة فى أول سورة البقرة وكل من ثبت أنه كافر فى نفس الامر وكان مقراً بالشهادتين فانه لا يكون إلا زنديقاً ، والزنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلط الطرفين ، فانه من كفر كل من قال القول المبتدع فى الباطن يلزمه أن يكفر أقواما ليسوا فى الباطن منافقين ، بل هم فى الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبون ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أسلم مولى عمر رضى الله عنه عن عمر أن رجلا كان على عهد النبى (ص) كان اسمه عبدالله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله (ص) وكان رسول الله (ص) قد جلده فى الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال الرسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله . وهذا أمر متيقين به فى طوائف كثيرة وأئمة فى العلم والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية والمرجئة أو القدرية او الشيعة أو الخوارج ، ولكن الأئمة فى العلم والدين لايكونون قائمين بجملة تلك البدعه بل بفرع منها . ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير ، فمن عيوب أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون .

ولكن بقى هنا إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله وهو أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا قال الله (ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال صلى الله عليه وسلم — سباب المسلم فسوق وقتاله كفر — متفق عليه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وقال صلى الله عليه وسلم — لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها

أحدهما » متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد وقال صلى الله عليه وسلم « بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم ومن أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل عن محمد » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد كفر » رواه الحاكم بهذا اللفظ وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد كفر » رواه الحاكم بهذا اللفظ وقال صلى الله عليه وسلم «ثنتان فى أمتى هما بهم كفر : الطعن فى الانساب والنياحة على الميت » ونظائر ذلك كثيرة .

والجواب أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً على كل حال ولا يقبل عفو ولى القصاص ولا تجرى الحدود فى الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الاســـلام ومتفقون على أنه لا يخرج من الايمان الاسلام ولا يدخل فى الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة فان قولهم باطل أيضا اذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) الى أن قال (فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف) فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخا لولى القصاص والمراد أخوة الدين بلا ريب . وقال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الى أن قال (انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) .

ونصوص الكتاب والسنة والاجمـــاع تدل عن أن الزانى والسارق

والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد فدل على أنه ليس بمرتد ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى (ص) أنه قال « من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار إن كان له عمل صالح أخذ بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم القى فى النار » أخرجاه فى الصحيحين فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه .

وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى (ص) أنه قال « ماتعدون المفلس فيكم قالوا المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار قال المفلس من يأتى يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال فيأتى وقد شتم هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم وقد قال تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) فدل ذلك على أنه فى حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته . وهذا مبسوط فى موضعه .

والمعتزله موافقون للخوارج هنا فى حكم الآخرة فانهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار قالت الخوارج نسميه كافراً وقالت المعتزلة نسميه فاسقا فالخلاف بينهم لفظى فقط وأهل السنة أيضاً متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة ، وإذا اجتمعت نصوص الوعيد التى استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين ولا فائدة فى كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى .

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافا لفظياً لا يترتب عليه فساد وهو أنه هل يكون الكفر على مراتب كفراً دون كفر كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب إيماناً دون إيمان وهذا الاختلاف

نشأ من اختلافهم فى مسمى الإيمان هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا إذ من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ويسمى رسوله من تقدم ذكره كافرا ولا نطلق عليهما اسم الكفر ، ولكن من قال ان الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال هو كفر عملى لا اعتقادى ، والكفر عنده على مراتب ، كفر دون كفر كالإيمان عنده ومن قال أن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل فى مسمى الإيمان ، والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان قال هو كفر مجازى غير حقيقى اذ الكفر الحقيقى هو الذى ينقل عن الملة ، وكذلك يقول فى تسمية بعض الأعمال بالإيمان كقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس أنها سميت ايماناً مجازا لتوقف صحتها على الإيمان أو لدلالتها على الإيمان اذ هى دالة على كون مؤديها مؤمنا .

ولهذا يحكم بإسلام الكافر اذا صلى كصلاتنا فليس بين فقهاء الملة نزاع فى أصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار كالخوارج والمعتزلة ، ولكن أردأ ما فى ذلك التعصب على من يضادهم والزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه والتشنيع عليه وإذا كنا مأمورين بالعدل فى مجادلة الكافرين ، وأن يجادلوا بالتى هى أحسن فكيف لا يعدل بعضنا على بعض فى مثل هذا الخلاف قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا هو أقرب للتقوى) الآية .

وهنا امر يجب أن يتفطن له وهو ان الحكم بغير ما انزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة . ويكون كفرا اما مجازيا واما كفرا اصغر على القولين المذكورين . وذلك بحسب حال الحاكم فانه أن اعتقد أن الحكم بما انزل الله غير واجب وانه مخير فيه او استهان به مع تيقنه أنه حكم ، فهذا كفر أكبر وان اعتقد وجوب الحكم بما انزل الله .

وعليه فى هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافراً كفراً مجازياً أو كفراً أصغر ، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه فى معرفة الحكم وأخطأ فهـــذا مخطىء له أجر على اجتهاده وخطأه مغفور .

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله مخالفة المرجئة وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك فان قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) الآية فلما ذكروا ذلك لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه اتفق هو وعلى بن أبى طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن أصروا على استحلالها قتلوا ، وقال عمر لقدامة أخطأت استك الحفرة : أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر ، وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد واقعة أحد قال بعض الصحابة فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ، فأنزل الله هذه الآية بين فيها أن من طعم الشىء فى الحال التى لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين ، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس .

ثم أن أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على أنهم أخطأوا وأيسوا من التوبة . فكتب عمر إلى قدامة يقول له (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ما أدرى أى ذنبك أعظم . استحلالك المحرم أولا ، أم يأسك من رحمة الله ثانيا ، وهذا الذى اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام .

قوله (ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم)

ش : وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره قال تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا) وقال تعالى (فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (وإياى فاتقون — وإياى فارهبون — فلا تخشوهم واخشونى) ومدح أهل الخوف فقال تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) إلى قوله (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت يارسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ، هو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق ، قال « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

قال الحسن رضى الله عنه عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، أن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً ، وانتهى ، وقال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات فالرجاء إنما يكون مع الاتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته ، ولو أن رجلا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ماينفعه فأهملها ولم يحرثها ، ولم يبذرها ، ورجا أنه يأتى من مغلها مثل ما يأتى من حرث وزرع وتعاهد الأرض ، لعده الناس من أسفه السفهاء ، وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع ، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وأمثال ذلك .

فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، من غير طاعة ولاتقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ومما ينبغى أن يعلم أن من رجا شيئا استلزم رجاؤه أموراً أحدها محبة مايرجوه . الثانى خوفه من فواته : الثالث سعيه فى تحصيله بحسب الإمكان وأما رجاء لايقارنه شىء من ذلك فهو من باب الامانى والرجاء شىء والامانى

شيء آخر ، فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات . وقال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فالمشرك لا ترجى له المغفرة ، لأن الله نفى عنه المغفرة ، وماسواه من الذنوب فى مشيئة الله إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه وفى معجم الطبرانى « الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئا وهو الشرك بالله ثم قرأ (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وديوان لا يترك الله منه شيئاً وهو مظالم العباد بعضهم بعضا ، وديوان لا يعبأ الله به وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه .

وقد اختلفت عبارات العلماء فى الفرق بين الكبائر والصغائر . وستأتى الاشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله : وأهل الكبائر من أمة محمد فى النار لا يخلدون ولكن ثم أمر ينبغى التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغير من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر ، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

وأيضا فانه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم مالا يعفى لغيره ، فان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة .

(السبب الأول) التوبة قال تعالى (إلا من تاب ـــ إلا الذين تابوا) والتوبة النصوح وهى الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب ، لكن هل تتوقف صحتها على ان تكون عامة حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل ، والصحيح أنها تقبل وهل يجب الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها ، أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك .

حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلا هل يؤاخذ بما كان منه فى كفره من الزنا وشرب الخمر ، أم لا بد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه ، أو يتوب توبة عامة من كل ذنب ، وهذا هو الأصح أنه لا بد من التوبة مع

الإسلام ، وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة ؛ وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة ، قال تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) وهذا لمن تاب ولهذا قال لا تقنطوا وقال بعدها (وأنيبوا إلى ربكم) الآية .

(السبب الثانى) الاستغفار قال تعالى (وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون) لكن الاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة ، فان ذكر وحده دخلت معه التوبة كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار ، فالتوبة تتضمن الاستغفار ، والإستغفار يتضمن التوبة . وكل واحدة منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران احدى اللفظين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر مامضى ، والتوبة والرجوع وطلب وقاية شر مايخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

ونظير هذا الفقير والمسكين إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر ، وإذا ذكرا معاً كان لكل منهما معنى ، قال تعالى (فاطعام عشرة مساكين — فاطعام ستين مسكينا — وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) لاخلاف أن كل واحد من الاسمين فى هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم ، ولما قرن أحدهما بالآخر فى قوله تعالى (إنمـــا الصدقات للفقراء والمساكين) الآية كان المراد بأحدهما المقل ، والآخر المعدم ، على خلاف فيه ، وكذلك الاثم والعدوان ، والبر والتقوى ، والفسوق والعصيان ، ويقرب من هذا المعنى الكفر والنفاق ، فان الكفر أعم ، فاذا الكفر شمل النفاق وإن ذكرا معاً كان لكل منهما معنى ، وكذلك الايمان والاسلام على مايأتى الكلام فيه إن شاء الله تعالى .

(السبب الثالث) الحسنات فان الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته . وقال تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال «ص» « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

(السبب الرابع) المصائب الدنيوية قال صلى الله عليه وسلم « مايصيب المؤمن

من وصب ولا نصب ولا رعم ولا هم ولا حزن حتى شوكة يشاركها إلا كفر بها من خطاياه ،

وفى المسند أنه لما نزلت قوله تعالى (من يعمل سوءاً يجز به) قال أبو بكر يارسول الله نزلت قاطمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءاً فقال « يا أبا بكر . ألست تنصب ، ألست تحزن . ألست يصيبك اللأواء ، فذلك ما تجزون به فالمصائب نفسها مكفرة ، وبالصبر عليها يثاب العبد . وبالسخط يأثم ، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة ، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد . وهى جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها ، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله ،والصبر والسخط من فعله وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد ، بل هدية من الغير أو فضل من الله من غير سبب قال تعالى (ويؤت من لدنه أجراً عظيما) فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم ، وكثيراً مايفهم من الأجر غفران الذنوب وليس ذلك مدلوله ، وإنما يكون من لازمه .

(السبب الخامس) عذاب القبر وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

(السبب السادس) دعاء المؤمنين واستغفارهم فى الحياة وبعد الممات .

(السبب السابع) مايهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقته أو قراءة وحج ونحو ذلك ،وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى .

(السبب الثامن) أهوال يوم القيامة وشدائده .

(السبب التاسع) ماثبت فى الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

(السبب العاشر) شفاعه الشافعين كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها .

(السبب الحادى عشر) عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة كما قال تعالى : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فان كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله إلى الكير ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه ، فلا يبقى فى النار من فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، بل من قال : لا إله

إلا الله كما تقدم من حديث أنس رضى الله عنه .

وإذا كان الأمر كذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمة غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف عليهم .

قوله (والأمن واليأس ينقلان عن ملة الاسلام ، وسبيل الحق بينهما . لأهل القبـــلة) .

ش : يجب أن يكون العبد خائفاً ، راجيا فان الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله . فاذا تجاوز ذلك خيف منه اليـأس والقنوط والرجاء المحمود رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه ، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته ، قال الله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم)

أما إذا كان الرجل متماديا فى التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب ، قال أبو على الروذبادى رحمه الله الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحـدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجـداً وقائما يحـذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية وقال (تتجافى جنوبهم عن المضاجـع يدعون ربهم خوفا وطمعا) الآية ، فالرجاء يستلزم الخـوف ، ولولا ذلك لـكان أمنا ، والخوف يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك لـكان قنوطا ويأسا ، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فانك اذا أخفته هربت إليه ،فالخـائف هارب من ربه الى ربه.

وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله الرجاء أضعف منـازل المريد ، وفى كلامـه نظر . بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عزوجل ، أنا عنـــد ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء ، وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » ولهذا قيل : إن العبد ينبغى أن يكون رجاؤه فى مرضه أرجح من خوفه ، بخلاف زمن الصحة فانه يكون خوفه أرجح من رجائه .

وقال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ، ولقد أحسن محمود الوراق فى قوله :

لو قد رأيت الصغير من عمل الـ ـخير ثواباً عجبت من كبره
أو قد رأيت الحقير من عمل الشـ ـر جزاء أشفقت من حذره

قوله (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) .

ش : يشير الشيخ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة فى قولهم بخروجه من الايمان بارتكاب الكبيرة ، وفيه تقرير لما قال أولا : لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، وتقدم الكلام على هذا المعنى .

قوله (والايمان هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ، وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق ، والايمان واحد وأهله فى أصله سـواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) .

ش : اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافا كثيراً فذهب مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان ، وذهب كثير من أصحابنا إلى ماذكره الطحاوى أنه الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ، ومنهم من يقول أن الاقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلى ، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدى رحمه الله ، ويروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه ، وذهب الكرامية إلى أن الايمان هو الاقـرار باللسان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الايمان ، لكن يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذى أوعدهم الله به ، وقولهم ظاهر الفساد ، وذهب الجهم

ابن صفوان وأبو الحسين الصالحي أحد رؤساء القدرية أن الايمان هو المعرفة بالقلب ، وهذا القول أظهر فساداً مما قبله ، فان لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فانهم عرفوا صدق موسى وهارون ولم يؤمنوا بهما ولهذا قال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر) وقال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ولم يكونوا مؤمنين به ، بل كافرين به معادين له وكذلك أبو طالب عنده يكون مؤمنا فانه قال :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة   لوجدتني سمحا بذاك مبينا

بل ابليس يكون عند الجهم مؤمنا كامل الايمان ، فانه لم يجهل ربه بل هو عارف به (قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون — قال رب بما أغويتني — قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ، ولا أحد أجهل منه بربه ، فانه جعله الوجود المطلق ، وسلب عنه جميع صفاته ، ولا جهل أكبر من هذا فيكون كافراً بشهادته على نفسه ، وبين هذه المذاهب مذاهب أخر بتفاصيل وقيود أعرضت عن ذكرها اختصاراً ، ذكر هذه المذاهب أبو المعين النسفي في تبصرة الأدلة وغيره .

وحاصل الكل يرجع إلى أن الايمان إما أن يكون مايقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب اليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم كما تقدم ، أو بالقلب واللسان دون الجوارح كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عن الكرامية أو بالقلب وحده ، وهو اما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي ، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر .

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري ، فان كون أعمال الجوارح لازمة لايمان القلب أو جزءاً من الايمان

مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفى عنه ، نزاع لفظى لا يترتب عليه فساد اعتقاد والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى ،وإلا فقد نفى النبى (ص) الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية إتفاقا . ولاخلاف بين أهل السنة إن الله تعالى أراد من العباد والقول والعمل وأعنى بالقول التصديق بالقلب والأقرار باللسان وهذا الذى يعنى به عند إطلاق قولهم الإيمان قول وعمل ، لكن هذا المطلوب من العباد هل يشمله إسم الايمان أم الايمان عند إفراده بالذكر ، وإن أطلق عليهما كان مجازاً ، هذا محل النزاع ،

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله مستحق الوعيد . لكن فيمن يقول إن الأعمال غير داخلة فى مسمى الايمان من قال لما كان الايمان شيئاً واحداً فايمانى كايمان أبى بكر الصديق وعمر ، بل قال كايمان الانبيـــاء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل ، وهذا غلو منه . فان الكفر مع الايمان كالعمى مع البصر ، ولا شك أن البصراء يختلفون فى قوة البصر وضعفه فمنهم الاخفش والأعشى ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها ، ويرى عن قرب زائد على العادة وآخر بضده.

ولهذا والله أعلم . قال الشيخ رحمه الله . وأهله فى أصله سواء ، يشير إلى أن التساوى إنما هو فى أصله ، ولا يلزم منه التساوى من كل وجه . بل تفاوت درجاته نور لا إله الا الله فى قلوب أهلها لا يحصيها الا الله تعالى ، فمن الناس من نور لا اله الا الله فى قلبه كالشمس ومنهم . من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى ، وآخر كالمشعل العظيم وآخـــر كالسراج المضىء ، وآخـــر كالسراج الضعيف ، ولهـــذا تظهر الأنوار يوم القيامـــة بايمانهم وبين أيـــديهم على هـــذا المقدار بحسب ما فى قلوبهم من نور الايمان والتوحيـــد علما وعـــملا

وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث أنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه ،

وهذه حال الصادق فى توحيده فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي «ص» « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » وقوله « لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله » وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة ، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهى ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأول بعضهم الدخول بالخلود ونحو ذلك والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط فان هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فان المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين فى الدرك الأسفل من النار فان الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب .

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات. فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار .

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو فى تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت .

وتأمل ما قام بقلب البغى من الايمان حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها .

وهكذا العقل أيضا فانه يقبل التفاضل وأهله فى أصله سواء مستوون فى أنهم عقلاء غير مجانين ، وبعضهم أعقل من بعض .

وكذا الايجاب والتحريم فيكون إيجاب دون إيجاب ، وتحريم دون تحريم

هذا هو الصحيح وإن كان بعضهم قد طرد ذلك فى العقل والوجوب ،

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل ، فمعلوم أنه لايجب فى أول الأمر ماوجب بعد نزول القرآن كله ، ولايجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ، ما يجب على من بلغه خبره كما فى حق النجاشي وأمثاله .

وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح ، فهو أكمل من التصديق الذى لايستلزمه ، فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لايعمل به فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم . ولهذا قال النبى (ص) « ليس المخبر كالمعاين » وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر فقد لايتصور المخبر به فى نفسه كما يتصوره إذا عاينه ، كما قال ابراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه (رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

وأيضا من وجب عليه الحج والزكاة مثلا يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره من الإيمان به إلا مجملا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل . وكذلك الرجل أول مايسلم إنما يجب عليه الاقرار المجمل ، ثم اذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان ،

ولاشك أن من قام بقلبه التصديق الجازم الذى لايقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لاتقع معه معصية ، ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى ، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصى . ولهذا والله أعلم قال قال صلى الله عليه وسلم ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، الحديث فهو حين يزنى يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا وإن بقى أصل التصديق فى قلبه ثم يعاوده فان المتقين كما وصفهم الله بقوله

كما وصفهم الله بقوله (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) قال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذ أبصر رجع .

ثم قال تعالى) وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) أى وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لايقصرون قال ابن عباس لا الانس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم . فاذا لم يبصر يبقى قلبه فى عمى ، والشيطان يمده فى غيه ، وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب ، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه ، وهذا كما أن الانسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى ، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لايبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وجاء هذا المعنى أمر مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا زنا العبد نزع منه الايمان فاذا تاب أعيد اليه » .

وإذا كان النزاع فى هذه المسألة بين أهل السنه نزاعا لفظيا فلا محذور فيه سوى مايحصل من عدوان احدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك ، وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الارجاء ونحوهم وإلى ظهور الفسق والمعاصى بأن يقول أنا مؤمن مسلم حقاً كامل الايمان والاسلام ولى من أولياء الله فلا يبالى بما يكون منه من المعاصى ، وبهذا المعنى قالت المرجئة : لايضر مع الايمان ذنب لمن عمله وهذا باطل قطعا .

فالامام أبو حنيفة رضى الله عنه نظر إلى حقيقة الايمان لغة مع أدلة من كلام الشارع . وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته فى عرف الشارع ، فان الشارع ضم إلى التصديق أوصافا وشرائط كما فى الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك .

فن أدلة الأصحاب لأبى حنيفة رحمه الله أن الايمـــان فى اللغة عبارة عن التصديق ، قال تعالى خبراً عن إخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق

لنا ، ومنهم من ادعى أجماع أهل اللغة على ذلك . ثم هذا المعنى اللغوى وهو التصديق بالقلب هل الواجب على العبد حقا لله ، وهو أن يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله فمن صدق الرسول بما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى ، والاقرار شرط إجراء أحكام الاسلام فى الدنيا ، هذا على أحد القولين كما تقدم ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما ، وقوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) يدل على أن القلب هو موضع الايمان لا اللسان ولأنه لو كان مركبا من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه ، ولأن العمل قد عطف على الايمان ، والعطف يقتضى المغايرة ، قال تعالى (آمنوا وعملوا الصالحات) فى موضع من القرآن .

وقد اعترض على استدلالهم بأن الايمان فى اللغة عباره عن تصديق ، بمنع الترادف بين التصديق والايمان ، فهب أن الأمر يصح فى موضع . فلم قلتم أنه يوجب الترادف مطلقا ، وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الاسلام والايمان . ومما يدل على عدم الترادف أنه يقال للمخبر إذا صدق : صدقه . لا يقال : آمنه ولا آمن به ، بل يقال آمن له قال تعالى (فآمن له لوط - فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) وقال تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) ففرق بين المعدى بالباء والمعدى باللام ، فالأول يقال للمخبر ، ولا يرد كونه يجوز أن يقال ما أنت بمصدق لنا لأن دخول اللام لتقوية العامل كما إذا تقدم المعمول . أو كان العامل اسم فاعل أو مصدراً على ما عرف فى موضعه .

فالحاصل أنه لا يقال : قد آمنته ولا صدقت له انما يقال آمنت له كما يقال أقررت له فكان تفسيره بأقررت أقرب من تفسيره بصدقت ، مع الفرق بينهما ولأن الفرق بينهما ثابت فى المعنى ، فان كل مخبر عن شاهد أو غيب يقال له فى اللغة صدقت ، كما يقال له كذبت ، فمن قال ، السماء فوقنا قيل له صدقت . وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا فى الخبر عن الغائب فيقال لمن قال : طلعت عليه الشمس صدقناه ولا يقال آمنا له فان له أصل معنى الامن ، والايمان انما يكون فى الخبر عن الغائب فالأمر الغائب هو الذي يؤمن عليه المخبر .

ولهذا لم يأت فى القرآن وغيره لفظ آمن له إلا فى هذا النوع ولأنه لم يقابل لفظ الايمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق ، وانما يقابل بالكفر والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك لكان كفراً أعظم ، فعلم أن الايمان ليس التصديق فقط ولا الكفر التكذيب فقط . بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب . فكذلك الايمان يكون تصديقا وموافقة وموالاة وانقياد ولا يكفى مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان ولو سلم الترادف فالتصديق بالأفعال أيضا كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزنى وزناها السمع » إلى أن قال « والفرج يصدق ذلك ويكذبه » .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى الصدور وصدقته الأعمال ، ولو كان تصديقا فهو تصديق مخصوص كما فى الصلاة ونحوها كما تقدم وليس هذا نقلا للفظ ولا تغيراً له فان الله لم يأمر بايمان خاص وصفه فالتصديق الذى هو الايمان أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام فلا يكون مطابقا له فى العموم والخصوص من غير تغير اللسان ولا قلبه بل يكون الايمان فى كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص كالانسان الموصوف بأنه حيوان ناطق . ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح : فان هذه لوازم الايمان التفاء وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم .

ونقول أن هذه لوازم تدخل فى مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى ، أو أن اللفظ باق على معناه فى اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاما . أو أن يكون قد نقله الشارع ، وهذه الأقوال لمن سلك هذا الطريق .

وقالو إن الرسول قد وافقنا على معانى الايمان وعلمنا مراده علما ضروريا أن من قال أنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك

ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ورسوله ولا خاف الله بل كان مبغضا للرسول مناديا له يقاتله ، إن هذا ليس بمؤمن ، كما علمنا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الاخلاص والعمل بمقتضاهما ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الايمان » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » وقال أيضا «ص» « البذاذة من الايمان » .

فاذا كان الايمان أصلا له شعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيمانا . فالصلاة من الايمان وكذلك الزكاة والصوم والحج والأعمال الباطنه كالحياء والتوكل والخشية من الله والانابة اليه حتى تنتهى هذه الشعب إلى اماطة الأذى عن الطريق فانه من شعب الايمان وهذه الشعب منها ما يزول الايمان بزوالها أجماعا كشعبة الشهادتين ومنها مالا يزول بزوالها اجماعا كترك اماطة الأذى عن الطريق ، بينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما منها مايقرب من شعبة الشهادة ومنها مايقرب من شعبة اماطة الأذى .

وكما أن شعب الايمان ايمان فكذا شعب الكفر كفر فالحكم بما أنزل الله مثلا من شعب الايمان ، والحكم بغير ما أنزل الله كفر وقد قال «ص» (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) رواه مسلم ، وفى لفظ ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل . وروى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من أحب الله وأبغض لله وأعطى لله ، ومنع لله . فقد استكمل الايمان) .

ومعناه والله أعلم أن الحب والبغض أصل حركة القلب ، وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك فان المال آخر المتعلقات بالنفس ، والبدن متوسط بين القلب والمال فمن كان أول أمره وآخره كله لله كان الله الهه فى كل شيء ، فلم يكن فيه شيء من الشرك وهو ارادة غير الله وقصده ورجاؤه فيكون مستكملا الايمان . الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الايمان وضعفه بحسب العمل .

وسيأتى فى كلام الشيخ رحمه الله فى شأن الصحابة « وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان » فسمى حب الصحابة إيمانا وبغضهم كفراً .

وما أعجب ما أجاب به أبو المعين النسفى وغيره عن استدلالهم بحديث شعب الإيمان المذكور ، وهو أن الراوى قال بضع وستون أو بضع وسبعون فقد شهد الراوى بغفله نفسه حيث شك فقال « بضع وستون أو بضع وسبعون » ولا يظن برسول الله (ص) الشك فى ذلك ، وأن هذا الحديث مخالف للكتاب ، فطعن فيه بغفلة الراوى ومخالفته الكتاب ، فانظر إلى هذا الطعن ما أعجبه فان تردد الراوى بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه ، مع أن البخارى رحمه الله إنما رواه بضع وستون من غير شك وأما الطعن بمخالفته الكتاب فأين فى الكتاب مايدل على خلافه . وإنما فيه مايدل على وفاقه ، وإنما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب .

وقالوا أيضاً : وهنا أصل آخر وهو أن القول قسمان : قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام ، والعمل قسمان ، عمل القلب وهو نيته وإخلاصه . وعمل الجوارح ، فاذا زالت هذه الأربعة زال الايمان بكماله ، وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الأخر ، فان تصديق القلب شرط فى اعتبارها وكونها نافعة . وإذا بقى القلب وزال الباقى فهذا موضع المعركة .

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب ، إذا لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت . ويلزم من عدم طاعة القلب ، وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة . وقال صلى الله عليه وسلم : - ان فى القلب مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد . واذا فسدت فسد لها سائر الجسد . ألا وهى القلب - فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً بخلاف العكس وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله فان أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلم . ولكن لايلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً منها قوله تعالى (وإذاتليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) ويزيد الله الذين اهتدوا هدى — ويزداد الذين آمنوا إيمانا — هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم — الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وكيف يقال فى هذه الآية والتى قبلها أن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به ، فهل فى قول الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ؛ زيادة مشروع ، وهل فى إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين : زيادة مشروع ، وإنما أنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينا ويؤيد ذلك قوله تعالى (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) .

وأما ماروا. الفقيه أبو الليث السمرقندى فى تفسيره عند هذه الآية فقال حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذى قال حدثنا فارس بن مردويه قال حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال حدثنا يحي بن عيسى قال حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله (ص) فقالوا يارسول الله الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال « لا الإيمان مكمل فى القلب ، زيادته كفر ونقصانه شرك » فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب بأن الإسناد من أبى الليث إلى أبى مطيع مجهولون لايعرفون فى شىء من كتب التواريخ المشهورة ،

وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخى ضعفه أحمد بن حنبل ويحي بن معين وعمر بن على الفلاس والبخارى وأبو داود والنسائى وأبو حاتم الرازى وأبو حاتم محمد بن حبان البستى والعقيلى وابن عدى والدارقطنى وغيرهم .

وأما أبو المهزم الراوى عن أبى هريرة فقد تصحف على الكتاب واسمه يزيد بن سفيان فقد ضعفه أيضا غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج ، وقال النسائى متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً .

وقد وصف النبى (ص) النساء بنقصان العقل والدين . وقال (ص) «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » والمراد نفى الكمال ، ونظائره كثيرة ، وحديث شعب الايمان وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السموات والأرض سواء وإنما التفاضل بينهم بمان أخر غير الايمان .

وكلام الصحابة رضى الله عنهم فى هذا المعنى كثير أيضا ، منه قول أبى الدرداء رضى الله عنه : من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص ، وكان عمر رضى الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نزداد إيماناً فيذكرون الله تعالى عز وجل .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقها، وكان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول لرجل : أجلس بنا نؤمن ساعة ، ومثله عبد الله بن رواحة وصح عن عمار بن ياسر رضى الله عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان : إنصاف من نفسه ، والانفاق من اقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخارى رحمه الله فى صحيحه ، وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق .

وأما كون عطف العمل على الإيمان تارة يذكر مطلقا عن العمل وعن الإسلام ، وتارة يقرن بالعمل الصالح وتارة يقرن بالاسلام ، فالمطلق مستلزم للأعمال ، قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابو) الآية (ولو كانوا

يؤمنون بالله والنبي وماأنزل اليه ما اتخذوهم أولياء) وقال صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . الحديث لاتؤمنوا حتى تحابوا — من غشنا فليس منا من حمل علينا السلاح فليس منا » .

وما أبعد قول من قال إن معنى قوله فليس منا أى فليس مثلنا . فليت شعرى فمن لم يغش يكون مثل النبى وأصحابه .

وأما اذا عطف عليه العمل الصالح فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك فى الحكم الذى ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكون متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءاً منه . ولا بينهما تلازم لقوله تعالى (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور — وأنزل التوراة والانجيل) وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما تلازم كقوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول (والثانى) عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى — من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال — واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك) وفى مثل هذا وجهان (أحدهما) أن يكون داخلا فى الأول فيكون مذكورا مرتين (الثالث) أن عطفه عليه يقتضى أنه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك فى لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما . تتنوع دلالته بالافراد والاقتران .

(الرابع) عطف الشيء على لاختلاف الصفتين كقوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) وقد جاء فى الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله :

« فألفى قولها كذباً ومينا »

ومن الناس من زعم أن فى القرآن من ذلك قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) والكلام على ذلك معروف فى موضعه .

فاذا كان العطف فى الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا فى كلام الشارع كيف ورد فيه ايمان فوجدناه اذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى

والدين ، ودين الاسلام . ذكر فى أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآيه (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الآيات .

قال محمد بن نصر حدثنا إسحق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى والملائى قالا حدثنا المسعودى عن القاسم . قال جاء رجل إلى أبى ذر فسأله عن الإيمان فقرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم) إلى آخر الآية فقال الرجل ليس عن هذا سألتك ، فقال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذى سألتنى عنه فقرأ عليه الذى قرأت عليك فقال له الذى قلت لى فلما أبى أن يرضى قال ، إن المؤمن الذى إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها . وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها ، وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب .

وفى الصحيح قوله لوفد عبد القيس : آمركم بالايمان بالله وحده ، أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا الخمس من المغنم ، ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الاعمال تكون إيماناً بالله بدون ايمان القلب لما قد أخبر فى مواضع أنه لابد من ايمان القلب فعلم أن هذه مع ايمان القلب هو الايمان . وأى دليل على أن الأعمال داخلة فى مسمى الايمان فوق هذا الدليل ، فانه فسر الايمان بالأعمال ، ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لاتفيد مع الجحود ، وفى المسند عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب .

وفى هذا الحديث دليل على المغايرة بين الاسلام والايمان ، ويؤيده قوله فى حديث سؤال جبريل عن الإيمان والاسلام وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم » فجعل الدين هو الاسلام والايمان والاحسان فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاثة ، مسلم ثم مؤمن ثم محسن ، والمراد بالايمان ما ذكر مع الاسلام قطعا كما أنه أريد بالاحسان ما ذكر مع الايمان والاسلام ، لا أن الاحسان يكون مجرداً عن الايمان ، هذا محال . وهذا كما قال تعالى . (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم

لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه فانه معرض للوعيد ،

وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن فانه معرض للوعيد ، فأما الاحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله ، والايمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام ، فالإحسان يدخل فيه الايمان ، والايمان يدخل فيه الاسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنون ، والمؤمنون أخص من المسلمين .

وهذا كالرسالة والنبوة ، فالنبوة داخلة فى الرسالة ،والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي ولا ينعكس .

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال ، فطائفة جعلت الاسلام هو الكلمة ، وطائفة أجابوا بما أجاب به النبى (ص) حين سئل عن الاســـلام والايمان حيث فسر الاسلام بالأعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالأصول الخمسة وطائفة جعلوا الاسلام مرادفا للايمان وجعلوا معنى قول الرسول (ص) أن الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة ، الحديث شعائر الاسلام، والأصل عدم التقدير مع أنهم قالوا : إن الايمان هو التصدق بالقلب ثم قالوا : الاسلام والايمان شيء واحد فيكون الاسلام هو التصديق ، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة وإنما هو الانقياد والطاعة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لك أسلمت ربك آمنت » وفسر الاسلام بالأعمال الظاهرة والايمان بالايمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبى صلى الله عليه وسلم ،

وأما إذا أفرد اسم الايمان فانه يضمن الاسلام ، وإذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمناً بلا نزاع وهذا الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن ؟ وتقدم الكلام فيه .

وكذلك هل يلزم الاسلام الايمان ؟ فيه النزاع المذكور ، وإنما وعد الله الجنة

فى القرآن وبالنجاة من النار بأسم الإيمان كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وأما إسم الإسلامْ مجرداً فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه ، وبه بعث النبيين (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) .

فالحاصل أن حالة اقتران الاسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الاسلام من الإيمان كالشهادتين إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشىء واحد كذلك الاسلام والايمان ، لا إيمان ، لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه ، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه .

ونظائر ذلك فى كلام الله ورسوله وفى كلام الناس كثيرة أعنى فى الافراد والإقتران ، منها لفظ الكفر والنفاق فالكفر إذا ذكر مفرداً فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) ونظائره كثيرة . وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره ، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، وكذلك لفظ البر والتقوى ولفظ الاثم والعدوان . ولفظ التوبة والاستغفار ، ولفظ الفقير والمسكين وأمثال ذلك .

ويشهد للفرق بين الاسلام والايمان قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الخ السورة وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية (قولوا أسلمنا) أنقذنا بظواهرنا فهم منافقون فى الحقيقة . وهذا أحـــد قولى المفسرين فى هذه الآية الكريمة وأجيب بالقول الآخر ورجح وهو إنهم ليسوا بمؤمنين كاملى الايمان لا أنهم منافقون كما نفى الايمان عن القاتل والزانى والسارق ومن لا أمانة له .

ويؤيد هذا سياق الآية فان السورة من أولها إلى هنا فى النهى عن المعاصى . وأحكام بعض العصيان ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين ، ثم قال بعد ذلك (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) ولو كانوا منافقين مانفعتهم الطاعة ثم قال (إنما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الآية يعنى والله أعلم أن المؤمنين الكامل الايمان هم هؤلاء لا أنتم ، بل أنتم منتف عنكم الايمان الكامل .

يؤيد هذا أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا ، والمنافق لا يقال له ذلك ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الاسلام كما نفى عنهم الايمان ، ونهاهم أن يمنوا باسلامهم ، فأثبت لهم إسلاماً ، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال : لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم فى قولهم نشهد أنك لرسول الله ، والله أعلم بالصواب .

وينتفى بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف وتشنيع من لزم بأن الاسلام لو كان هو الأمور الظاهرة لكان ينبغى أن لا يقابل بذلك ، ولا يقبل إيمان المخلص ، وهذا ظاهر الفساد فانه قد تقدم تفسير الايمان والاسلام بالشهادتين وغيرهما ، وأن حالة الاقتران غير حالة الإنفراد ، فانظر إلى كلمة الشهادة فان النبى صلى الله عليه وسلم قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » الحديث فلو قالوا : لا إله إلا الله وأنكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة ، بل لا بد أن يقولوا لا إله إلا الله قائمين بحقها ، ولا يكون قائما بلا إله إلا الله حق القيام إلا من صدق بالرسالة .

وكذا من شهد أن محمداً رسول الله لا يكون قائما بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدق هذا الرسول فى كل ماجاء به ، فتضمنت التوحيد وإذا ضمت شهاده أن لا إله إلا الله إلى شهادة أن محمداً رسول الله كان المراد من شهادة أن لا إله الا الله اثبات التوحيد . ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة .

كذلك الإسلام والإيمان اذا قرن أحدهما بالآخر كما فى قوله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) وقوله صلى الله عليه وسلم

واللهم لك أسلمت وبك آمنت، كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر، وكما قال صلى الله عليه وسلم « الإسلام علانية والايمان فى القلب » وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه، وكما فى الفقير والمسكين ونظائره ، فان لفظى الفقير والمسكين إذا اجتمعتا افترقا وإذا افترقا اجتمعتا ، فهل يقال فى قوله تعالى (فإطعام عشرة مساكين) أنه يعطى المقل دون المعدم أو بالعكس ، وكذا فى قوله تعالى (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) .

ويندفع أيضاً تشنيع من قال ما حكم من آمن ولم يسلم أو أسلم ولم يؤمن فى الدنيا والآخرة فمن أثبت لأحدهما حكما ليس بثابت الآخر ظهر بطلان قوله ويقال له فى مقابلة تشنيعه أنت تقول المسلم هو المومن والله تعالى يقول : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) لجعلهما غيرين ، وقد قيل لرسول الله «ص» « مالك عن فلان والله إنى لأراه مؤمنا ، قال أو مسلما » قالها ثلاثا فأثبت له الاسلام ، وتوقف فى اسم الايمان ، فمن قال هما سواء كان مخالفاً ، والواجب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله وقد يتراءى فى بعض النصوص معارضة ولامعارضة بحمد الله تعالى ولكن الشأن فى التوفيق وبالله التوفيق .

وأما الاحتجاج بقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المومنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) على ترادف الاسلام والايمان ، فلاحجة فيه لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالاسلام والايمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما .

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبى حنيفة رحمه الله وإنما هى من الأصحاب فإن غالبها ساقط لايرتضيه أبو حنيفة ، وقد حكى الطحاوى حكاية أبى حنيفة مع حماد بن زيد وأن حماد بن زيد لما روى له حديث أى الاسلام أفضل إلى آخره قال له : ألا تراه يقول أى الاسلام أفضل قال الايمان ثم جعل الهجرة والجهاد من الايمان ، فسكت أبو حنيفة فقال بعض أصحابه ألا تجيبه ياأبا حنيفة قال بما أجيبه وهو يحدثنى بهذا عن رسول الله «ص» .

ومن ثمرات هذا الاختلاف مسئلة الاستثناء في الإيمان وهو أن يقول أي الرجل أنا مؤمن إن شاء الله . والناس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط ، منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار ، وهذا أصح الأقوال .

أما من يوجبه فلهم مأخذان (أحدهما) أن الإيمان هو ما مات الانسان عليه والانسان إنما يكون عند الله مؤمنا أو كافراً باعتبار الموافاة ، وما سبق في علمه أنه يكون عليه ، وماقبل ذلك لاعبرة به ، قالوا والإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بإيمان كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال ، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب .

وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم ، وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافراً إذ علم أنه يموت مؤمناً ، فالصحابة مازالوا محبوبين قبل إسلامهم ، وإبليس ومن ارتد عن دينه مازال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه وهو فاسد، فان الله تعالى قال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فأخبر أنه يحبهم إن اتبعوا الرسول . فاتباع الرسول شرط المحبة والمشروط يتأخر عن الشرط وغير ذلك من الأدلة .

ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة يقول صليت إن شاء الله ونحو ذلك يعني القبول . ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهما هذا ثوب إن شاء الله ، هذا حبل إن شاء الله فاذا قيل لهم هذا لاشك فيه يقولون لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره .

(المأخذ الثاني) أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك مانهاه الله عنه كله . فاذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به وترك كل مانهوا عنه ، فيكون من أولياء الله المقربين وهذا من تزكية الانسان لنفسه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال .

وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لاشك فيه كما قال الله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) قال صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقال أيضا « إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله » ونظائر هذا .

وأما من يحرمه فكل من جعل الايمان شيئاً واحداً فيقول أنا أعلم أنى مؤمن كما أعلم أنى تكلمت بالشهادتين . فقولى أنا مؤمن . كقولى أنا مسلم ، فمن استثنى فى ايمانه فهو شاك فيه ، وسموا الذين يستثنون فى إيمانهم الشكاكة . وأجابوا عن الاستثناء الذى فى قوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) بأنه يعود إلى الأمن والخوف . فأما الدخول فلا شك فيه ، وقيل لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت ، وفى كلا الجوابين نظر فانهم وقعوا فيما فروا منه ، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك فلا شك فى الدخول ولا فى الأمن ولا فى دخول الجميع أو البعض فان الله قد علم من يدخل فلاشك فيه أيضا فكان قول إن « شاء الله » هنا تحقيقاً للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله ولا محالة والله لأفعلن كذا إن شاء الله . لا يقولها لشك فى إرادته وعزمه ولكن إنما لا يحنث الحالف فى مثل هذا اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده .

وأجيب بجواب آخر لا بأس به وهو أنه قال ذلك تعليما لنا كيف نستثنى إذا أخبرنا عن مستقبل ، وفى كون هذا المعنى مراداً من النص نظر . فانه ماسبق الكلام له إلا أن يكون مراداً من إشارة النص . وأجاب الزمخشرى بجوابين آخرين باطلين . وهما أن يكون الملك قد قاله فأثبت قرآنا أو أن الرسول قاله فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله ، فيدخل فى وعيد من قال إن هذا إلا قول البشر ، نسأل الله العافية .

وأما من يجوز الإستثناء وتركه فهم أسعد بالدليل من الفريقين ، وخير الأمور

أرسطها فإن أراد المستثنى الشك فى أصل إيمانه منع من الاستثناء ، وهذا مـــا لاخلاف فيه ، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون — أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (وفى قوله تعالى (إنما المؤمنون للذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فالاستثناء حينئذ جائز ، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة ، وكذلك من استثنى تعليقا الأمر بمشيئة الله لاشكا فى إيمانه ، وهــذا القول فى القوة كما ترى

قوله : وجميــع ما صح عن رسول الله «ص» من الشرع والبيان كله حق .

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة القائلين بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواتر وأن كان قطعى السند لكنه غير قطعى الدلالة فإن الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين ، ولهذا قدحوا فى دلالة القرآن على الصفات قالوا والآحاد لاتفيد العلم ولايحتج بها من جهة طريقها ولا من جهة منها فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية ، وبراهين يقينية ، وهى فى التحقيق كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقـــه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحى ، وعزلوا لأجلها النصوص فقأفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية ، ولو حكموا نصوص الوحى لفازوا بالمعقول الصحيح الموافق للفطرة السليمة .

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وماظنه معقول، فما وافقه قال أنه محكم وقبله واحتج به . وما خالفه قال انه متشابه ثم رده وسمى رده تفويضا أو حرفا وسمى تحريفه تأويلا . فلذلك اشتد انكار أهل السنة عليهم .

وطريق أهل السنة أن لايعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان كما أشار إليه الشيخ رحمه الله وكما قال البخارى رحمه الله سمعت الحميدى يقول كنا عند الشافعى رحمة الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال قضى فيها رسول الله (ص) كذا وكذا ، فقال رجل للشافعى ماتقول أنت ، فقال سبحان الله ترانى فى كنيسة ، ترانى فى بيعة ، ترانى على وسطى زناراً، أقول لك قضى رسول الله (ص) وأنت تقول : ماتقول أنت . ونظائر ذلك فى كلام السلف كثير ، وقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقاً له يفيد العلم اليقينى عند جماهير الأمة وهو أحد قسمى المتواتر . ولم يكن بين سلف الأمة فى ذلك نزاع كخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما الأعمال بالنيات » وخبر ابن عمر « نهى عن بيع الولاء وهبته » وخبر أبى هريرة « لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » وكقوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وأمثال ذلك وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة فاستداروا إليها .

وكان رسول الله (ص) يرسل رسله آحادا ويرسل كتبه مع الآحاد . ولم يكن المرسل إليهم يقولون لانقبله لأنه خبر واحد وقد قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) فلابد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا يبطل حججه وبيناته .

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله فى حياته وبعد وفاته وبين حاله للناس قال سفيان ابن عيينة : ماستر الله أحد يكذب فى الحديث . وقال

عبد الله بن المبارك : لو هم رجل فى البحر أن يكذب فى الحديث لأصبح والناس يقولون فلان كذاب . وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب ولكن التفريق بين صحيح الاخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلا بالحديث والبحث عن سيرة الرواة ليقف على أحوالهم وأقوالهم ، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل ، وكانو بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحد فى كلمة يتقولها على رسول الله (ص) ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك ؛ وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل اليهم فهم بزل[1] الاسلام وعصابة الايمان ، وهم نقاد الأخبار وصيارفة الأحاديث ، فاذا وقف المرء على هذا من شأنهم وعرف حالهم وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه ،

ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ما ليس لغيرهم به شعور فضلا أن يكون معلوماً لهم أو مظنونا كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم وكل ذى صنعة هو أخبر بها من غيره فلو سألت البقال عن أمر العطر أو العطار عن البز ونحو ذلك لعد ذلك جهلا كبيرا .

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى (ليس كمثله شيئاً) مستنداً لهم فى رد الأحاديث الصحيحة فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ، ردوه بليس كمثله شيء ، تلبيساً منهم وتلبيساً على من هو أعمى قلباً منهم ، وتحريفاً لمعنى الآى عن مواضعه ، ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ، ولا فهمه أحد من أئمة الاسلام أنه يقتضى اثباتها التمثيل بما المخلوقين ، ثم استدلوا على البطلان ذلك بليس كمثله شيء تحريفاً للنصين ، ويصنفون الكتب ويقولون هذا أصول دين الاسلام الذى أمر الله

---

(١) بضم الباء والزاى وهو جمع بازل . قال فى اللسان : وقد قالوا رجل بزل : وربما قالوا ذلك يعنون به كماله فى عقله وتجربته .

به وجاء من عنده ، ويقرأون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذى بينه الرسول وأخبر أنه معناه الذى أراده الله .

وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث وقص علينا ذلك من خبرهم لنعتبر ونزجرعن مثل طريقتهم فقال تعالى(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون) إلى أن قال (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) والأمانى التلاوة المجردة ثم قال تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) فذمهم على نسبة ماكتبوه إلى الله وعلى اكتسابهم بذلك ، فكلا الوصفين ذميم : ألا أن ينسب إلى الله ماليس من عنده ، وأن يأخذ بذلك عوضا من الدنيا مالا ورياسة . نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل فى القول والعمل بمنه وكرمه .

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله «من شرع البيان» إلى أن ماصح عن النبى (ص) نوعان: شرع ابتدائى وبيان لما شرعه الله فى كتابه العزيز وجميع ذلك حق واجب الاتباع ، وقوله « وأهله فى أصله سواء » والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الأولى . وفى بعض النسخ بالخشية والتقى بدل قوله « بالحقيقة » ففى العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون فى أصل التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه ، وفى العبارة الاخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب وأما التصديق فلا تفاوت فيه ، والمعنى الاول أظهر قوة والله اعلم بالصواب .

قوله : : (والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن) .

ش : قال الله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون) الاية بفتح الواو التى هى ضد العداوة وقد قرأ حمزة (مالكم من ولايتهم من شىء) بكسر الواو والباقون بفتحها ، وقيل هما لغتان . وقيل بالفتح النصرة ، وبالكسر الامارة قال الزجاج : وجاز

الكسر لأن فى تولى بعض القوم بعضا ، جنساً من الصناعة والعمل وكل ماكان كذلك مكسور مثل الخياطة ونحوها، فالمؤمنون أولياء الله ، والله تعالى وليهم قال الله تعالى (والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) الآية وقال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنو ، وأن الكافرين لامولى لهم . والمؤمنون بعضهم أولياء بعض) الآية ، وقال تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) إلى آخر السورة وقال تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ، وأنهم اولياء الله وإن الله وليهم ومولاهم ، فالله يتولى عباده المؤمنون فيحبهم ويحبونه ويرضى عنهم ويرضون عنه ، ومن عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة .

وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ، ليست كولاية المخلوق المخلوق لحاجته اليه قال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) فالله تعالى ليس له ولى من الذل بل لله العزة جميعاً ، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى ولى ينصره والولاية أيضا نظيرا الإيمان فيكون مراد الشيخ أن أهلها فى أصلها سواء وتكون كاملة لاناقصة ، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون — الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فالذين آمنوا وكانوا يتقون منصوب على أنه صفة أولياء الله أو بدل منه أو باضمار مدح أو مرفوع باضمار « هم » أو خبر ثان لـ (إن) وأجيز فيه الجر بدلا من ضمير عليهم ، وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون . وهم أهل الوعد المذكور

فى الآيات الثلاث ، وهى عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق ولا رياضة . وقيل الذين آمنوا مبتدأ والخبر (لهم البشرى) وهو بعيد لقطع الجملة مما قبلها وانتثار نظم الآية .

وتجتمع فى المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد . وتقوى وفجور . ونفاق وإيمان ، وإن كان فى هذا الأصل نزاع لفظى بين أهل السنة ونزاع معنوى بينهم وبين أهل البدع كما تقدم فى الإيمان ، ولكن موافقة الشارع فى اللفظ والمعنى أولى من موافقته فى المعنى وحده قال تعالى (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال تعالى (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآية . وقد تقدم على هذه الآية وإنهم ليسوا منافقين على أصح القولين وقال (ص) « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر » وفى رواية « وإذا ائتمن خان » بدل « وإذا وعد أخلف » أخرجاه فى الصحيحين وحديث « شعب الإيمان » تقدم وقوله (ص) « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد فى النار وإن كان معه كثير من النفاق فهو يعذب فى النار على قدر ما معه ذلك ثم يخرج من النار ، فالطاعات من شعب الايمان والمعاصى من شعب الكفر وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ، ورأس شعب الإيمان التصديق .

وأما مايروى مرفوعاً إلى النبى (ص) أنه قال « ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولى لله ولاهم يدرون به ولا هو يدرى نفسه » فلا أصل له وهو كلام باطل فان الجماعة قد يكونون كفاراً وقد يكونون فساقا يموتون على الفسق .

وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون فى قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) الآية والتقوى هى المذكورة فى قوله تعالى . (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) إلى قوله (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وهم قسمان: مقتصدون ومقربون فالمقتصدون الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح والسابقون الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله (ص) يقول الله تعالى « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ؛ ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن[1] يكره الموت وأكره مساءته » .

والولى خلاف العدو . وهو مشتق من الولاء وهو الدنو والتقرب فولى الله هو من والى الله بموافقته فى محبوباته والتقرب اليه بمرضاته وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال أبوذر رضى الله عنه لما نزلت هذه الاية قال النبى (ص) يا أباذر لو عمل الناس بهذه الاية لكفتهم ، فالمتقون يجعل الله لهم مخرجا مما ضاق على الناس . ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فيدفع الله عنهم المضار ، ويجلب لهم المنافع . ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها من المكاشفات والتأثيرات .

قوله (وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن) .

ش . أراد أكرم المؤمنين هو الأطوع لله والأتبع للقرآن وهو الأتقى والأتقى هو الأكرم . قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على

---

(١) لشيخ الاسلام ابن تيمية بحث نفيس فى معنى تردده تعالى نشرناه فى كتابنا مشكلات الأحاديث .

عربى . ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ،الناس من آدم ، وآدم من تراب» .

وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم فى مسئلة الفقير الصابر ، والغنى الشاكر ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وإن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق ، فالمسئلة فاسدة فى نفسها فان التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى . ولهذا والله أعلم قال عمر رضى الله عنه : الغنى والفقر مطيتان لا أبالى أيهما ركبت والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده كما قال تعالى (فأما الإنسان اذا ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن) الآية ، استويا الفقير الصابر والغنى للشاكر فى التقوى استويا فى الدرجة ، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله ، فان الفقر والغنى لا يوزنان وإنما يوزن الصبر والشر والشكر .

ومنهم من أحال المسئلة من وجه آخر وهو أن الايمان نصف صبر ونصف شكر ، فكل منهما لا بد له من صبر وشكر ، وإنما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعا من الشكر ،وأخذوا فى الترجيح فجردوا غنيا منفقا ، متصدقا باذلا ماله فى وجوه القرب شاكرا الله عليه ، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأداء العبادات صابراً على فقره . وحينئذ يقال إن أكملهما أطوعهما وأتبعهما، فان تساويا تساوت درجتهما والله أعلم .

ولو صح التجريد لصح أن يقال أيما أفضل : معافى شاكر أو مريض صابر أو مطاع شاكر أو مهان صابر أو آمن شاكر أو خائف أو صابر ، ونحو ذلك .

قوله (والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى) .

ش : تقدم أن هذه الخصال هى أصول الدين ، وبها أجاب النبى (ص) فى حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته حين جاء إلى النبى (ص) على صورة رجل أعرابى وسأله عن الاسلام ، فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن

أستطعت اليه سبيلا ، وسأله عن الايمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشره ،وسأله عن الاحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك :

وقد ثبت كذلك فى الصحيح عنه (ص) أنه كان يقرأ فى ركعتى الفجر تارة بسورتى الاخلاص (قل يا أيها الكافرون ـ وقل هو الله أحد) وتارة بآيتى الايمان والاسلام التى فى سورة البقرة (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) الاية فى آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الاية وفسر (ص) الايمان فى حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته قال لهم «آمركم بالايمان بالله وحده، أتدرون ما الايمان بالله وحده ؟شهادة أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ماغنمتم » ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد اخبر فى غير موضع أنه لابد من ايمان القلب . فعلم أن هذه مع ايمان القلب هو الايمان . وقد تقدم الكلام على هذا .

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لايثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة فان تلك انما فسرتها السنة والايمان بين معناه الكتاب والسنة فمن الكتاب قوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الاية وقوله تعالى (انما الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الاية . وقوله تعالى (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فنفى الايمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس . فمن تركها كان من أهل الوعيد لم يكن قد أتى بالايمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب .

ولا يقــــال أن بين تفسير النبى صلى الله عليه وسلم الايمان فى حديث جبرائيل وتفسيره اياه فى حديث وفد عبد القيس معارضة ، لأنه فسر الايمان فى حديث

جبرائيل بعد تفسير الإسلام فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام ، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره ، بخلاف حديث وفد عبد القيس لأنه فسره إبتداء لم يتقدم قبله تفسير الاسلام . ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الايمان ، فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه .

ومما يسأل عنه أنه إذا كان ماأوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل المذكور ، فلم قال إن الاسلام هذه الخصال الخمس .

وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الاسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال انقياده .

والتحقيق إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقا الذي يجب لله على عباده محضه على الاعيان ، فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله مخلصا له الدين ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب مصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل إما أن يكون فرضا على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك .

وإما ما يجب بسبب حق الادميين يختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه من قضاء الديون ورد الأمانات والغصوب والانصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض وحقوق الزوجة والأولاد وصلة الأرحام ونحو ذلك ، فان الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو ، بخلاف صوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة ، فان الزكاة وإن كانت مالياً فانها واجبة لله والأصناف الثمانية مصارفها ، ولهذا وجبت فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا إذنه ، ولم تطلب من الكفار ، وحقوق العباد لا يشترط لها النية ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار ، وما يجب حقاً لله تعالى

كالكفارات هو بسبب من العبد وفيها معنى العقوبة، ولهذا كان التكليف شرطاً في الزكاة فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى لما عرف في موضعه .

وقوله · والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى ، تقدم قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل « وتؤمن بالقدر بالقدر خيره وشره » وقال تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وقال تعالى (إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ـــ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) الآية .

فان قيل كيف وجه الجمع بين قوله (كل من عند الله) وبين قوله (فمن نفسك) قيل : قوله (كل من عند الله) الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله (فمن نفسك) أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأنا كتبتها عليك . والمراد بالحسنة هنا النعمة ، وبالسيئة البلية في أصح الأقوال ، وقد قيل الحسنة الطاعة والسيئة المعصيه وقيل الحسنة ما أصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم أحد .

والقول الأول شامل لمعنى القولى الثالث والمعنى الثاني ليس مرادا دون الاول قطعاً ، ولكن لامنافاة بين أن يكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه مع أن الجميع مقدر ، فان المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيآت الجزاء مع أنها من سيآت العمل والحسنة الثانية ، قد تكون من ثواب الأولى كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وليس القدرية أن يحتجوا بقوله تعالى (فمن نفسك) فانهم يقولون إن فعل العبد حسنة كان أو سيئة فهو منه لامن الله ، والقرآن قد فرق بينهما وهم لايفرقون ، ولأنه قال تعالى كل من عند الله) فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله وهم لايقولون

بذلك فى الأعمال بل فى الجزاء . وقوله بعد هذا (ما أصابك من حسنة) ومن سيئة مثل قوله (وأن تصبهم حسنة . وإن تصبهم سيئة) وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التى هى النعم ، وبين السيئات التى هى المصائب . فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسان ، لأن الحسنة مضافة إلى الله إذ هو أحسن بها من كل وجه ، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضى الإضافة اليه . وأما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة ، وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ، فان الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير .

ولهذا كان النبى «ص» يقول فى الاستفتاح « والخير كله بيديك ، والشر ليس اليك » أى فانك لا تخلق شراً محضا ، بل كل ما تخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير ، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس ، فهذا شر جزئى إضافى فأما شر كلى أو شر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه . وهذا هو الشر الذى ليس اليه ، ولهذا لا يضاف الشر اليه مفردا قط بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات كقوله تعالى (الله خالق كل شىء ـ كل من عند الله) وإما أن يضاف إلى السبب كقوله (من شر ما خلق) وإما أن يحذف فاعله كقول الجن وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل لله من الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى .

وليس إذا وقع فى المخلوقات ما هو شر جزئى بالإضافة ، يكون شراً كليا عاما . بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحة للعباد كالمطر العام وكارسال رسولا عاما . وهذا مما يقتضى أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التى أيد بها الصادقين ، فان هذا شر عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم . وليس هذا كالملك الظالم والعدو ، فالملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه ، وقد قيل ستون سنة بامام ظالم خير من ليلة واحدة بلا امام ، وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك خير فى الدين كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه . ويرجعون فيه إلى الله

ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدوان .

ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة ، وأما المتنبؤن الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لابد أن يهلكهم ، لأن فسادهم عام فى الدين والدنيا والآخرة قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) .

وفى قوله (فمن نفسك) من الفوائد أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها ، فان الشر كامن فيها لايجىء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤا إليه ، فان ذلك من السيئات التى أصابته ، وهى إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فانه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لكن الذنوب هى لوازم نفس الإنسان وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة ، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب ، ليس كما يقوله بعض المفسرين أنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى ؟ وإن المراد التثبيت أو مزيد الهداية بل العبد محتاج الى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله والى ما يتركه من تفاصيل الأمور فى كل يوم والى أن يلهمه أن يعمل ذلك ، فانه لا يكفى مجرد علمه أن يجعله مريداً للعمل بما يعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتديا ومحتاج الى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة ، فان المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، ومالا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، ومالا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ، ونحن محتاجون الى الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهى آخر الرتب .

وبعد ذلك كله هداية أخرى ، وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الاخرة ، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء ، فى كل صلاة لفرط حاجتهم إليه ، فليسوا إلى شىء أحوج منهم إلى هذا الدعاء ، فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر ، فقد بين القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله ، وإن الحسنات كلها من الله تعالى .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يشكر سبحانه وأن يستغفره العبد من ذنوبه وأن لايتوكل إلا عليه وحده ، فلايأتى بالحسنات إلا هو ، فأوجب ذلك توحيده والتوكل عليه ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الامور كان النبى «ص» يجمعها فى الصلاة كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول « ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، فهذا حمد وهو شكر لله تعالى ، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك « لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته ، لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً ، وبداية ونهاية ، هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ولامعطى لما منع ، وتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً ، وإن العباد وإن كانوا يعطون جدا ملكا وعظمة وبختاً ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن كأصحاب المكاشفات والتشرفات الخارقة ، فلا ينفع ذا الجد منك الجد أى لاينجيه ولايخلصه ، ولهذا قال لاينفعه منك ، ولم يقل ولاينفعه عندك . لانه لو قيل ذلك أوهم أنه لايتقرب به إليك ، لكن قدلا يضره فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد أو تحقيق قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فإنه لو قدر أن شيئاً من الأسباب يكون مستقلا بالمطلوب ، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره ، لكان الواجب أن لايرجى إلا الله ولايتوكل الا عليه ولايسأل الا هو ولايستغاث الا به ، ولا يستعان الا هو ، فله الحمد واليه المشتكى

وهو المستعان وبه المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب ، بل لابد من انضمام أسباب أخر إليه ، ولابد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود ، فكل سبب فله شريك وله ضد ، فاذا لم يعاونه شريكه ولم ينصرف عنه ضده ، لم تحصل مشيئة ، فالمطر وحده لاينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لايغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لايفيد إن لم تصرف عنه المفسدات .

والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوى والفعل ، فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه ولو كان ملكا مطاعاً . ولابد أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها ، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع :

وكل سبب معين فانما هو جزء من المقتضي ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضي تام وإن سمي مقتضياً وسمى سائر ماهيئيه شروطا ، فهذا نزاع لفظي وأما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، وعلم أنه لايستحق أن يسأل غيره فضلا عن أن يعبد غيره ولا يتوكل على غيره ولايرجى غيره .

قوله (ونحن مؤمنون بذلك كله لانفرق بين أحد من رسله ، ونصدقهم كلهم على ماجاءوا به) .

ش : الإشارة (بذلك) إلى ماتقدم مما يجب الإيمان به تفصيلا ، وقوله : (لا نفرق بين أحد من رسله) الى آخر كلامه أي لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم فان من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل ، قال تعالى (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا) فان المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن به منهم ، موجود في الذي لم يؤمنوا به ، وذلك

الرسول الذى آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين ، فاذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافراً بمن فى زعمه أنه يؤمن به لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم ، فكان كافراً حقاً وهو يظن أنه مؤمن ، فكان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

قوله (وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين ، وهم فى مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل فى كتابه (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وإن شاء عذبهم فى النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته ، ذلك بأن الله تعالى مولى أهل معرفته ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته ، اللهم يا ولى الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به) .

ش : فقوله وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون ، رد لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر فى النار ، لكن الخوارج يقولون بتكفيرهم ، والمعتزلة بخروجهم من الإيمان لا بدخولهم فى الكفر ، بل لهم منزلة بين منزلتين كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله .

وقوله ، وأهل الكبائر من أمة محمد ، تخصيصه أمة محمد يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قبل نسخ تلك الشرائع حكمهم مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد ، وفى ذلك نظر ، فان النبى «ص» أخبر أنه يخرج من النار من كان فى قلبه ذرة من إيمان ، ولم يخص أمته بذلك ، بل ذكر الإيمان مطلقاً فتأمله ، وليس فى بعض النسخ ذكر الأمة .

وقوله : « فى النار » معمول لقوله لا يخلدون ، وإنما قدمه لأجل السجعة لا أن يكون « فى النار » خبر لقوله وأهل الكبائر كما ظنه بعض الشارحين .

واختلف العلماء فى الكبائر على أقوال ، فقيل سبعة ، وقيل سبعة عشر ،

وقيل ما اتفقت الشرائع على تحريمه ، وقيل ما يسد باب المعرفة بالله ماودونها ، ذهاب الأموال والأبدان ، وقيل سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى مادونها ، وقيل لاتعلم أصلا أو أنها أخفيت كليلة القدر ، وقيل أنها الى السبعين أقرب ، وقيل كل مانهى الله عنه فهو كبيرة . وقيل أنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب . وهذا أمثل الأقوال .

واختلفت عبارات السلف فى تعريف الصغائر منهم من قال : الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا وحد الاخرة ، ومنهم من قال : كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار . ومنهم من قال : الصغيرة ما ليس فيها حد فى الدنيا ولا وعيد فى الاخرة . والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب فان الوعيد الخاص فى الاخرة كالعقوبة الخاصة فى الدنيا أعنى المقدرة فالتعزير فى الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو الغضب ، وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره ، فانه يدخل كل ما يثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وأمثال ذلك .

وترجيح هذا القول من وجوه (أحداها) أنه هوالمأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينه وابن حنبل وغيرهم (الثانى) إن الله تعالى قال : (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره . وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر (الثالث) أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكر الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى من خطاب الشارع (الرابع) إن هذا الضابط يمكن الفرق بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الأقوال . فان من قال سبع أو سبعة عشر أو الى السبعين أقرب مجرد دعوى .

ومن قال ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضى أن شرب

الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر ، وأن الحبة من مال اليتيم والسرقة لها والكذبة الواحدة الخفيفه ونحو ذلك من الكبائر ، وهذا فاسد ، ومن قال ماسد باب المعرفة بالله أو ذهاب الأموال والأبدان يقتضى أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر ، وهذا فاسد .

ومن قال أنها سميت كبائر بالنسبة إلى مادونها أو أكل مانهى الله عنه فهو كبيرة يقتضى أن الذنوب فى نفسها لا تنقسم الى صغائر وكبائر ، وهذا فاسد لأنه خلاف النصوص الداله على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر ، ومن قال أنها لاتعلم أصلا أو إنها مبهمة ، فانما أخبر عن نفسه إنه لإيعلمها ، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره والله أعلم .

وقوله : وإن لم يكونوا تائبين ، لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب ، وإنما الخلاف فى غير التائب .

وقوله : بعد أن لقوا الله تعالى عارفين ، لوقال « مؤمنين » بدل قوله «عارفين» كان أولى ، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر ، وانما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم ، وقوله مردود باطل كما تقدم ، فان إبليس عارف بربه قال (رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وكذلك فرعون وأكثر الكافرين ، قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ـ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون الله) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وكأن الشيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التى يشير اليها أهل الطريقة ، وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر . بل هم سادات الناس وخاصتهم .

وقوله : وهم فى مشيئة الله وحكمه ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، الى آخر كلامه . فصل الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك أكبر الكبائر . كما قال

صلى الله عليه وسلم وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور ، وعلق غفران مادونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى. ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعدالتوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هوالغفور الرحيم) فوجبأن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة ،

وقوله : ذلك بإن الله مولى أهل معرفته . فيه مؤاخذة لطيفة كما تقدم

وقوله : اللهم يا ولى الإسلام وأهله مسكنا بالاسلام . وفى نسخة : ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به . روى شيخ الاسلام أبو اسماعيل الانصارى فى كتابه للفاروق بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : كان من دعاء رسول الله (ص) يقول « يا ولى الاسلام وأهله مسكنى بالاسلام حتى ألقاك عليه » ومناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة . وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه حيث قال (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وبه دعا السحرة الذين كانوا أول مؤمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمنى الموت فلا دليل له فيه . فان الدعاء إنما بالموت على الاسلام لا بمطلق الموت . ولا بالموت الآن والفرق ظاهر .

قوله : ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم)

ش : قال صلى الله عليه وسلم « صلوا خلف كل بر وفاجر »رواه مكحول عن أبي هريرة رضى الله عنه وأخرجه الدارقطنى وقال . مكحول لم يلق أبا هريرة وفى إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه . وقد احتج به مسلم فى صحيحه . وخرج الدارقطنى أيضاً وأبو داود عن مكحول عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله (ص) « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم براً . كان أو فاجراً

وإن عمل بالكبائر ، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً وإن عمل بالكبائر . وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكذا أنس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً .

وفي صحيحه أيضاً أن النبي «ص» قال « يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم » وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلوا خلف من قال لا إله إلا الله وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله » أخرجه الدارقطني من طرق وضعفها .

أعلم رحمك الله وإيانا أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لا يعلم منه بدعة ولا فسقاً باتفاق الأئمة ، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ، ولا أن يمتحنه فيقول ماذا تعتقد . بل يصلي خلف المستور الحال ، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذى لا يمكنه الصلاة إلا خلفه كامام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفه ونحو ذلك فان المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف ، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء . والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها ، فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعه والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج ابن يوسف . وكذلك أنس رضي الله عنه كما تقدم وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتى صلى يوم الصبح مرة أربعاً ، ثم قال أزيدكم ؟ فقال له ابن مسعود مازلنا معك منذ اليوم في زيادة .

وفي الصحيح أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حضر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان إنك إمام عامة ، وهذا الذى صلى بالناس إمام فتنة فقال يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن مايعمل الناس ، فاذا أحسنوا فأحسن معهم ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

والفاسق والمبتدع صلاته فى نفسها صحيحة . فاذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب .

ومن ذلك أن من أظهر بدعه وفجوراً لايرتب إماماً للمسلمين ، فانه يستحق التعزير حتى يتوب ، فاذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسناً ، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك فى إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهى الناس عن مثل ذنبه ، فمثل هذا إذا ترك الصلاه خلفه كان فى ذلك مصلحة شرعية ، ولم يفت المأموم الجمعة ولا جماعة، وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة ، فهنا لايترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضى الله عنهم .

وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولا الأمور . ليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية ، فهنا لايترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلف الأفضل أفضل ، فاذا أمكن الانسان أن لايتقدم مظهراً للمنكر فى الإمامة وجب عليه ذلك . لكن إذا ولا غيره ولم يمكنه صرفه عن الامامة ،أو كان لا يتمكن من صرفه عن الامامة إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان ، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالامام الفاجر لاسيما إذا كان التخلف عنها لايدفع فجوراً . فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر. وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد العلماء منهم من قال يعيد ، ومنهم من قال لا يعيد وموضع بسط ذلك فى كتب الفروع .

وأما الامام إذا نسى أو أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم للحديث المتقدم . وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسياً الجنابة

فأعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالإعاده ، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة أعاد عند أبى حنيفه خلافاً لمالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع . ولو علم أن إمامه يصلى على غير وضوء فليس له أن يصلى خلفه لأنه لاعب وليس بمصل .

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولى الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع فى مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه فى موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته فى ذلك وترك رأيهم لرأيه . فان مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية . ولهذا لم يجز الحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض ، والصواب المقطوع به صحه صلاة بعض هؤلاء خلف بعض

ويروى عن أبى يوسف أنه لما حج مع هرون الرشيد فاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس ، فقيل لأبى يوسف أصليت خلفه ؟ قال سبحان الله ، أمير المؤمنين .

يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع ، وحديث أبى هريرة الذى رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يصلون لكم فان أصابوا فلكم ولهم ، وإن أخطأوا فلكم وعليهم » نص صحيح صريح فى أن الامام إذا أخطأ فخطأه عليه لا على المأموم ، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً . أو فعل محظورا اعتقد أنه ليس محظوراً .

ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه ، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية إن الامام إذا ترك مايعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتدائه به ، فان الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضى إلى الفساد .

وقوله « وعلى من مات منهم » أى ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار ، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه خلافاً لأبى يوسف لا الشهيد ، خلافاً لمالك والشافعى رحمهما الله على ماعرف فى موضعه .

لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان إنا لانترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلى . ولكن الكلام لأهل الإسلام قسمان : إما مؤمن وإما منافق ، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه صلى عليه . فاذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه ، وكان عمر رضى الله عنه لا يصلى على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان فى غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله (ص) عن الصلاة على المنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعة أو العملية الفجورية ما له ، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) .

فالتوحيد أصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كما له ، فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات إما واجب وإما مستحب ،وهو على نوعين عام وخاص، أما العام فظاهر كما فى هذه الآية ، وأما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت . فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة.وهم مأمورون فى صلاتهم عليه أن يدعوا له .كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » .

قوله) ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً) .

ش : يريد أنا لانقول عن أحد معين من أهل القبلة أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من أخبر الصادق (ص) أنه من أهل الجنة كالعشرة

رضى الله عنهم . وإن كنا نقول إنه لابد أن يدخل النار من أهل الكبائر من يشاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين . ولكنا نقف فى الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم . لان الحقيقة باطنة ، وما مات عليه لانحيط به . لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسىء .

والسلف فى الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال (أحدها) أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعى (والثانى) إنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص . وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث (والثالث) إنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون كما فى الصحيحين «أنه مر بجنازة فأثنوا عليها بخير . فقال النبى (ص) وجبت . ومر بأخرى فأثنى عليها بشر . فقال وجبت ، وفى رواية كرر وجبت ثلاث مرات ، فقال عمر يارسول الله ماوجبت فقال رسول الله (ص) ، هذا أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض» وقال (ص) «توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار، قالوا بم يارسول الله؟ قال بالثناء الحسن والثناء السىء» فأخبر ان ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار .

قوله (ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق مالم يظهر منهم شىء من ذلك . ونذر سرائرهم إلى الله تعالى) .

ش : لأنا قد أمرنا بالحكم الظاهر ، ونهينا عن الظن واتباع ماليس لنا به علم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم) الآية . وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

قوله (ولا نرى القتل على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف .

ش : فى الصحيح عن النبى (ص) أنه قال « لا يحل دم امرىء مسلم

يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله إلا باحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

قوله (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة مالم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة) :

ش قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وفى الصحيح عن النبي (ص) أنه قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن عصى الأمير فقد عصانى » وعن أبى ذر رضى الله عنه قال « إن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف » وعند البخارى ولو لحبشى كأن رأسه زبيبة . وفى الصحيحين أيضاً « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فان أمر بمعصيه فلا سمع ولا طاعة » .

وعن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر ؟ فقال نعم ، فقلت هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن قال قلت ومادخنه ؟ قال — قوم يستنون بغير سنتى ويهدوا بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر فقلت هل بعد ذلك الخير من الشر ؟ قال — نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت يارسول الله صفهم لنا ، قال هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا — قلت يارسول الله فما ترى إن أدركنى ذلك . قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام ، قال — فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر . فانه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية وفى رواية — فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله «ص» قال « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم فقلنا يارسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال « لا » ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولاينزع يداً من طاعة » .

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولى الأمر ما لم يأمروا بمعصية ، فتأمل قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) كيف قال وأطيعوا الرسول ، ولم يقل وأطيعوا أولى الأمر منكم ؟ لأن أولى الأمر لا يفردون بالطاعة بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله . وأعاد الفعل مع الرسول للدلالة على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، فان الرسول لا يأمر بغير طاعة الله ، بل هو معصوم فى ذلك ، وأما ولى الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله .

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا ، فلانه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف مايحصل من جورهم ، بل فى الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فان الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل ، قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالى (أولما أصابتكم مصيبة « قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم) وقال تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك — وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) .

فاذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم ، وعن مالك بن دينار أنه جاء فى بعض كتب الله « أنا الله مالك الملك . قلوب الملوك بيدى . فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة . ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة . فلاتشغلوا أنفسكم بسبب الملوك لكن توبوا أعطفهم عليكم » .

قوله (ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة)

ش : السنة طريقة الرسول (ص) والجماعة المسلمون وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال . قال تعالى لنبيه (ص) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وقال (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقال تعالى(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وقال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون)

وثبت فى السنن الحديث الذى صححه الترمذى عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله (ص) موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال قائل : يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة — وقال (ص) إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة . وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاثة وسبعين ملة . يعنى الأهواء كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة . وفى رواية قالوا : من هى يارسول الله ؟ قال ما أنا عليه وأصحابى . فبين صلى الله عليه وسلم إن عامة المختلفين هالكون من الجانبين الا أهل السنة والجماعة .

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حيث قال : من كان منكم

مسلكنا فليستن بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد «ص» ، كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً . وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان إن شـــاء الله تعالى عند قول الشيخ « ونرى الجماعة حقاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً » .

قوله (ونحب أهل العدل والأمانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة) .

ش : وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية ، فان العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، وكمال الذل ونهايته ، فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وإن كانت المحبة لا يستحقها غيره ، فغير الله يحب فى الله لا مع الله ، فان المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض . ويوالى من يواليه ويعادى من يعاديه ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه فى كل حال ، والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من يحبه الله . والله لايحب الخائنين ولايحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم أيضاً ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى .

وفى الصحيحين عن النبى «ص» « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله . ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته .

ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه ، ولابد أن يحب مايحبه من جهادهم كما قال تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير

والشر ، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة . والحب والبغض ، فيكون محبوباً من وجه ، ومبغوضا من وجه ، والحكم للغالب . وكذلك حكم العبد عند الله فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر كما قال « ص » فيما يروى عن ربه عزوجل « وماترددت فى شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى ا.لمؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه » فبين أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين وهو سبحانه يحب مايحب عبده المؤمن ، ويكره ما يكرهه وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال « وأنا أكره مساءته » ، وهو سبحانه قضى بالموت ، فهو يريد كونه ، فسمى ذلك تردداً ، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك إذ هو مفضٍ إلى ما هو أحب منه .

قوله (ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه) .

ش : تقدم فى كلام الشيخ رحمه الله أنه ماسلم فى دينه إلا من سلم لله عزوجل. ولرسوله صلى الله عليه وسلم ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه ، ومن تكلم بغير علم فانما يتبع هواه ، وقد قال تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) وقال تعالى (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

وقد أمر الله نبيه « ص » أن يرد علم ما لم يعلم إليه فقال تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض — قل ربى أعلم بعدتهم) وقد قال «ص» لما سئل عن أطفال المشركين « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وقال عمر رضى الله عنه : اتهموا الرأى فى الدين فلقد رأيتنى يوم أبى جندل

وإنى لأرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيى وذلك يوم أبى جندل والكتاب يكتب . وقال : اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قال : أكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب وأبيت فقال «ياعمر ترانى قدرضيت وتأبى » وقال أيضا رضى الله عنه «السنة ماسنه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لاتجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة».

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه . أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم .

وذكر الحسن بن على الحلوانى حدثنا عارم حدثنا حماد بن زيد عن سعيد ابن أبى صدقة عن ابن سيرين قال . لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبى بكر ، ولم يكن بعد أبى بكر أهيب لما لايعلم من عمر رضى الله عنه . وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ولافى السنة أثرآ فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأيي ، فان يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمنى وأستغفر الله :

قوله (ونرى المسح على الخفين فى السفر والحضر كما جاء فى الأثر) .

ش : تواترت السنة عن رسول الله «ص» بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة فيقال لهم : الذين نقلوا عن النبي «ص» الوضوء قولا وفعلا ، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضأوا على عهده وهو يراهم ويقرهم ، ونقلوه إلى من بعدهم ، أكثر عددا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية . فان جميع المسلمين كانوا يتوضأون على عهده ولم يتعلموا الوضوء منه ، فان هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم فى الجاهلية وهم قد رأوه يتوضأ ما لايحصى عدده إلا الله تعالى ونقلوا عنه غسل الرجلين فى ما شاء الله من الحديث حتى نقلوا عنه من غير وجه فى كتب الصحيح وغيرها أنه قال « ويل للاعقاب وبطون الأقدام من النار ».

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لاتدعو إليها الطباع ، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال ، فلو جاز الطعن فى تواتر صفة الوضوء لكان فى نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز وإذا قالوا . لفظ الآية

ثبت بالتواتر الذى لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ فثبوت التواتر فى نقل الوضوء عنه أولى وأكمل ولفظ الآية لايخالف ماتواتر من السنة ، فان المسح كما يطلق ويراد به الإصابة كذلك يطلق ويراد به الإسالة كما تقول العرب تمسحت للصلاة ، وفى الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذى هو قسيم الغسل بل المسح الذى الغسل قسم منه فانه قال (إلى الكعبين) ولم يقل إلى الكعاب كما قال (إلى المرافق) فدل على أنه ليس فى كل رجل كعب واحد كما فى كل مرفق واحد بل فى كل رجل كعبان . فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمتين الناتئين وهذا هو الغسل ، فان من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين وجعل الكعبين فى الآية غاية يرد قولهم . فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنة .

وفى الآية قراءتان مشهورتان : النصب والخفض ، وتوجيه إعرابها مبسوط فى موضعه ، وقراءة النصب نص فى وجوب الغسل لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحداً كقوله : « فلسنا بالجبال ولا الحديدا »

وليس معنى مسحت برأسى ورجلى هو معنى مسحت رأسى ورجلى ، بل ذكر الباء مفيد معنى زائد على مجرد المسح ، وهو إلصاق شىء من الماء بالرأس ، فتعين العطف ، قوله (وأيديكم) فالسنة المتواترة تقضى على ما يفهمه بعض كما الناس من ظاهر القرآن ، فان الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه . قال عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهم أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى (ص) عشر آيات لم يتجاوزها حتى يتعلموا معناها ، وفى ذكر المسح فى الرجلين تنبيه على قلة الصب فى الرجلين فان السرف يعتاد فيها كثيرا ، والمسألة معروفة والكلام عليها فى كتب الفروع .

قوله (والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلها شىء ولا ينقضها) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة حيث قالوا لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد وينادى من السماء اتبعوه ، وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل . وهم شرطوا فى الإمام أن يكون معصوما اشتراطا بغير دليل . بل فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى قال سمعت رسول الله «ص» يقول « خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قال قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك قال - لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه والى فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته — وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث فى الإمامة .

ولم يقل أن الإمام يجب أن يكون معصوماً : والرافضة أخسر الناس صفقة فى هذه المسئلة لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الامام المعدوم الذى لم ينفعهم فى دين ولا دنيا . فانهم يدعون أنه الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكرى الذى دخل السرداب فى زعمهم سنة ستين ومائتين أو قريبا من ذلك بسامرا وقد يقيمون هناك دابة إما بغلة واما فرسا ليركبها إذا خرج . ويقيمون هناك فى أوقات عينوا فيها من ينادى عليه بالخروج يامولانا أخرج . يامولانا أخرج ، ويشهرون السلاح ولا أحد هناك يقاتلهم إلى غير ذلك من الأمور التى يضحك عليهم منها العقلاء .

وقوله - مع أولى الأمر برهم وفاجرهم - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر . فلابد من سائس يسوس فيهما . ويقاوم فيها العدو . وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر .

قوله (ونؤمن بالكرام الكاتبين فان الله قد جعلهم علينا حافظين) .

ش : قال تعالى (وإنا عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون — وقال تعالى (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه

من أمر الله) وقال تعالى (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وقال تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وقال تعالى (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) .

وفى الصحيح عن النبي «ص» أنه قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ، فيقولون أتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون — وفى الحديث الآخر — إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم — جاء فى التفسير : اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال،صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وواحد أمامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، بدلا ، حافظان وكاتبان ، وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول «ص» مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله قال وإياى ، لكن أعاننى الله عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير ، الرواية بفتح الميم من ـ فأسلم ـ ومن رواه فأسلم برفع الميم فقد حرف لفظه . ومعنى فأسلم أى فاستسلم وانقاد لى فى أصح القولين . ولهذا قال فلا يأمرنى إلا بخير ومن قال أن الشيطان صار مؤمنا فقد حرف معناه . فان الشيطان لا يكون مؤمنا (١) .

ومعنى يحفظونه من أمر الله قيل حفظهم له من أمر الله . أى الله أمرهم بذلك يشهد لذلك قراءة من قرأ يحفظونه بأمر الله .

---

(١) قوله ـ ومن قال إن الشيطان صار مؤمناً فقد حرف معناه ـ هذا خطأ من الشارح فى لفظ الحديث فإن لفظه ـ قرينه من الجن ـ والجن فيهم المؤمن والكافر . والشياطين هم كفارهم ،

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية لأنها فعل القلب فدخلت فى عموم يعلمون ما تفعلون ، ويشهد قوله (ص) قال الله عز وجل «وإذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فان عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فان عملها فاكتبوها عشراً» وقال رسول الله (ص) : «قالت الملائكة ذاك عبد يريد أن يعمل سيئه وهو أبصر به فقال ارقبوه ، فان عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها حسنة انما تركها من جراى» خرجاهما فى الصحيحين واللفظ لمسلم .

قوله (ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين) .

ش : قال تعالى : هل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ولا تعارض هذه الآية قوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى) لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده . كل ذلك باذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره . فصحت اضافة التوفى الى كل بحسبه .

وقد اختلف فى حقيقة النفس ماهى . وهل هى جـــزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه ، أو جسم مساكن له. مودع فيه . أو جوهر مجرد ، وهل هى الروح أو غيرها . وهل الأمارة وهل اللوامة والمطمئنة نفس واحدة أم هى ثلاثة أنفس .وهل تموت الروح أو الموت للبدن وحده . وهذه المسألة تحتمل مجلداً . ولكن أشير الى الكلام عليها مختصراً ان شاء الله تعالى .

فقيل الروح قديمة . وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . وهذا معلوم بالضرورة من دينهم أن العالم محدث . ومضى على هذا الصحابة والتابعون حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم

أنها قديمة ،واحتج بأنها من أمر الله . وأمره غير مخلوق . وبأن أضافها إليه قوله (قل الروح من أمر ربى) وبقوله (ونفخت فيه من روحى) كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده ، وتوقف آخرون . واتفق أهل السنة والجماعة على أنها مخلوقة . وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزى وابن قتيبة وغيرهما . ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة . قوله تعالى : (الله خالق كل شيء) فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما . ولا يدخل فى ذلك صفات فانها داخله فى مسمى اسمـــه .

فالله تعالى هو الاله الموصوف بصفات الكمال . فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته داخلة فى مسمى اسمه . فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق . ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته وإنما هى من مصنوعاته . ومنها قوله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) وقوله تعالى لزكريا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) والانسان اسم لروحه وجسده . والخطاب لزكريا لروحه وبدنه ، والروح توصف بالوفاة والقبض والامساك والارسال . وهذا شأن المخلوق المحدث .

وأما احتجاجهم بقوله (من أمر ربى) فليس المراد هنا بالأمر الطلب بل المراد به المأمور والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول ، وهذا معلوم مشهور .

وأما استدلالهم باضافتها إليه بقوله (من روحى) فينبغى أنه يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان : صفات لاتقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له ، وكذا وجهه ويده سبحانه (والثانى) إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، لكن إضافته تقتضى تخصيصاً وتشريفاً يتميز بها المضاف عن غيره .

واختلف فى الروح هل هى مخلوقة قبل الجسد أم بعده ، وقد تقدم عند ذكر الميثاق الاشارة إلى ذلك .

واختلف فى الروح ماهى ؟ فقيل هى جسم ، وقيل عرض ، وقيل لاندرى ما الروح أجوهر أم عرض ؟ وقيل ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع ، وقيل هى الدم الصافى الخالص من الكدرة والعفونات ، وقيل هى الحرارة الغريزية وهى الحياة ، وقيل هى جوهر بسيط منبعث فى العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير ، وهى على ما وصفت من الانبساط فى العالم غير منقسمة الذات والبنية ، وأنها فى حيوان العالم بمعنى واحد لاغير وقيل النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس وقيل غير ذلك .

والناس فى مسمى الإنسان هل هو الروح فقط أو البدن فقط أو مجموعهما أو كل منهما ، وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه هل هو اللفظ أو المعنى فقط أوهما أو كل منهما فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه ، والحق أن الإنسان اسم لهما ، وقد يطلق على أحدهما بقرينة . وكذلك الكلام .

والذى يدل على الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل أن النفس جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوارنى علوى خفيف حى متحرك ينتقل فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم . فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف سارياً فى هذه الأعضاء وإفادتها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية . وإذا فسدت هذه بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها . وخرجت عن قبول الآثار ، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح . والدليل على ذلك قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) الاية . ففيها الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها . وقوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم) ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها ووصفها بالإخـــراج والخروج والاخبار بعذابها ذلك اليوم . والاخبار عن مجيئها إلى ربها .

وقوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) الآية ففيها الاخبار بتوفي النفس بالليل وبعثها إلي أجسادها بالنهار ، وتوفى

الملائكة لها عند الموت ، وقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وأدخلى جنتى) ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضى .

وقال «ص» إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، ففيه وصفه بالقبض وإن البصر يراه . وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث بلال « قبض أرواحكم وردها عليكم » وقال صلى الله عليه وسلم « نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة » وسيأتى فى الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لهـــا . وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء ، وأنها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريح ، ومن الكافر كأنتن ريح ، إلى غير ذلك من الصفات ، وعلى ذلك أجمع السلف ودل العقل ، وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسده التى لا يعارض بها ما دل عليه نصوص الوحى والأدلة العقليـة .

وأما اختلاف الناس فى مسمى النفس والروح هل هما متغيران أو مسماهما واحد ، فالتحقيق أن النفس تطلق على أمور ، وكذلك الروح فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة ، فالنفس تطلق على الروح ولكن غالب ما تسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن ، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها ، وتطلق على الدم ففى الحديث « ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه » والنفس العين ، يقال أصابت فلاناً نفس أى عين ، والنفس الذات « فسلموا على أنفسكم - لا تقتلوا أنفسكم » ونحو ذلك . وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس .

وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا — نزل به الروح الأمين) وتطلق الروح على الهواء المتردد فى بدن الإنسان أيضاً . وأما ما يؤيد الله به أولياءه فهى روح أخرى كما قال تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

وكذلك القوى التى فى البدن فانها أيضاً تسمى أرواحا فيقال الروح الباصر

والروح السامع ، والروح الشام ، وتطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفه بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ، ونسبو هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فالعلم روح ، والاحسان روح ، والمحبة روح والتوكل روح ، والصدقة روح ، والناس متفاوتون فى هذه الروح فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحيا . ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً . وقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة ولوامة . وأماره . قالوا وإن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه هذه كما قال تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة — ولا أقسم بالنفس اللوامة — إن النفس لاماره بالسوء) .

والحقيق أنها نفس واحدة لها صفات فهى أمارة بالسوء ، فاذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم بين الفعل والترك ، فاذا قوى الايمان صارت مطمئنة ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » ، وقوله « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » الحديث .

واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة تموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت ، وقد قال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون لاتموت الارواح فانها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دل على ذلك الاحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها ، والصواب أن يقـــال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فان أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكليه فهى لاتموت بهذا الإعتبار ، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب كما سيأتى إن شاء الله تعالى . وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى ، وتلك الموتة هى مفارقة الأرواح للجسد .

وأما قول أهل النار ربنا أمتنا اثنتين وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فالمراد أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور ، وليس فى ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات

وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور لايلزم منه موتها فان الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء . وأشرقت الأرض بنور ربها وليس ذلك بموت . وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتا . والذى يدل عليه أن نفخة الصعق والله أعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلاتدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله اعلم .

قوله (وبعذاب القبر لمن كان له أهل ، وسؤال منكر ونكير فى قبره عن ربه ودينه ونبيه على ماجاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن الصحابة رضوان الله عليهم والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران) .

ش : قال تعالى (وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليهم غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون — يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون —وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لايعلمون) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر ، لان كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا أو المراد أعم من ذلك .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤسنا الطير وهو يلحد له فقال

« أعوذ بالله من عذاب القبر » ثلاث مرات . ثم قال العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن ، وذلك الحنوط ، وتخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه به فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربون إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله فيقول الله عزوجل أكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض فانى منها خلقتها وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان له ما دينك ؟ فيقول دينى الاسلام ، فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له : ما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره . قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الذى يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : يارب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف

المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض فيصعدن بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا فيقولون فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل « اكتبوا كتابه فى سجيل فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا » ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ؟ فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة » .

رواه الامام أحمد وأبو داود . وروى النسائى وابن ماجه أوله ورواه الحاكم وأبو عوانة الاسفرائينى فى صحيحيهما وابن حبان .

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث ، وله شواهد من الصحيح فذكر البخارى رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله (ص) قال « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول له انظر انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعاً ، قال قتادة وروى لنا أنه يفسح له فى قبره ، الحديث ،

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى (ص) مر بقبرين فقال « انهما ليعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لايستبرى من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » وفى صحيح أبى حاتم عن أبى هريرة قال : قال النبى (ص) « إذا قبر أحدكم أو الانسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير » وذكر الحديث الخ .

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايمان به ولايتكلم فى كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لاعهد به فى هذه الدار ، والشرع لايأتى بما تحيله العقول ولكونه قد يأتى بما تحار فيه العقول ، فان عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا بل تعاد الروح اليه إعادة غير الاعادة المألوفة فى الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام .

(أحدها) تعلقها به فى بطن الأم جنينا (الثانى) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض (الثالث تعلقها به فى حال النوم فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه (الرابع) تعلقها به فى البرزخ فانها وان فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لايبقى لها اليه التفات ألبته ، فانه ورد ردها اليه وقت سلام المسلم وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، وهذا الرد إعاده خاصة لايوجب حياة البدن قبل يوم القيامه (الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق اليه إذا هو تعلق لايقبل البدن معه موتا ولانوما ولافسادا ، فالنوم أخو الموت .

فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة ، وليس السؤال فى القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره ، وأفسد منه قول من قال أنه للبدن بلا روح .

والأحاديث الصحيحة ترد القولين . وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ . فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر . أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً أو نسف فى الهواء أو صلب أو غرق فى البحر . وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور . وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول «ص» مراده من غير غلو ولا تقصير . فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان . فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله . بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام ، وهو أصل كل خطأ فى الفروع والأصول ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد ، والله المستعان .

فالحاصل أن الدور ثلاث . دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس . وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها فاذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ؛ صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعا .

فاذا تأملت هذا المعنى التأمل حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب أن يعلم أن النار التى فى القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها وان كان الله تعالى يحمى عليه التراب والحجارة التى فوقه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه . وهذا فى حفرة من النار ، وهذا فى روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا إلى جاره شىء من حر ناره ، ولا من

هذا إلى جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب ، لكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما .

وقد أراد الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير. وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره ، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافق الناس كما في الصحيح عنه «ص» « لولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر » .

ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت وأدركت .

وللناس في سؤال منكر ونكير هل هو خاص بهذه الأمة أم لا : ثلاثة أقوال : الثالث التوقف وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر فقال : في حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن هذه الأمة يبتلى في قبورها ، منهم من يرويه تسأل وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك ، وهذا أمر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص والله أعلم .

وكذلك اختلف في سؤال الأطفال أيضا وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع ؟ جوابه أنه نوعان : منه ماهو دائم كما قال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر (ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة) رواه الإمام أحمد في بعض طرقه .

النوع الثاني أنه مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما تقدم ذكره في الممحصات العشرة (١) .

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة فقيل أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار ، وقيل إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها وقيل على أفنية قبورهم ،

---

(١) راجع ص ٢٣

وقال مالك بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وقالت طائفة : بل أرواح المؤمنين عند الله عزوجل ولم يزيدوا على ذلك . وقيل إلى أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق وأرواح الكافرون ببرهوت بئر بحضرموت . وقال كعب أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت خد إبليس ، وقيل أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برهوت وقيل أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

قال ابن حزم وغيره مستقرها حيث كانوا قبل خلق أجسادها ، وقال أبو عمر ابن البر أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم ، وعن ابن شهـــاب أنه قال بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتى ربها كل يوم تسلم عليه . وقالت فرقة مستقرها العدم المحض ، وهذا قول من يقول إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه ، وقولهم مخالف للكتاب والسنة . وقالت فرقة مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح ، وهذا قول التناسخية منكرى المعاد ، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم ، ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها .

ويتلخص من أدلتها أن الأرواح فى البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى . وهى أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم متفاوتون فى منازلهم ، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وهى أرواح بعض الشهداء لا كلهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه ، كما فى المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ، مالى إن قتلت فى سبيل الله ؟ قال الجنة ، فلما ولى قال إلا الدين ، سارنى به جبرائيل آنفـــا ، ومن الأرواح من يكون محبوسا على باب الجنة ، كما فى الحديث الذى قال فيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوساً فى قبره ومنهم من يكون فى الأرض ، ومنهـا أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى وأرواح فى نهـر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ، كل ذلك تشهد له السنة والله أعلم .

وأما الحياة التى اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره فى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) فهى أن الله تعالى جعل أرواحهم فى أجواف طير خضر . كما فى حديث عبد الله بن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما أصيب إخوانكم يعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، الحديث رواه الإمام أحمد وأبو دواد وبمعناه فى حديث ابن مسعود رواه مسلم ، فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤهم فيه أعاضهم منها فى البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها .

ولهذا كانت نسمة المؤمن فى طورة طير أو كطير ، ونسمه الشهيد فى جوف طير . وتأمل لفظه الحديثين ففى الموطأ أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » فقوله « نسمة المؤمن » نعم الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بأن قال هى فى جوف طير خضر ، ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير فتدخل فى عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار فنصيبهم من النعم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم ، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه والله أعلم .

وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الانبياء . كما روى فى السنن ،

وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنهم كما هو لم يتغير ، فيحتمل بقاؤه كذلك فى تربته إلى يوم محشره ، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة ، والله أعلم ، وكأنه والله أعلم كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول.

قوله (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب والثواب والعقاب ، والصراط والميزان) .

ش : الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه فى كتابه العزيز . وأقام الدليل عليه ، ورد على المنكرين فى غالب سور القرآن . وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله ، فان الإقرار بالرب عام فى بنى آدم وهو فطرى كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر فان منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفى[1] بين تفصيل الآخرة بيانا لا يوجد فى شىء من كتب الأنبياء . ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد «ص» وجعلوا هذا حجة لهم فى أنه من باب التخييل والخطاب الجمهورى .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى فى غير موضع . وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان . ويقول من يقول منهم أنه لم يخبر به إلا محمد «ص» على طريق التخييل . وهذا كذب فان القيامة الكبرى هى معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من حين أهبط آدم فقال تعالى : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين — قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) .

---

(١) بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء المكسورة يعنى أنه نفى الأنبياء لجاء آخرهم .

ولما قال إبليس اللعين رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم .

وأما نوح عليه السلام فقال والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً وقال إبراهيم عليه السلام والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين إلى آخر القصة وقال رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب قال رب أرنى كيف تحيي الموتى الآية .

وأما موسى عليه السلام فقال تعالى لما ناجاه (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد وإنما آمن بموسى قال تعالى حكاية عنه (ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد) إلى قوله (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار) إلى قوله (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقال موسى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك) وقد أخبر الله فى قصة البقرة (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فى آيات من القرآن ، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا ، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين فى الدنيا والآخرة .

فعامة سور القرآن التى فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها فى الدنيا والآخرة . وأمر نبيه أن يقسم على المعاد فقال (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب) الآيات وقال تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) وقال تعالى (زعم الذين كفروا

أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) . وأخبر عن اقترابها . فقال (إقتربت الساعة وانشق القمر ، اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ـ سأل سائل بعـــذاب واقع الكافرين) إلى أن قال (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا) وذم المكذبين بالمعاد فقال (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها ـ ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ـ بل إدارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ـ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ، بل وعدا عليه حقا) إلى أن قال (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين إن الساعة آتية لاريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ـ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ـ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديد ـ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا ـ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليــــك رؤسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) .

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فانهم قالوا (أئذا كنا عظاما ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فقيل لهم فى جواب هذا السؤال إن كنتم تزعمون أنه لاخالق لكم ولارب لكم ، فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر فى صدوركم من ذلك فان قلتم كنا خلقا على هذه الصفة التى لاتقبل البقاء فما الذى يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين اعادتكم خلقا جديدا .

وللحجة تقدير آخر وهو . لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فانه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال الى حال ، ومن يقدر

على التصرف فى هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذى يعجزه فيما دونها ثم أخبر أنهم يسألون آخرا بقولهم من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت . فأجابهم بقوله (قل الذى فطركم أول مرة) فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع وهو قولهم متى هو فأجيبوا بقوله (عسى أن يكون قريباً) .

ومن هذا قوله (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم) إلى آخر السورة فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتى بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الالفاظ فى الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان . لما قدر فانه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جواباً فكان فى قوله (ونسى خلقه) ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لما أراد سبحانه تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالإنشاء الأول على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز .

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله (وهو بكل خلق عليم) فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته ، فكذلك الثانى فاذا كان تام العلم ، كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهى رميم .

ثم أكد الامر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب فقال (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) فأخبر سبحانه باخراج هذا العنصر الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الاخضر الممتلىء من الرطوبة والبرودة . فالذى يخرج الشىء من ضده وتنقاد له

مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه ، هو الذى يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهى رميم .

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الاعظم ، على الأيسر الاصغر ، فان كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير أقدر وأقدر فن قدر على قنطار كان على حمل أوقيه أشد اقتدارا ، فقال : (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) فأخبر أن الذى أبدع السموات والأرض على حالتهما وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما وسعتهما ، وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظاما قد صارت رميما فيردها إلى حالتها الأولى كما قال فى موضع آخر (لخلق السموات والأرض من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لايعلمون) وقال (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) .

ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببينات أخر ، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذى يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابد معه من آله ومعين ، بل يكفى فى خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته ، وقوله للمكون كن فاذا هو كائن كما شاء وأراده ، ثم ختم هذه الحجة بأخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله (وإليه ترجعون).

ومن هذا قوله سبحانه (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملا عن الأمر والنهى والثواب والعقاب ، وإن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء كما قال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون) الى آخر السورة ، فان من نقله من النطفة إلى العلقة ، ثم إلى المضغه ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التى هى أشده ، وأحكم خلقه غاية الإحكام وأخرجه على هذا الشكل والصورة التى هى أتم

الصور وأحسن الأشكال ، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية ، أو كيف تقتضى حكمته وعنايته به أن يتركه سدى ، فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته .

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز الذى لا يكون أوجز منه ، والبيان الجليل الذى لا يتوهم أوضح منه ومأخذه القريب الذى لا تقع الظنون على أقرب منه .

وكم فى القرآن من مثل هذا الاحتجاج كما فى قوله تعالى (أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) إلى أن قال (وإن الله يبعث من فى القبور) وقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى أن قال (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وذكر قصة أصحاب الكهف وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية وقال فيها (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها) .

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم فى المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين : منهم من يقول تعدم الجواهر ثم تعاد ، ومنهم من يقول تفرق الأجزاء ثم تجتمع ، فأورد عليهم الإنسان الذى يأكله حيوان وذلك أكله إنسان فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا ، وأورد عليهم أن الانسان يتحلل دائماً فماذا الذى يعاد أهو الذى كان وقت الموت . فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو ما خلاف جاءت به النصوص. وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض ، فادعى بعضهم أن فى الانسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شىء من ذلك الحيوان الذى أكله الثانى ، والعقلاء يعلمون أن بدن الانسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شىء باق فصار ما ذكروه فى المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة فى إنكار معاد الأبدان .

والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال فى النشأة الأولى ،

فانه كان نطفه ثم صار علقة ثم صار عظاما ولحما ثم أنشأه خلقا سويا ، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجيب الذنب[1] . كما ثبت في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال ، كل ابن آدم يبلى إلى عجب الذنب ، منه خلق ابن آدم ومنه يركب وفي حديث آخر ، أن السماء تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات ، فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه ، والمعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم ولوازم البداءة فرق ، فعجب الذنب هو الذى يبقى ، وما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها .

ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا ، علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائما في تحلل واستحالة . وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم كبيرة قال هذه تلك . وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال أن الصفات هي المغيره لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعاً كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، وروى أن عرضه سبعة أذرع ، وتلك نشأة باقية غير معرضة الآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات .

وقوله وجزاء الأعمال قال تعالى (مالك يوم الدين — يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) والدين الجزاء يقال كما تدين تدان أى كما تجازى تجازى وقال تعالى (جزاءا بما كانوا يعملون — جزاءا وفاقا — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون — من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون — من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) وأمثال ذلك ؛ وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل

---

(١) بفتح العين وسكون الجيم . والذنب بفتح النون : عظم لطيف في أصل الصلب وهو رأس العصعص وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه « ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب إن شاء الله تعالى .

وقوله «والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب » قال تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) إلى آخر السورة (يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً — وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسروراً ، إنه ظن أن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيرا — وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة — ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً — يوم تبدل غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) إلى آخر السورة (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) إلى قوله (إن الله سريع الحساب — واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة أن النبي (ص) « ليس أحد يحاسب يوم القيامة الا هلك » فقلت يارسول الله أليس قد قال الله تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا) فقال رسول الله (ص) «انما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكنه تعالى يعفو ويصفح ، وسيأتي لذلك زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق . فاذا أخذ بقائمة العرش ، فلا أدري

أفاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور ، وهذا صعق فى موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم .

فإن قيل كيف تصنعون بقوله فى الحديث أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش .

قيل لاريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث ، فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا أحدهما ، أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، كما تقدم والثانى ، أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فدخل على الراوى هذا الحديث فى الآخر . وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزى وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم . وشيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمهم الله ، وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل ، والمحفوظ الذى تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول ، وعليه المعنى الصحيح ، فان الصعق يوم القيامة لتجلى الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء ، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزى بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا ، فجعلت صعقة هذا التجلى عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلى ربه يوم القيامة ، فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله .

وروى الإمام أحمد والترمذى وأبو بكر بن أبى الدنيا عن الحسن قال سمعت أبا موسى الأشعرى يقول قال رسول الله «ص» ، يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فعرضتان جدال ومعاذير وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً دخل الجنة . ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار ، وقد روى ابن أبى الدنيا عن ابن المبارك أنه أنشد فى ذلك شعرا :

وطارت الصحف فى الأيدى منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ولا تدرى بما تقع

أفي الجنان وفوز لا انقطاع له	أم الجحيم فـــلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنها طورا وترفعهم	إذا رجعوا مخرجا من غمها قمعوا
طال البـــكاء فلم ترحم تضرعهم	فيها ولا رقيـه تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمـه	قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا

وقوله (والصراط) أي ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط كما قالت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله «ص» سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غـــير الأرض والسموات ؟ فقال : هم في الظلمة دون الجسر ، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور ويمنعهم من الوصول إليهم .

وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال (يجمع الله الناس يوم القيامة) إلى أن قال « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، قال فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك . ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه ، وإذا طفيء قام قال فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دحض ، مزلة فيقال لهم : أمضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم كالريح ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملا فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار قال فيخلصون ، فاذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد » الحديث .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله : (وإن منكم إلا واردها) ماهو ، والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال (والذي نفسي بيده لايلج النار أحد بايع تحت الشجرة) قالت حفصة

فقلت يارسول الله : أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال ألم تسمعيه قال (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورد النار لايستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لاتستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ولهذا قال تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا ــ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا) ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم . ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد فى النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

فقد بين (ص) فى حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط ، وروى الحافظ أبو نصر الوائلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال (ص) « علم الناس سنتى وإن كرهوا ذلك وإن أحببت أن لاتوقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن فى دين الله حدثا برأيك » أورده القرطبى : وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار عن يعلى بن منبه عن رسول الله (ص) قال « تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى .

وقوله « والميزان » أى ونؤمن بالميزان قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) قال القرطبى قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ،فينبغى أن يكون بعد المحاسبة ، فان المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال : وقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال . ويحتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار الأعمال الموزونة والله أعلم ،

والذى دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان روى الإمام أحمد من حديث أبى عبد الرحمن الحبلى قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول قال رسول الله (ص) ان الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتى الحافظون قال لا يارب فيقول ألك عذر أو حسنة فيبهت الرجل . فيقول لا يارب ، فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدة لاظلم عليك اليوم . فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . فيقول أحضروه فيقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لاتظلم ، قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ،قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شىء بسم الله الرحمن الرحيم .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا من حديث الليث زاد الترمذى ، ولا يثقل مع اسم الله شىء » وفى سياق آخر « توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى باجل فيوضع فى كفة » الحديث .

وفى هذا السياق فائدة جليلة وهى أن العامل يوزن عمله ، ويشهد له ماروى للبخارى عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة قال اقرؤا ان شئتم فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا) روى الامام أحمد عن ابن مسعود أنه كان يجنى سواكا من الاراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله (ص) (مم تضحكون ؟) قالوا يانبى الله من دقة ساقيه فقال (والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد) .

وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الاعمال أنفسها كما فى صحيح مسلم عن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الايمان والحمد لله تملاء الميزان) وفى الصحيح وهو خاتمة كتاب البخارى قوله صلى الله عليه وسلم (كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان الى الرحمن ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ، ويوكل به مالك . فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً » .

فلا يلتفت إلى ملحد معانه يقول : الأعمالى أعراض لاتقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فان الله يقلب الأعراض أجساما كما تقدم وكما روى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بالموت كبشاً أغر فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ويقال يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال خلود لاموت » ورواه البخارى بمعناه ، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال ، وثبت له كفتان والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الايمان بالغيب كما أخبرنا الصادق «ص» من غير زيادة ولانقصان .

ويا خيبة من ينفى وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع لخفاء الحكمة عليه . ويقدح فى النصوص بقوله : لايحتاج إلى الميزان إلاالبقال والفوال وما أحراه بأن يكون من الذين لايقيم الله لهم يوم القيامة وزناً ، ولو لم يكن من الحكمة فى وزن الأعمال إلاظهور عدله سبحانه لجميع عباده فانه لاأحد أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فكيف وراء ذلك من الحكم ما لا أطلاع لنا عليه .

فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما تعلمون) وقال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبى رحمه الله أن الحوض قبل الميزان

والصراط بعد الميزان ففي الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض . فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة ، وليس يسقط منه أحد في النار والله تعالى أعلم .

قوله (والجنة والنار مخلوقتان لاتفنيان أبدا ولاتبيدان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لها أهلا فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ماخلق له والخير والشر مقدران على العباد) .

ش : قوله إن الجنة والنار مخلوقتان فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك أهل السنة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولاينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم . فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة ، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة ، فردوا من النصوص ماخالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم .

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة (أعدت للمتقين — أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وعن النار (أعدت للكافرين — إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا) وقال تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عند جنة المأوى) وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين في حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره « ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لاأدري ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ . وإذا ترابها المسك » .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه ينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة . وافتحوا له باباً من الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها . وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : خسفت الشمس فى حياة رسول الله «ص» فذكرت الحديث وفيه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فى مقامى هذا كل شىء وعدتم به حتى لقد رأيتنى آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتمونى تقدمت .

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن عبد الله بن عباس قال انخسفت الشمس على عهد رسول الله لى الله عليه وسلم فذكر الحديث وفيه « فقالوا يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال : « إنى رأيت الجنة وتناولت عنقودا ، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء — قالوا بم يا رسول الله قال بكفرهن — قيل أيكفرن بالله — قال يكفرن العشير . ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت مارأيت خيراً قط » وفى صحيح مسلم من حديث أنس « وأيم الذى نفسى بيده لو رأيتم مارأيت لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا — قالوا وما رأيت يا رسول الله — قال رأيت الجنة والنار » .

وفى الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما نسمة المؤمن طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة » وهذا صريح فى دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة . وفى صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها

وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع فقال وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بالجنة فحفت بالمكاره فقال ارجع فانظر اليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال فنظر إليها ثم رجع فقال وعزتك لقد خشيت أن لايدخلها أحد ، قال ثم أرسله إلى النار قال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال فنظر إليها فاذا هي يركب بعضها بعضاً ثم رجع فقال وعزتك لايدخلها أحد سمع بها فأمر بها فحفت بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فنظر إليها فرجع فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها ، ونظائر ذلك في السنه كثيرة .

وأما على قول من قال إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منا فالقول بوجودها الآن ظاهر ، والخلاف في ذلك معروف .

وأما شبهة من قال إنها لم تخلق بعد ، وهي إنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت لقوله تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه — وكل نفس ذائقة الموت) وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله «ص» — لقيت ابراهيم ليلة أسرى بي فقال يامحمد اقرأ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر — قال هذا حديث حسن غريب .

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي «ص» أنه قال — من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة — قال هذا حديث حسن صحيح .

قالوا فلو كانت مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغراس معنى ، قالوا وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) .

فالجواب أنكم ان أردتم بقولكم أنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور ، وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل يرده ما تقدم من الادلة وأمثالها مما لم يذكر وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها وأنها لا يزال الله

يحدث فيها شيئا ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر فهذا حق لا يمكن رده ، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر .

وأما احتجاجكم بقوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) فأتيتم سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج اخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما . فلم توفقوا أنتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآيه وانما وفق لذلك أئمة الاسلام .

فمن كلامهم أن المراد « كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك » والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذا العرش فانه سقف الجنة . وقيل المراد إلا ملكه وقيل إلا ما أريد به وجهه ، وقيل أن الله تعالى أنزل (كل من عليها فان) فقالت الملائكة هلك أهل الأرض وطمعوا فى البقاء ، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون فقال (كل شيء هالك إلا وجهه) لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت ، وإنما قالوا ذلك توفيقا بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار أيضاً على مايذكر عن قريب إن شاء الله تعالى .

وقوله « لاتفنيان أبدا ولاتبيدان » هذا قول جمهور الأئمه من السلف والخلف وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف والقولان مذكوران فى كثير من كتب التفسير وغيرها . وقال بفناء الجنة والنار الجهم ابن صفوان إمام المعطله وليس له سلف قط لامن الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ، ولامن أئمة المسلمين ولا من أهل السنة أو نكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض ، وهذا قاله لأصله الفاسد الذى اعتقده وهو امتناع وجود ما لايتناهى من الحوادث مالم يخل من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم فى حدوث العالم ، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها فى الماضي يمنعه فى المستقبل ، فدوام الفعل عنده على الرب فى المستقبل كما هو ممتنع عنده عليه فى الماضي ، وأبو الهذيل العلاف

شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل لكن قال إن هذا يقتضى فناء الحركات فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا فى سكون دائم لايقدر أحد منهم على حركة .

وقدتقدم الاشارة إلى اختلاف الناس فى تسلسل الحوادث فى الماضى والمستقبل وهى مسئلة دوام فاعلية الرب تعالى وهو لم يزل ربا قادرآ فعالا لما يريد ، فانه لم يزل حيا عليما قديراً .

ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته من غير تجدد شيء ، وليس للأزل حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً . له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعاً عليه ، فهذا القول تصوره كاف فى الجزم بفساده .

فأما أبدية الجنة وأنها لاتفنى ولاتبيد ، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول (ص) أخبر به قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع ، ولا يتنافى ذلك قوله (إلا ماشاء ربك) .

وأختلف السلف فى هذا الاستثناء فقيل معناه إلا مدة مكثهم فى النار ، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها لا لكلهم ، وقيل إلا مدة مقامهم فى الموقف وقيل إلا مدة مقامهم فى القبور والموقف ، وقيل هو استثناء الرب ولا يفعله كما تقول : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وأنت لاتراه ، بل تجزم بضربه ، وقيل إلا بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة وهو تضعيف ومنهم من يجعل (إلا بمعنى لكن فيكون الاستثناء منقطعاً . ورجحه ابن جرير ، وقال إن الله تعالى لاخلاف لوعده وقد وصل الاستثناء بقول (عطاء غير مجذوذ) .

قالوا ونظير أن يقول أسكنتك دارى حولا إلا ما شئت أى سوى ماشئت ولكن ماشئت من الزيادة عليه ، وقيل الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم فى مشيئة الله لأنهم لايخرجون عن مشيئته ، ولاينافى ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما فى قوله تعالى (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا) وقوله تعالى (فان يشأ الله يختم على قلبك) .

وقوله (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به) ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه إن الأمور كلها بمشيئته ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن .

وقيل إن (ما) بمعنى من أى إلا ماشاء دخوله النار بذنوبه من السعداء وقيل غير ذلك ، وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله (عطاء غير مجذوذ) محكم وكذلك قوله تعالى (إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ) وقوله (أكلها دائم وظلها) وقوله (وما هم منها بمخرجين) وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد فى عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهذا الاستثناء منقطع وإذا ضممته إلى الاستثناء فى قوله تعالى (إلا ماشاء ربك) تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذى لم يكونوا فيه فى الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت خلودهم فيها .

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة . كقوله صلى الله عليه وسلم «من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت » وقوله « ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وأن تشبوا فلاتهرموا أبدا ، وأن تحيوا فلا تموتوا أبدا » وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ويقال (يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت) .

وأما أبدية النار ودوامها فللناس فى ذلك ثمانية أقوال (أحدها) أن من دخلها لا يخرج منهـــا أبد الآباد . وهذا قول الخوارج والمعتزلة (والثانى) أن أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعه النارية يتلذذون بها لموافقتهم لطبعهم ، وهذا قول إمام الإتحادية ابن عربى الطائى (الثالث) أن أهلها يعذبون فيهـــا إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون ، وهذا القول حكاه اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم وأكذبهم فيه ، وقد أكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لاتعملون ـــ بلى من كسب سيئة

أحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

(الرابع) يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد (الخامس) أنها تفنى بنفسها لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه ، وهذا قول الجهم وشيعته ولا فرق عنده فى ذلك بين الجنة والنار كما تقدم (السادس) تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً لا يحسون بألم ، وهذا قول أبى الهذيل كما تقدم (السابع) إن الله يخرج منها من يشاء كما ورد فى الحديث ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها فانه جعل لها أمداً تنتهى اليه (الثامن) إن الله تعالى يخرج منها من يشاء كما ورد فى السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له كما قال الشافعى رحمه الله ، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان .

وهذان القولان لأهل السنة ينظر فى أدلتهما فمن أدلة القول الأول منهما قوله تعالى :

قال (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربكم حكيم عليم) وقوله تعالى (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد) ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله (عطاءاً غير مجذوذ) وقوله تعالى (لابثين فيها أحقابا) وهذا القول أعنى القول بفناء النار دون الجنة منقول عن عمر وابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد وغيرهم ، وقد روى عبد بن حميد فى تفسيره المشهور بسنده إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : « لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه » ذكر ذلك فى تفسير قوله تعالى (لابثين فيها أحقابا) قالوا والنار موجب غضبه والجنة موجب رحمته ، وقد قال «ص» (لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتى سبقت غضبى ، وفى رواية تغلب غضبى) رواه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قالوا والله سبحانه يخبر عن العذاب إنه (عذاب يوم عظيم - وأليم - وعقيم)

ولم يخبر ولا فى موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم وقد قال تعالى (عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شى) وقال تعالى حكاية عن الملائكة (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) فلابد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين . فلو بقوا فى العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته .

وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة . والمعذبون فيها متفاوتون فى مدة لبثهم فى العذاب بحسب جرائمهم، وليس فى حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لانهاية له ، وأما أنه يخلق خلقاً ينعم إليهم ويحسن إليهم نعيما سرمداً فمن مقتضى الحكمة ، والإحسان مراد لذاته ، والانتقام مراد بالعرض .

قالوا وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج وأن عذابهم مقيم وأنه غرام ؛ كله حق مسلم لا نزاع فيه ، وذلك يقتضى الخلود فى دار العذاب مادامت باقية ، وإنما يخرج منها فى حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله . وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله (ولهم عذاب مقيم ـ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ـ فلن نزيدكم إلا عذاباً ـ خالدين فيها أبدا ـ وماهم منها بمخرجين ـ وما هم بخارجين من النار ـ لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ـ لا يقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها ـ إن عذابها كان غراما) أى مقيما لازما وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وأحاديث الشفاعة صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار ، وإن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل بإبقاء الله لهما .

وقوله « وخلق لهما أهلا » قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) الآية ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت يا رسول الله طـــوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدركه فقال : « أو غير ذلك يا عائشة إن الله

خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، رواه مسلم وأبو داود والنسائى . قال تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) والمراد الهداية العامة ، وأعم منها الهداية المذكورة فى قوله تعالى (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

فالموجودات نوعان أحدهما مسخر بطبعه . والثانى متحرك بارادته ، فهدى الأول لما سخره له طبيعة ، وهدى الثانى هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره .

ثم قسم الأنواع إلى ثلاثة أنواع : نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشيطان ونوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان . ثم جعله ثلاثة أصناف : صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته فيلحق بالملائكة ، وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين ، وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم ،

والمقصود أنه سبحانه أعطى الوجودين العينى والعلمى ، فكما أنه لا موجود إلا بايجاده ، فلا هداية إلا بتعليمه ، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته . وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى .

وقوله « فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه الخ مما يجب أن يعلم الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح ، فانه من يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب فان الله تعالى يقول (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وهو سبحانه المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، لكن اذا من عل انسان بالايمان والعمل الصالح لا يمنعه موجب ذلك أصلا بل يعطيه من الثواب والقرب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه وهو العمل الصالح .

ولا ريب أنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل ، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله . وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال إذا لم تكن أسباباً غير صالحة إما لفساد في العمل وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون ذلك لعدم المقتضى أو لوجود المانع ؛ وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح وهو لم يعط ذلك ابتلاء ، ابتداءاً إلا حكمة منه وعدلا . فله الحمد في الحالين وهو المحمود على كل عطاء منه فضل ، وكل عقوبة منه عدل ، فان الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها كما قال تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته) وكما قال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله أعلم بالشاكرين) ونحو ذلك ، وسيأتى لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

قوله (والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذى لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهى قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

ش : الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة ، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين كما ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو قول عامة أهل السنة وهو الوسط وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكون القدرة إلا قبل الفعل ، وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا : لا تكون إلا مع الفعل .

والذى قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة مناط الأمر والنهى وهذه قد تكون قبله ، لا يجب أن تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل .. لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة .

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال ، وهذه القدرة المذكورة في قوله (ولله على الناس حج البيت

من استطاع إليه سبيلا) فأوجب الحج على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ، ولم يعاقب أحداً على ترك الحج ، وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام .

وكذلك قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ، ولم يعاقب من لم يتق ، وهذا معلوم الفساد .

وكذا قوله تعالى (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) والمراد منه استطاعة الاسباب والآلات .

وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين (لو استطعنا لخرجنا معكم) وكذبهم في ذلك القول ، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين ، وحيث كذبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال على ما بين تعالى بقوله (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) إلى أن قال (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء) ،

وكذلك قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) والمراد استطاعة الآلات والأسباب ومن ذلك قوله «ص» لعمران ابن حصين « صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » وإنما نفى استطاعة الفعل معها .

وأما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) والمراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب والآلات لأنها كانت ثابتة وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله « ولا يطيقوا إلا ما كلفهم » إن شاء الله تعالى .

وكذا قول صاحب موسى (إنك لن تستطيع معي صبراً) وقوله (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته ، فان تلك كانت ثابتة له ألا ترى أنه عاتبه على ذلك ولا يلام من عدم

آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل ، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل لاشتغاله بغير ما أمر به ، أو لعدم شغله اياها بفعل ما أمر به .

ومن قال ان القدرة لاتكون الا حين الفعل يقولون ان القدرة لاتصلح للضدين فان القدرة المقارنة للفعل لاتصلح الا لذلك الفعل وهى مستلزمة له لاتوجد بدونه وما قالته القدرية بناء على أصلهم الفاسد وهو اقدار الله المؤمن والكافر والبر والفاجر بسواء ، فلايقولون ان الله خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان ، بل هذا بنفسه رجح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية ، كالوالد الذى أعطى كل واحد من بنيه سيفاً ، فهذا جاهد به فى سبيل الله وهذا قطع به الطريق .

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر ، فانهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر ، وأنه أعانه على الطاعة اعانة لم يعن بها الكافر ، كما قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينة فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشـــدون) فالقدرية يقولون هذا التحبيب والتزيين عام فى كل الخلق وهو بمعنى البيان واظهار دلائل الحق ، والآية تقتضى أن هذا خاص بالمؤمن ، ولهذا قال (أولئك هم الراشدون) والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) وأمثال هذه الآية فى القرآن كثير يبين أنه سبحانه هدى هذا ، وأضل هذا ، قال تعالى (من يهد الله فهو ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) وسيأتى لهذه المسئلة زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وأيضا فقول القائل : يرجح بلا مرجح ، أن كان لقوله يرجح معنى زائد على الفعل فذاك هو السبب المرجح ، وان لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل ، ثم الفعل حصل فى احدى الحالتين دون

الآخرى بلا مرجح ، وهذا مكابرة للعقل . فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما فى الاعانة والاقدار سواء امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه ، لأن القدرة التى تخص الفعل لاتكون للتارك ، وانما تكون للفاعل ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى ، وهم لما رأوا أن القدرة لابد أن تكون قبل الفعل قالوا لاتكون مع الفعل ، لأن القدرة هى التى يكون بها الفعل ، والترك ، وحال وجود الفعل يمتنع الترك فلهذا قالوا القدرة لاتكون إلا قبل الفعل ، وهذا باطل قطعاً ، فان وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودته ممتنع ، بل لابد أن يكون جميع مايتوقف عليه الفعل من الأمور الوجردية موجوداً عند الفعل ، فنقيض قولهم حق ، وهو أن الفعل لابد أن يكون معه قدرة .

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين : حزب قالوا لا تكون القدرة إلا معه ظنا منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين ، وظنا من بعضهم أن القدرة عرض فلا تبقى زمانين فيمتنع وجودها قبل الفعل ، والصواب أن القدرة نوعان كما تقدم ، نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك ، وهذه هى التى يتعلق بها الأمر والنهى ، وهذه تحصل للمطيع والعاصى ، وتكون قبل الفعل ، وهذه تبقى إلى حين الفعل اما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض وإما بتجدد أمثالها عند من يقول أن الأعراض لا تبقى زمانين ، وهذه قد تصلح للضدين ، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة ، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة ، وضد هذه العجز كما تقدم .

وأيضاً فالاستطاعة المشروطة فى الشرع أخص من الاستطاعة التى يمتنع الفعل مع عدمها ، فان الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وان لم يعجز عنه ، فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ، ولايريد بهم العسر ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه فهذا فى الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه وإن كان قد يسمى مستطيعاً .

فالشارع لا ينظر فى الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك ، فان كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية كالذى يقدر على الحج مع ضرر يلحقه فى بدنه أو ماله . أو يصلى قائماً مع زيادة مرضه أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته ونحو ذلك ، فان كان الشارع قد اعتبر فى الممكنة عدم المفسده الراجحة فكيف يكلف مع العجز ، ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفى فى وجود الفعل ، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل ، بل لابد من إحداث إعانة أخرى تقارن مثل جعل الفاعل مريداً ، فان الفعل لا يتم إلا بقدرة وارادة ، والإستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة بخلاف المشروطة فى التكليف فانه لا يشترط فيها الإرادة ، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده ، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه .

وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض ، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد لكن لا يأمره بمـــا يعجز عنه العبد ، وإذا اجتمعت الارادة الجازمة والقوة التامة لزم وجود الفعل ، وعلى هذا ينبنى تكليف ما لا يطاق ، فان من قال القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول كل كافر وفاسق قد كلف بمالا يطيق ومالا يطاق يفسر بشيئين بما لا يطاق للعجز عنه فهذا لم يكلفه الله أحداً ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده فهذا هو الذى وقع فيه التكليف كما فى أمر العباد بعضهم بعضا فانهم يفرقون بين هذا وهذا فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم ، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة .

قوله (وأفعال العباد هى خلق الله وكسب من العباد) .

ش : اختلف الناس فى أفعال العباد الاختيارية فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندى أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار ، وإضافتها إلى الخلق مجاز وهى على حسب ما يضاف الشىء إلى محله دون ما يضاف إلى محصلة وقابلتهم المعتزلة فقالوا إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات

بخالقها لاتعلق لها بخلق الله تعالى واختلفوا فيما بينهم إن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟ .

وقال أهل الحق أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهى مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لاخالق لها سواه ،فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلا كما عملت المشبهة فى إثبات الصفات فشبهوا والقدرية نفاه القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردى من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين وهم أثبتوا خالقين وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقم .

فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته . وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يدل أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار وأن حركاته لاختيارية بمنزلة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار .

وكل دليل صحيح يقيمه القدرى فانما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وأنه مريد له مختار له حقيقة ، وأن إضافته ونسبته اليه إضافة حق ، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته ، فاذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى الحق إلى حق الأخرى فانما يدل ذلك على مادل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال وأن العباد فاعلوا لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون المدح والذم .

وهذا الواقع فى نفس الأمر فان أدلة الحق لاتتعارض والحق يصدق بعضه بعضا ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ولكنها تتكافأ وتتساقط ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين ولكن اذكر شيئاً مما استدل به كل فريقين ثم أبين أنه لايدل على ما استدل عليه من الباطل .

فما استدلت به الجبرية قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى) فنفى الله عن نبيه الرمى وأثبته لنفسه سبحانه فدل أنه لاصنع للعبد قالوا والجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله (ص) « لن يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولاأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وما استدل به القدرية قوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) قالوا والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض كما قال تعالى : جزاء بما كانو يعملون ـ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ونحو ذلك .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى) فهو دليل عليهم، لأنه تعالى أثبت لرسوله (ص) رمياً بقوله (إذ رميت) فعلم أن المثبت غير المنفى ، وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة ، وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم . وما أصبت إذا حذفت ولـكن الله أصاب . وإلا فطرد قولهم . وما صليت إذ صليت ولـكن الله صلى ، وما صمت إذ صمت ، وما زنيت إذ زنيت ، وما سرقت إذ سرقت ، وفساد هذا ظاهر .

وأما ترتيب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله أهل السنة وله الحمد والمنة ، فان الباء التى فى النفى غير الباء التى فى الإثبات ، فالمنفى قوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل الجنة بعمله » باء العوض وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة كما زعمت المعتزله أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ، بل ذلك برحمة الله وفضله ، والباء التى فى قوله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) ونحوها باء السبب أى بسبب عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الـكل إلى محض فضل الله ورحمته .

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) فمعنى الآية أحسن المصورين المقدرين ، والخلق يذكر ويراد به التقدير ، وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى (الله خالق كل شيء) أى الله خالق كل شيء مخلوق ،

قد خلق أفعال العباد فى عموم — كل — وما أفسد قولهم فى إدخال كلام الله تعالى فى عموم كل الذى هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقا ، وأخرجوا افعالهم التى هى مخلوقة من عموم — كل — وهل يدخل فى عموم — كل — إلا ما هو مخلوق ، فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة فى هذا العموم ودخل سائر المخلوقات فى عمومها .

وكذا قوله تعالى (والله خلقكم وماتعملون) ولا نقول أن (ما) مصدرية أى خلقكم وعملكم إذ سياق الآية يأباه ، لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت ، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى ، وهو ماصار منحوتاً إلا بفعلهم ، فيكون ماهو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى ، ولو لم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له ، بل الخشب أو الحجر لاغير .

وذكر أبو الحسن البصرى إمام المتأخرين من المعتزلة أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضرورى وذكر الرازى أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضرورى . وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضرورى . ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضرورى يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضرورى ، وإنما وقع غلطه فى إنكاره ما مع الآخر من الحق : فانه لامنافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الاحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها (فقوله فألهمها فجورها وتقواها إثبات للقدر بقوله فألهمها وإثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية .

وقوله بعد ذلك (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) إثبات أيضاً لفعل العبد ونظائر ذلك كثيرة .

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التى فرقتهم ، بل مزقتهم كل ممزق وهى أنهم قالوا كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم

وهو خلقها فيهم فأين العدل فى تعذيبهم على ماهو خالقه وفاعله فيهم وهذا السؤال لم يزل مطروقا فى العالم على ألسنة الناس وكل منهم يتكلم فى جوابه بحسب علمه ومعرفته ، وعنه تفرقت بهم الطرق فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى ، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت باب السؤال ، وطائفة أثبتت كسبا لا يعقل جعلت الثواب والعقاب عليه وطائفة التزمت لاجله وقوع مقدور بين قادرين ، ومفعول بين فاعلين ، وطائفة التزمت الجبر ، وإن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه . والسؤال هو الذى أوجب هذا التفرق والاختلاف .

والجواب الصحيح عنه أن يقال أن مايبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقا لله تعالى فهى عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يكسب الذنب ومن عقاب السيئة السيئة بعدها فالكلام فى الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب ، يقال هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه ، فان الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لاشريك له وفطره على محبته وتألهه والإنابة إليه كما قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها) فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه . عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان مايفعله من الشرك والمعاصى ، فانه صادف قلباً خالياً قابلا للخير والشر ، ولو كان فيه الخير الذى يمنع ضده لم يتمكن منه الشر كما قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) وقال إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وقال الله عز وجل (هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والإخلاص خلوص القلب من تأله ماسوى الله تعالى وإرادته ومحبته ، فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان وأما إذا صادفه فارغا من ذلك تمكن منه بحسب فراغه . فيكون جعله مذنباً مسيئا فى هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص وهى محض العدل .

فان قلت فذلك العدم من خلقه فيه ؟ قيل هـذا سؤال فاسد ، فان العدم كاسمه لا يفتقر إلى التكوين والإحداث به فان عدم الفعل ليس أمراً وجوديا حتى يضاف إلى الفاعل ، بل هو شر محض ، والشر ليس الى الله سبحانه كما قال (ص) فى حديث الاستفتاح « لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك » وكذلك فى حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله له يا محمـــد فيقول (لبيك وسعديك والخير فى يديك ، والشر ليس اليك) وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان (إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه ، عوقبوا على ذلك بتسليط الله إياه عليهم وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الاخلاص . فالهام البر والتقوى ثمرة هـذا الاخلاص ونتيجته وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الاخـلاص .

فان قلت إن كان هذا الترك أمراً وجودياً عاد السؤال جذعا وإن كان أمراً عدمياً فكيف يعاقب على العدم المحض ، قيل ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحسبه ، فهذا قد يقال أنه أمر وجودى ، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير ، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها ، والعقوبة على الأمر العدمى هى بفعل السيئات لا بالعقوبات التى تناله بعد إقامة الحجة بالرسل فلله فيه عقوبتان ، إحداهما جعله مذنباً خاطئاً وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله . وهذه العقوبه قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته وهى فى الحقيقة من أعظم العقوبات ، والثانية العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين فى قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) فهـذه العقوبه الأولى ثم قال (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) فهذه العقوبة الثانية .

فان قيل فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والانابة والمحبـة له وحده من غير أن يخلق ذلك فى قـلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين . أم ذلك محض فضله جعله فى قلوبهم وإلقائه فيها ؟ قيل لا بل هو محض منته وفضله وهو

من أعظم الخير الذى هو بيده ، والخير كله فى يديه ، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ، ولا يتقى من الشر الا ما وقاه .

فان قيل : فاذا لم يخلق ذلك فى قلوبهم ولم يوفقوا له ولاسبيل لهم اليه بأنفسهم؟ عاد السؤال وكان منعهم منه ظلما ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك فى ملكه بما يشاء . لايسأل عما يفعل وهم يسألون .

قيل لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالما ، وانما يكون المانع ظالما اذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليه . وهذا هو الذى حرمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه . وأما اذا منع غيره ماليس بحق له . بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالما بمنعه ، فمنع الحق ظلم . ومنع الفضل والإحسان عدل . وهو سبحانه العدل فى منعة كما هو المحسن المنان بعطائه .

فان قيل فاذا كان العطاء والتوفيق احساناً ورحمة فهلا كان العمل له الغلبه كما أن رحمته تغلب غضبه .

قيل المقصود فى هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل وهذا سؤال عن الحكمة التى أوجبت تقديم العدل على الفضل فى بعض المحال وهلا سوى بين العباد فى الفضل .

وهذا السؤال حاصله لم يتفضل على هذا ولم يتفضل على ، الآخر ، وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقوله (لئلا يعلم أهل الكتاب أن لايقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين واعطائهم أجرهم قال هل ظلمكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال فذلك فضلى أوتيه من أشاء .

وليس فى الحكمه اطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته فى عطائه ومنعه بل اذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى أبصر جزءاً يسيراً من حكمته

فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه ، وتأمل أحوال محال ذلك استدل بما عليه على ما لم يعلمه .

ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا قال تعالى مجيبا لهم (أليس الله أعلم بالشاكرين) .

فتأمل هذا الجواب ترى فى ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لغرس شجره النعمة فتثمر بالشكر ، من المحل الذى لا يصلح لغرسها فلو غرست فيه لم تثمر ، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

فان قيل إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد فاذاً لا فعل العبد أصلا ؟ .

قيل العبد فاعل لفعله حقيقة ، وله قدرة حقيقية . قال تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله — فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) وأمثال ذلك وإذا ثبت كون العبد فاعلا فأفعاله نوعان : نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته فيكون صفة له ، ولا يكون فعلا كحركات المرتعش . ونوع يكون منه مقارنا لايجاد قدرته واختيارة فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسبا للعبد كالحركات الاختيارية والله تعالى هو الذى جعل العبد فاعلا مختاراً وهو الذى يقدر على ذلك وحده لاشريك له ، ولهذا أنكر السلف الجبر فان الجبر لا يكون إلا من عاجز فلا يكون إلا مع الإكراه ، يقال الأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح . وليس له إجبار الثيب البالغ أى ليس له أن يزوجها مكرهة والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار لأنه سبحانه خالق الإرادة ، والمراد قادر أن يجعله مختاراً بخلاف غيره .

ولهذا جاء فى ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر كما قال (ص) لأشج عبدالقيس « إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقان جبلت عليهما فقال الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله تعالى » .

والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختيارى والفرق بين العقاب على

الفعل الاختيارى وغير الاختيارى مستقر فى الفطر والعقول .

وإذا قيل خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة أن يقال خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم . فكما أن هذا سبب الموت . فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما .

فالحاصل أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول الله ليس هو نفس فعل الله ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد أثبت للعباد فعلا وكسبا وأضاف الخلق إلى الله تعالى والكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله منه نفع أو ضرر كما قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

قوله (ولم يكلفهم الله تعالى إلا مايطيقون ، ولايطيقون إلا ما كلفهم ، وهو تفسير لاحول ولاقوة إلا بالله ، نقول لاحيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله الا بمعونة . ولاقوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله ، وكل شيء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته ، غلبت مشيئته المشيئات كلها وعكست إرادته الإرادات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل مايشاء وهو غير ظالم أبدا ، لايسأل عما يفعل وهم يسألون) .

ش : فقوله لم يكلفهم الله تعالى إلا مايطيقون قال تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها — لانكلف نفساً إلا وسعها) وعند أبى الحسن الأشعرى أن تكليف مايطاق جائز عقلا ثم تردد أصحابه أنه هل ورد به الشرع أم لا ؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبى لهب بالإيمان : فانه تعالى أخبر بأنه لايؤمن وهذا تكليف بالجمع بين الضدين وهو محال .

والجواب عن هذا بالمنع فلا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لايؤمن ، والاستطاعة التى بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة ، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان ،

فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم فى تفسير الاستطاعة . ولا يلزم قوله تعالى للملائكة أنبئونى بأسماء هؤلاء مع عدم علمهم بذلك ولا للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتم وأمثال ذلك ، لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه بل هو خطاب تعجيز ، وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين فى قوله تعالى (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفاً بل يجوز أن يحمله جبلا لا يطيقه فيموت .

وقال ابن الأنبارى . أى لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه ، قال نخاطب العرب على حسب ما تعقل فان الرجل منهم يقول للرجل يبغضه ما أطيق النظر اليك وهو مطيق لذلك لكنه يثقل عليه ، ولا يجوز فى الحكمه أن يكلفه بحمل جبل بحيلوث فعل يثاب ولو امتنع يعاقب ، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ومنهم من يقول يجوز تكليف الممتنع عادة دون الممتنع لذاته لأن ذاك لا يتصور وجوده فلا يعقل الأمر به بخلاف هذا .

ومنهم من يقول ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه بخلاف مالا يطاق للاشتغال بضده فانه يجوز تكليفه ، وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة فى المعنى ، لكن كونهم جعلوا مايتركه العبد لا يطاق لكونه تاركا له مشتغلا بضده ، بدعة فى الشرع واللغة ، فان مضمونه إن فعل ما يفعله العبد لا يطيقه ، وهم التزموا هذا لقولهم أن الطاقة التى هى الاستطاعة وهى القدرة لا تكون إلا مع الفعل فقالوا كل من لم يفعل فعلا فانه لا يطيقه ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف ، وبخلاف ماعليه العقلاء كما تقدمت الاشارة اليه عند ذكر الاستطاعة .

وأما ما لا يكون إلا مقارناً للفعل فذلك ليس شرطاً فى التكليف ، مع أنه فى الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل وقد يحتجون بقوله تعالى (ماكانوا يستطيعون السمع - إنك لن تستطيع معى صبراً) وليس فى ذلك إرادة ما سموه استطاعة

وهو مالا يكون إلا مع الفعل . فان الله ذم هؤلاء عن كونهم لا يستطيعون السمع ، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع ، فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى ، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم إما حسداً لصاحبه وإما اتباعاً للهوى ، لا يستطيعون السمع ، وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع وليس عنده منه علم .

وهذه لغة العرب وسائر الأمم ، فمن يبغض غيره يقال أنه لا يستطيع الإحسان اليه ، ومن يحبه يقال إنه لا يستطيع عقوبته لشدة محبته له لا لعجزه عن عقوبته . فيقال ذلك للمبالغة كما يقول لأضربنه حتى يموت ، والمراد الضرب الشديد ، وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض قال تعالى (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) .

وقوله ولا يطيقون إلا ما كلفهم به إلى آخر كلامه أى ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه ، وهذه الطاقة هى التى من نحو التوفيق التى من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات .

، ولا حول ولا قوة الا بالله ، دليل على اثبات القدر ، وقد فسرها الشيخ بعدها ، ولكن فى كلام الشيخ اشكال فان التكليف لا يستعمل بمعنى الاقدار ، وانما يستعمل بمعنى الأمر والنهى وهو قال : لا يكلفهم الا ما يطيقون ، ولا يطيقون فوق ما كلفهم ، وظاهره أنه يرجع الى معنى واحد . ولا يصح ذلك لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به . لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف كما قال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ولكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا ، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج .

ويجاب عن هذا الاشكال بما تقدم أن المراد الطاقة التى من نحو التوفيق

لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، لكن فى العبارة قلق فتأمله .

وقوله « وكل شيء يجرى بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره ، يريد بقضائه القضاء الكونى لا الشرعى ، فان القضاء يكون كونياً وشرعياً ، وكذلك الارادة والأمر والاذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ونحو ذلك أما القضاء الكونى فنى قوله تعالى (فقضاهن سبع سموات فى يومين) والقضاء الدينى الشرعى فى قوله تعالى : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وأما الإرادة الكونية والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ : « ولا يكون إلا مايريد » .

وأما الأمر الكونى ففى قوله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وكذا قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فى أحد الأقوال وهو أقواها ، والأمر الشرعى فى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية وقوله (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وأما الإذن الكونى ففى قوله تعالى : (وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله) والاذن الشرعى فى قوله تعالى : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله) وأما الكتاب الكونى ففى قوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) والكتاب الشرعى الدينى فى قوله تعالى : (وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس — يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) .

وأما الحكم الكونى ففى قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين) وقوله تعالى (قال ربى احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) والحكم الشرعى فى قوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى

الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وأما التحريم الكونى ففى قوله تعالى (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض - وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) والتحريم الشرعى فى قوله (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير - وحرمت عليكم أمهاتكم) الآية.

وأما الكلمات الكونية ففى قوله تعالى (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) وفى قوله «ص» « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » والكلمات الشرعية الدينية فى قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) .

وقوله (يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبدا) الذى دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد يقتضى قولا وسطا بين قولى القدرية والجبرية ، فليس ما كان من بنى آدم ظلما وقبيحاً يكون منه ظلما وقبيحا كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم . فان ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم ، هو الرب الغنى القادر ، وهم العباد الفقراء المقهورون ، وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم ، يقولون أنه يمتنع أن يكون فى الممكن المقدور ظلم بل كل ما كان ممكناً فهو منه لو فعله عدل ، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهى . والله ليس كذلك ، فان قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) وقوله تعالى (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وقوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانو هم الظالمين) وقوله تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً) وقوله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) يدل على نقيض هذا القول .

ومنه قوله الذى رواه عنه رسوله « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » فهذا دل على شيئين (أحدهما) أنه حرم على نفسه الظلم والممتنع لا يوصف بذلك (الثانى) أخبر أنه حرمه على نفسه

كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهى ، والله ليس كذلك ، فيقال لهم هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم ، إنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه لا ما هو ممتنع عليه .

وأيضا فان قوله (فلا يخاف ظلما ولا هضما) قد فسره السلف بأن الظلم أن توضع عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسناته كما قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وأيضا فان الإنسان لا يخاف الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك وإنما يأمن مما يمكن ؛ فلما أمنه من الظلم بقوله فلا يخاف علم أنه ممكن مقدور عليه ، وكذا قوله لا تختصموا لدى إلى قوله (وما أنا بظلام للعبيد) لم يعن بها نفى مالا يقدر عليه ولا يمكن منه ، وإنما نفى ماهو مقدور عليه ممكن وهو أن يجزوا بغير أعمالهم ، فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شىء من الأفعال أصلا ، ولا مقدساً عن أن يفعله . بل كل ممكن فانه لا ينزه عن فعله حسن ولا حقيقة للفعل السوء ، بل ذلك ممتنع . والممتنع لا حقيقة له ، والقرآن يدل على نقيض هـــذا القول فى مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصح له ولا ينبغى له .

فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم ، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم ، وذلك كقوله تعالى « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون » فانه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا ، وأنكر على من حسب ذلك وهذا فعل ، وقوله تعالى « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » وقوله تعالى « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » إنكار منه على من جوز أن يسوى الله بين هذا وهذا . وكذا قوله « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» إنكار على من حسب أنه يفعل هذا واخبار أن هذا حكم سىء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه

وروى ابو داود والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم «إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو أن رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم » وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية ،وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ، ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل .

وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق ، وعملوا من عظمة الله وجلاله قدر نعم الله على خلقه وعدم القيام الخالى بحقوق نعمه عليهم إما عجزاً وإما جهلا وإما تفريطاً وإضاعة ، وإما تقصيراً فى المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه ، فان حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه ، ومتعلقة به بحيث يكون القلب عاكفا على محبته وتألهه . بل على إفراده بذلك ، واللسان محبوسا على ذكره والجوارح وقفا على طاعته ولا ريب أن هذا مقدور فى الجملة ولكن النفوس تشح به . وهى فى الشح على مراتب لايحصيها إلا الله تعالى وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه وإن أتى به من وجه آخر .

فأين الذى لاتقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه ؛ ومن ذا الذى لم يصدر منه خلاف ما خلق له ولو فى وقت من الأوقات . فلو وضع سبحانه عدله على أهل سمواته وأرضه لعذبهم بعدله ولم يكون ظالما لهم ، وغاية مايقدر توبة العبد من ذلك واعترافه ، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه . وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالما .ولو قدر أنه تاب و منها أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب : وقد كتب على نفسه الرحمه فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه ، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل به الجنة كما قال أطوع الناس لربه وأفضلهم عملا وأشدهم تعظيما لربه وإجلالا « لن ينجى أحداً منكم عمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته فقال « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فاذا كان هذا حال الصديق الذى هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين . فما الظن بسواه ، بل إنما صار صديقاً بتوفيته هذا المقام حقه الذى يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته وما ينبغى له وما يستحقه على عبده ومعرفة تقصيره .

فسحقاً وبعداً لمن زعم أن المخلوق يستغنى عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة اليها ، وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية ، فان لم يتسع فهمك لهذا فانزل الى وطأه النعم وما عليها من الحقوق ، ووازن من شكرها وكفرها فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم .

قوله (وفى دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات) .

ش : اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين : (أحدهما) ماتسبب اليه الميت فى حياته (والثانى) دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج فعن محمد بن الحسن أنه انما يصل الى الميت ثواب النفقة والحج للحاج ، وعند عامة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح .

واختلف فى العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف الى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعى ومالك عدم وصولها . وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام الى عدم وصول شىء البتة لا الدعاء ولا غيره ، وقولهم مردود بالكتاب والسنة لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى) . وقوله (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) وقوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعوا له ، أو علم ينتفع به من بعده » فأخبر أنه انما ينتفع بما كان تسبب فيه فى الحياة ، وما لم يكن

تسبب فيه الحياة فهو منقطع عنه ، واستدل المقتصرون على وصول العبادات التى لا تدخلها النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن وأنه يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه كما أنه فى الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره ؛ وقد روى النسائى بسنده عن ابن عباس عن النبى «ص» أنه قال : « لا يصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة » .

والدليل على انتفاع الميت بغير ماتسبب فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح ، أما الكتاب فقال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد دل على انتفاع الميت الدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة والأدعية التى وردت بها السنة فى صلاه الجنازة مستفيضة ، وكذا الدعاء له بعد الدفن ففى سنن أبى داود من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال كان النبى «ص» إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لأخيكم وأسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل ، وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال كان رسول الله «ص» يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا) السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية) .

وفى صحيح مسلم أيضاً عن عائشة رضى الله عنها سألت النبى «ص» كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور قال (قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) .

وأما وصول ثواب الصدقه ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن أمى أفتلت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر ان تصدقت عنها قال « نعم »

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أتى النبى (ص) فقال: يارسول الله أن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها ان تصدقت عنها قال « نعم » قال فانى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها وأمثال ذلك كثيرة فى السنة

وأما وصول ثواب الصوم ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وله نظائر فى الصحيح ، ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم ، والكلام على ذلك معروف فى كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج ففى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أمى نذرت أن تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال حجى عنها أرايت لو كان عن أمك دين أكنت قاضيته ، اقضوا الله فالله أحق بالوفاء ، ونظائره أيضا كثيرة .

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من أجنبى ومن غير تركته . وقد دل على ذلك حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينار عن الميت فلما قضاهما قال النبى صلى الله عليه وسلم « الآن بردت عليه جلدته » وكل ذلك جار على قواعد الشرع ، وهو محض القياس ، فان الثواب حق العامل فاذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته وابرائه له منه بعد وفاته ،

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية يوضحه أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت . فكيف القراءة التى هى عمل ونية[1] .

---

(١) راجع تفسير سورة (يس) من تفسير فتح البيان للعلامة صديق حسن خان فقد نشرناه قريبا فى عشرة أجزاء، وقد ألحقنا فى آخر تفسير (يس) بحثا طويلا فى وصول ثواب القراءة أو عدم وصوله الى الميت ، ثم نشرنا تفسير السورة وهذا الملحق فى رسالة مستقلة وكلاهما يطلب من مطبعة الإمام ١٣ شارع محمد كريم بجوار قسم الخليفة بالقلعة بمصر .

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى (وأن ليس الإنسان إلا ما سعى) قد أجاب العلماء بأجوبة أصحها جوابان .

(أحدهما) أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد ونكح الأزواج، وأسدى الخير ، وتودد إلى الناس ، فترحموا عليه ودعوا له وأهدوا ثواب الطاعات ، فكان ذلك أثر سعيه ، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الاسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته ، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم .

يوضحه أن الله تعالى جعل الايمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم ، فاذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه ذلك .

(الثانى) وهو أقوى منه أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره ، وإنما نفى ملكه لغير سعيه ، وبين الأمرين من الفرق ما لايخفى . فأخبر تعالى أنه لايملك إلا سعيه ، وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه . فان شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه .

وقوله سبحانه (أن لاتزر وازرة وزر أخرى — وأن ليس للانسان إلا ما سعى) آيتان محكمتان تقتضيان عدل الرب تعالى ، فالأولى تقتضى أنه لا يعاقب أحد بجرم غيره ولا يؤاخذه بجريرة غيره ، كما يفعله ملوك الدنيا ، والثانية تقتضى أنه لايفلح إلا بعمله ليقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشائخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب ، وهو سبحانه لم يقل لاينتفع إلا بما سعى وكذلك قوله تعالى (لها ما كسبت) وقوله (ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون) .

على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفى عقوبة العبد بعمل غيره . فانه تعالى قال (فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ، ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون) .

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » فاستدلال ساقط فانه لم يقل انقطع انتفاعه . وإنما أخبر بانقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فان وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل لاثواب عمله هو ، وهذا كالدين يوفيه الانسان عن غيره فتبرأ ذمته ، ولكن ليس له ما وفى به الدين.

وأما تفريق من فرق بين العبادات الماليه والبدنية . فقد ، شرع النبى (ص) الصوم عن الميت كما تقدم مع أن الصوم لا تجرى فيه النيابة . ولكن حديث جابر رضى الله عنه قال « صليت مع رسول الله (ص) عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال : بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، وحديث الكبشين الذين قال فى أحدهما اللهم هذا عن أمتى جميعاً — وفى الآخر — اللهم هذا عن محمد وآل محمد — رواه أحمد والقربه فى الأضحية إراقة الدم وقد جعلها لغيره .

وكذلك عبادة الحج بدنية وليس المال ركنا فيه ، وإنما هو وسيلة ، ألا أن المكى يجب عليه الحج إذا قدر على المشى إلى عرفات من غير شرط المال . وهذا هو الأظهر ، أعنى أن الحج غير مركب من مال وبدن بل بدنى محض كما قد نص عليه جماعه من أصحاب أبى حنيفة المتأخرين .

وانظر إلى فروض الكفايات ، كيف قام فيها البعض عن الباقين ولأن هذا ثواب وليس من باب النيابة كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه ، وله أن يعطى أجرته لمن شاء .

وأما استئجار قوم يقرأو القرآن ويهدونه للميت ، فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أئمة الدين ، ولا رخص فيه والاستئجار عن نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف ، وإنما اختلفوا فى جواز الاستئجار عن التعلم ونحوه مما فيه منفعة تصل إلى الغير .

والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله وهذا لم يقع عبادة خالصة فلا يكون له من ثوابه ما يهدى إلى الموتى . ولهذا لم يقل أحداً له يكترى من يصوم ويصلى ويهدى ثواب ذلك إلى الميت ، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز .

وفى الاخبار لو اوصى بأن يعطى شىء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لأنه فى معنى الأجرة انتهى .

وذكر الواهدى فى الغنية أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره فالتعيين باطل .

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له طوعا بغير أجرة فهذا يصل اليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فان قيل : هذا لم يكن معروفا فى السلف ولا أرشدهم النبى (ص) اليه .

فالجواب ان كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء قيل له :الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قــــراءة القرآن وليس كون السلف لم يفعلوه حجة فى عدم الوصول ، ومن أين لنا هذا النفى العام .

فان قيل فرسول الله (ص) أرشدهم الى الصوم والحج والصدقة دون القراءة،

قيل هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم . فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه . وهـذا سأله عن الصوم عنه فأذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك ، وبين وصول ثواب القراءة والذكر .

فان قيل ماتقولون فى الاهـداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قيل من المتأخرين من استحبه ، ومنهم من رآه بدعة ، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه . ولأن النبى صلى الله عليه وسلم له مثل أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، لأنه هو الذى دل أمته على كل خير وأرشدهم إليه ، ومن قال أن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله ، فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين ، ولاشك فى سماعه ولـكن انتفاعه بالسماع لايصح . فان ثواب الاستماع مشروط بالحياة فانه عمل اختيارى وقد انقطع بموته ، بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه أو لكونه لم يزدد من الخير .

واختلف العلماء فى قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال : هل تكره أم لابأس بها وقت الدفن ؟ وتكره بعده ، فمن قال بكراهتها كأبى حنيفة

ومالك وأحمد فى رواية ، قالوا لأنه محدث لم ترد به السنة والقراءة تشبه الصلاة والصلاة عند القبور منهى عنها فكذلك القراءة . ومن قال لا بأس بها كمحمد ابن الحسن وأحمد فى رواية استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضى الله عنه أنه وصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها ونقل أيضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة ، ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط وهو رواية عن أحمد أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين ، وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه فانه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا . وهذا القول لعله أقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

قوله (والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات) .

ش : قال تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم — وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) والذى عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ، وقد أخبر تعالى عن الكفار إذا مسهم الضر فى البحر دعوا الله مخلصين له الدين وإن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائما وإجابة الله لدعاء العبد مسلما كان أو كافرا وإعطاؤه سؤاله من جنس رزقه لهم ونصرة لهم ، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً ، ثم قد يكون ذلك فتنة فى حقه ومضرة عليه اذا كان كفره وفسوقه يقتضى ذلك ، وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) « من لم يسأل الله يغضب عليه » وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

الرب يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

قال ابن عقيل قد ندب الله تعالى الى الدعاء ، وفى ذلك معان : (أحدها) الوجود . فان من ليس بموجود لا يدعى ، (الثانى) الغنى فان الفقير لا يدعى ، (الثالث) السميع فان الأصم لا يدعى ، (الرابع) الكريم فان البخيل لا يدعى ، (الخامس) الرحمة فان القاسي لا يدعى ، (السادس) القدرة فان العاجز لا يدعى ،

ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها كفى، ولا النجم يقال له أصلح مزاجي لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الصنائع .

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة إلى أن الدعاء لافائدة فيه ، قالوا لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجوب المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ، وإن لم تقتضيه فلا فائدة في الدعاء وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين ويجعل الدعاء علة في مقام الخواص ، وهذا من غلطات بعض الشيوخ فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية فان منفعة الدعاء أمر أشدت عليه تجارب الأمم حتى أن الفلاسفة تقول ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات تحلل ماعقدته الأفلاك المؤثرات هذا وهم مشركون ،

وجواب الشبهة بمنع المتقدمين ، فان قولهم عن المشيئة الإلهية إما أن تقتضيه أولا فثم قسم ثالث وهو أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه ، وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه ، وكما توجب الشبع والرى عند الأكل والشرب ولا توجبه مع عدمهما ، وحصول الولد بالوطء والزرع بالبذر فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة في الدعاء كما لا يقال لافائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب فقول هؤلاء كما أنه مخالف للشرع فهو مخالف للحس والفطرة .

ومما ينبغي أن يعلم ماقاله طائفة من العلماء وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض على الاسباب بالكلية قدح في الشرع ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد اليه، وليس في المخلوقات مايستحق هذا ، لأنه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله ، فان لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر .

وقولهم إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء . قلنا بل قد

تكون اليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة . وكذلك قولهم وان لم تقتضه فلا فائدة فيه . قلنا بل فيه فوائد عظيمة من جلب منافع ودفع مضار كما نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم بل مايعجل للعبد من معرفته بربه وإقراره به وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم وإقراره بفقره اليه واضطراره اليه وما يتبع ذلك من العلوم والأحوال الزكية التي هى من أعظم المطالب .

فان قيل إذا كان إعطاء الله معللا بفعل العبد كما يفعل من إعطاء المال للسائل كان السائل قد أثر فى المسئول حتى أعطاه ، قلنا الرب سبحانه هو الذى حرك العبد إلى دعائه فهذا الخير منه وتمامه عليه كما قال عمر رضى الله عنه إنى لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء ، ولكن إذا ألهمت الدعاء فان الإجابة معه ، وعلى هذا قوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فأخبر سبحانه أنه يبتدىء بتدبير الأمر ثم يصعد اليه الأمر الذى دبره ، فالله سبحانه هو الذى يقذف فى قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سبباً للخير الذى يعطيه إياه كما فى العمل والثواب ، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه . وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه : فما أثر فيه بشىء من المخلوقات بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله قال مطرف بن عبدالله بن الشخير أحد أئمة التابعين نظرت فى هـذا الأمر فوجدت مبدأه من الله وتمامه على الله ، ووجدت ملاك ذلك الدعاء .

وهذا سؤال معروف وهو أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى أو يعطى غير ما سأل .

وقد أجيب عنه بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة (أحدها) أن الآية لم تتضمن عطية السوال مطلقاً وإنما تضمنت إجابة الداعى ، والداعى أعم من السائل وإجابة الداعى أعم من اعطاء السائل ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا فى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : من يدعونى فاستجيب له ، من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له ، ففرق بين الداعي والسائل وبين الاجابة والاعطاء ،

وهو فرق بالعموم والخصوص كما اتبع ذلك بالمستغفر ، وهو نوع من السائل فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص . وإذا علم العباد أنه قريب ، يجيب دعوة الداعي ، وعلموا قرابة منهم وتمكنهم من سؤاله علموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال ، ودعاء المسألة في حال ، وجمعوا بينهما في حال ، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة ، وقد فسر قوله (وقال ربكم أدعوني أستجب لكم) بالدعاء الذي هو العبادة والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعد ذلك (إن الذين يستكبرون عن عبادتي) يؤيد المعنى الأول .

(الجواب الثاني) إن اجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء المسئول كما فسره النبي «ص» فيما رواه مسلم في صحيحه أن النبي «ص» قال « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعه رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته أو يدخر له من الخير مثلها أو يصرف عنه من الشر مثلها قالوا يارسول الله : إذاً نكثر قال « الله أكثر » .

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لابد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا أو مثله من الخير مؤجلا أو يصرف عنه من السوء مثله .

(الجواب الثالث) أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فاذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب ، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره ، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع ، أو دفع مضار ، فان الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعينها ، وقد يعارضها مانع مع الموانع .

ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب ، وكثيراً ما تجود أدعيه دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة ، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته ، فيظن أن السر في ذلك الدعاء فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي

وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى فانتفع به ، فظن أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب وكان غالطا وكذا قد يدعوا باضطرار عند قبر فيجاب فيظن أن السر للقبر ، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجأ الى الله تعالى . فاذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب الى الله .

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه لا بحده فقط ، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً ، والساعد ساعداً قوياً ، والمحل قابلا ، والمانع مفقوداً ، حصلت به النكاية فى العدو ، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فاذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء ، أوكان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر .

قوله (ويملك كل شىء ولا يملكه شىء ، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين) .

ش : كلام حق ظاهر لا خفاء فيه ، والحين بالفتح الهلاك .

قوله (والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى) .

ش : قال تعالى (رضى الله عنهم ـ لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) وقال تعالى (من لعنه الله وغضب عليه ـ وغضب الله ولعنه ـ وباؤا بغضب من الله) ونظائر ذلك كثيرة ، ومذهب السلف وسائر الأئمة اثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذى يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك فى السمع والبصر والكلام وسائر الصفات كما أشار اليه الشيخ فيما تقدم بقوله « اذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المرسلين » .

وأنظر الى جواب الإمام مالك رضى الله عنه فى صفة الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وروى أيضا عن أم سلمة رضى الله عنها موقوفاً عليها

ومرفوعاً إلى النبي «ص» وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم « من لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه » ويأتي في كلامه أن الإسلام بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل .

فقول الشيخ رحمه الله « لا كأحد من الورى » نفي التشبيه ، ولا يقال أن الرضا إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام فان هذا نفي الصفة .

وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه ، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه ، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده ؛ فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده .

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الإحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلابد أن يقول لأن الغضب غليان دم القلب ، والرضا الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب .

ويقال له أيضاً ، وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه فان الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر اليه ، يزداد بوجوده وينقص بعدمه فالمعنى الذى صرفت اليه اللفظ كالمعنى الذى صرفته عنه سواء ، فان جاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك .

فان قالوا الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للارادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، قيل له فقيل إن الغضب والرضا الذى يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة ، فاذا كان ما يقوله في الارادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون الموجب للصرف مادل عليه عقله إذ العقول مختلفة ، فكل يقول أن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسمى ذلك فى المخلوق ، فانه لابد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى فى صفة الوجود فان وجود العبد كما يليق به ووجود البارى تعالى كما يليق به فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحى والعليم والقدير أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضا وسمى به بعض صفات عباده ، فنحن نعقل بقلوبنا معانى هذه الأسماء فى حق الله تعالى ، وأنه حق حق ثابت موجود ، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركا ، لكن هذا المعنى لا يوجد فى الخارج مشتركا إذ المعنى المشترك الكلى لا يوجد مشتركا إلا فى الأذهان ، ولا يوجد فى الخارج إلا معيناً مختصاً ، فيثبت فى كل منهما كما يليق به ، بل لو قيل غضب مالك خازن النار ، وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين ، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة حتى تغلى دماء قلوبهم كما يغلى دم قلب الإنسان عند غضبه . فغضب الله أولى

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك ، وقالوا إنما هى أمور مخلوقه منفصلة عنه ليس هو فى نفسه متصفاً بشىء من ذلك ، وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا لا يوصف الله بشىء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا ، وجميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى فى وقت دون وقت ، ولا يغضب فى وقت دون وقت ، كما قال فى حديث الشفاعة « إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون · لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك : فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً ،

فيستدل به على أنه يحل رضوانه فى وقت دون وقت ، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى ، لكن هؤلاء أحل عليهم رضواناً لا يتعقبه سخط ، وهم قالوا لا يتكلم اذا شاء ولا يضحك اذا شاء ولا يغضب اذا شاء ولا يرضى اذا شاء ، بل اما أن يجعلوا الرضا والغضب والحب والبغض هو الارادة أو يجعلوها صفات أخرى ، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته ، اذ لو تعلقت بذلك لكان محلا لحوادث .

فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية بهذا الأصل كما نفى أولئك الصفات مطلقا بقولهم ليس محلا للإعراض . وقد يقال بل هى أفعال ولا تسمى حوادث كما سميت تلك صفات ولم تسم أعراضاً ، وقد تقدمت الاشارة الى هذا المعنى ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى الصفات فى المختصر فى مكان واحد ، وكذلك الكلام فى القدر ونحو ذلك ولم يعتن فيه بترتيب . وأحسن مايرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبى «ص» لجبرائيل عليه السلام حين سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره » الحديث فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ، ثم بالكلام على الملائكه ثم وثم إلى آخره .

وقوله (ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط فى حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغض وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وايمان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله ورضى عنهم ووعدهم الحسنى كما قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً) إلى آخر السورة وقال تعالى (لقد رضى الله عن

المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) إلى آخر السورة وقال تعالى (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ــ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ــ والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ــ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) .

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاؤا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لايجعل فى قلوبهم غلالهم وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفىء فمن كان فى قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لايستحق فى الفىء نصيباً بنص القرآن .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شىء فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تسبو أحداً من أصحابى ، ولو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه ، انفرد مسلم بذكر سبب خالد لعبد الرحمن دون البخارى . فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه «لاتسبو أصحابى» يعنى عبد الرحمن وأمثاله لان عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا ، وهم أهل بيعة الرضوان . فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان وهم الذين أسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبى صلى الله عليه وسلم أهل مكة ومنهم خالد بن الوليد ، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة وسمو الطلقاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية

والمقصود أنه نهى من له صحبة أخرى أن يسب له أصحبة أولى لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . فاذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية وإن كان قبل فتح . فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة وقيل إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين وهذا ضعيف فان الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم ولم يدل على التفضيل به دليل شرعى كما دل التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التى كانت تحت الشجرة .

وأما ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فهو حديث ضعيف . قال البزار هذا حديث لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فى كتب الحديث المعتمدة ،

وفى صحيح مسلم عن جابر قال قيل لعائشة رضى الله عنها « إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله (ص) حتى أبا بكر وعمر . فقالت وما تعجبون من من هذا . انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر . وروى ابن بطة باسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال «لاتسبوا أصحاب محمد(ص) فلمقام أحدهم ساعة يعنى مع النبى (ص) خير من عمل أحدكم أربعين سنه » وفى رواية وكيع « خير من عبادة أحدكم عمره » .

وفى الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة » الحديث وقد ثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن النبى (ص) قال « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وقال تعالى (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة

العسرة (الآيات ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى وصفهم حيث قال إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء . وفى رواية وقد رأى أصحاب محمد جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر وتقدم قول ابن مسعود من كان مستنا فليستن بمن قد مات الخ عند قول الشيخ ونتبع السنة والجماعة .

فمن أضل ممن يكون فى قلبه حقد على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين ، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة . قيل لليهود من خير أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب موسى ، وقيل للنصارى من خير أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب عيسى . وقيل للرافضة من شر أهل ملتكم قالوا أصحاب محمد ، لم يستثنوا منهم إلا القليل ، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة .

وقوله ، ولا نفرط فى حب أحد منهم أى لا نتجاوز الحد فى حب أحد منهم كما تفعل الشيعة فيكون من المعتدين قال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) .

وقوله ولا نتبرأ من أحد منهم . كما فعلت الرافضة فعندهم لا ولاء إلا ببراء . أى لا يتولى اهل البيت حتى يتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهم . وأهل السنه يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التى يستحقونه بالعدل والانصاف . لا بالهوى والتعصب ، فان ذلك كله من البغى الذى هو مجاوزة الحد كما قال تعالى (وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) وهذا معنى قول من قال من السلف الشهادة بدعة والبراءة بدعة يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم أبو سعيد الخدرى والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وغيرهم ومعنى الشهادة أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به :

وقوله وحبهم دين وإيمان وإحسان لأنه امتثال لأمر الله فيم تقدم من النصوص وروى الترمذى عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » .

وتسمية حب الصحابة إيماناً مشكل على الشيخ رحمه الله لأن الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلا فى مسمى الإيمان ، وقد تقدم فى كلامه إن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان . ولم يجعل العمل داخلا فى مسمى الإيمان وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة إلا أن تكون هذه التسمية مجازاً .

وقوله : وبغضهم كفر ونفاق وطغيان . تقدم الكلام فى تكفير أهل البدع وهذا الكفر نظير الكفر المذكور فى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وقد تقدم الكلام فى ذلك .

قوله (ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا لأبى بكر الصديق رضى الله عنه تفضلا له وتقديماً على جميع الأمة) .

ش : اختلف أهل السنة فى خلافة الصديق رضى الله عنه هل كانت بالنص أو بالاختيار . فذهب الحسن البصرى وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفى والاشارة ومنهم من قال بالنص الجلى وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار والدليل على إثباتها بالنص أخبار من ذلك ما أسنده البخارى عن جبير بن مطعم قال أتت امرأة للنبى صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه ، قالت أرأيت إن جئت فلم أجدك كأنها تريد الموت قال إن لم تجدينى فأت أبابكر . وذكر . وذكر له سياق آخر أحاديث آخر وذلك نص على إمامته . وحديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » رواه أهل السنن .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها قالت « دخل على

رسول الله (ص) فى اليوم الذى بدىء فيه ، فقال ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتاباً ثم قال يأبى الله والمسلمون الا أبا بكر » وفى رواية « فلا يطمع وهذا الأمر طامع . وفى رواية قال « ادعى لى عبد الرحمن بن أبى بكر لأكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه ثم قال معاذ الله أن يختلف المؤمنون فى أبى بكر » .

وأحاديث تقديمه فى الصلاة مشهورة معروفة وهو يقول « مروا أبابكر فليصل بالناس . وقد روجع فى ذلك مرة بعد مرة ، فصلى بهم مدة مرض النبى (ص) ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله (ص) يقول « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس يفرى فرية حتى ضرب الناس بعطن . وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال على منبره « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، لايبقين فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر » .

وفى سنن أبى داود وغيره من حديث الأشعث عن الحسن عن أبى بكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم « من رأى منكم رؤيا ؟ فقال رجل أنا رأيت ميزانا أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبى بكر ثم وزن وأبو بكر فرجح أبو بكر ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ثم رفع فرأيت الكراهية فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم فقال خلافة ثم يؤتى الله الملك من يشاء » .

فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ولاية هولاء خلافة نبوة ، ثم بعد ذلك ملك . وليس فيه ذكر على رضى الله عنه لأنه لم يجتمع الناس فى زمانه بل كانوا مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك .

وروى أبوداود أيضا عن جابر رضى الله عنه أنه كان يحدث أن رسول الله (ص) قال « رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله صلى الله عليه وسلم

ونيط عمر بأبى بكر ، ونيط عثمان بعمر قال جابر فلما قمنا من عند رسول الله (ص) قلنا أما الرجل الصالح فرسول الله (ص) وأما المنوط بعضهم فهم ولاة هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه » .

وروى أبو داود أيضاً عن سمرة بن جندب أن رجلا قال يارسول الله رأيت كأن دلواً دلى من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً ثم جاء عمر فأخذ بعرقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء على فأخذ بعراقيها فانتشطت منه فانتضح عليه منها شىء» وعن سعيد بن جمهان عن سفينة قال قال رسول الله صلى الله وسلم : خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه من يشاء ، أو الملك .

واحتج من قال لم يستخلف بالخبر المـــأثور ، عن عبد الله بن عمر عن عمر رضى الله عنهما أنه قال إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، يعنى أبا بكر وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خـــير منى يعنى رسول الله (ص) قال عبدالله فعرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عيله وسلم غير مستخلف .

والظاهر والله أعلم أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب ولو كتب عهداً لكتبه لأبى بكر بل قـــد أراد كتابته ثم تركه وقال : يأبى الله والمسلمون إلا أبا بـــكر .

فكان هذا أبلغ من مجرد العهد فان النبى صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبى بكر وأرشدهم إليه بإمور متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك ، حامد له ، وعزم على ان يكتب بذلك عهداً ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك ، ثم عزم على ذلك فى مرضه يوم الخميس ثم لما حصل لبعضهم الشك هل ذلك القول من جهة المرض أو هو قول يجب إتباعه ترك الكتابة اكتفاء بمـــا علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبى بكر .

فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بياناً قاطعا للعذر ، لكن لما دلهم

دلالات متعددة على أن أبا بكر المتعين ، وفهموا ذلك حصل المقصود ولهذا قال عمر رضى الله عنه فى خطبته التى خطبها بحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر ذلك منهم أحد ، ولا قال أحد من الصحابة أن غير أبى بكر من المهاجرين أمير . وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم بطلانه .

ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عبادة لكونه هو الذى كان يطلب الولاية ، ولم يقل أحد من الصحابة قط أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على غير أبى بكر لا على ولا العباس ولا غيرهما كما قد قال أهل البدع ، وروى ابن بطة باسناده أن عمر بن عبدالعزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلى إلى الحسن فقال : هل كان النبى صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر : فقال : أو فى شك صاحبك ، نعم والله الذى لا إله إلا هو استخلفه ، لهو كان أتقى لله من أن يتوق عليها .

وفى الجملة فجميع من نقل عنه أنه طلب تولية غير أبى بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ، ولا ذكر أن غير أبى بكر أفضل منه ، أو أحق بها ، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط ، وهم كانوا يعلمون فضل أبى بكر رضى الله عنه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، ففى الصحيحين عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت : أى أى الناس أحب اليك قال : (عائشة) قلت من الرجال قال (أبوها) قلت ثم من قال (عمر) وعد رجلا .

وفى البخارى عن أبى الدرداء قال : كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى على ركبتيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، أما صاحبكم فقد غامر ، فسلم وقال : أنه كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت اليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى على فأقبلت اليك فقال ، يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثلاثاً ثم أن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فسأل اثم هو قالوا لا فأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فجعل وجه

النبى صلى الله عليه وسلم يتمعر حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه فقال يارسول الله والله أنا كنت أظلم مرتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثنى اليكم فقلتم كذبت . وقال أبو بكر صدقت وواسانى بنفسه وماله فهل أنتم تاركوا لى صاحبي » مرتين فما أوذى بعدها ، ومعنى « غامر » غاضب وخاصم ، ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله .

وفى البخارى أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح [١] فذكرت الحديث إلى أن قال واجتمع الانصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا : منا أمير ومنكم أمير . فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أنى هيأت فى نفسى كلاماً قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال فى كلامه نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، هم أوسط العرب وأعربهم أحساباً فبايعوا عمر أو أباعبيدة بن الجراح فقال عمر : بل نبايعك فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله (ص) فأخذ عمر بيده فبايعه الناس فقال قائل : قتلتم سعد بن عبادة فقال عمر : قتله الله ، والسنح العالية وهى حديقة بالمدينة معروفة بها .

قوله (ثم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه) .

ش : أى وتثبت الخلافة بعد أبى بكر رضى الله عنه لعمر وذلك بتفويض أبى بكر الخلافة اليه واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله رضى الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر ، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه قال قلت لأبى ياأبت من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : يابنى أوما تعرف ؟ فقلت لا فقال : أبو بكر قلت ثم من ؟ قال عمر . وخشيت أن يقول ثم عثمان فقلت ثم أنت فقال ما أنا إلا رجل من المسلمين وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم

(١) السنح بضم السين : طرف من أطراف المدينة بعواليها كان بينها وبين منزل النبي (ص) ميل وكان بها منزل أبى بكر .

« اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال وضع عمر على سريرة فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا برجل قد أخذ بمنكبى من ورائى فالتفت إليه فاذا هو على فترحم على عمر وقال ماخلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وذلك إنى كنت كثيرا ما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فان كنت لأرجو أو أظن أن يجعلك الله معهما .

وتقدمت حديث أبى هريرة رضى الله عنه رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزعه من القليب ثم نزع أبى بكر ثم استحالت الدلو غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص قال استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله «ص» وعنده نساء من قريش يكلمنه عالية أصواتهن الحديث وفيه فقال رسول الله «ص» ايه يا ابن الخطاب والذى نفسى بيدة مالقيك الشيطان سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » . وفى الصحيحين أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى منهن أحد فان عمر بن الخطاب منهم ، قال ابن وهب : تفسير محدثون : ملهمون .

قوله (ثم لعثمان رضى الله عنه) .

ش : أى وتثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضى الله عنهما ، وقد ساق البخارى رحمه الله قصة قتل عمر رضى الله عنه وأمر الشورى والمبايعة لعثمان فى صحيحه فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر رضى الله عنه قبل أن يصاب بالمدينة بأيام وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما اتخافا أن تكونا قد حملتما الأرض مالا تطيق قالا حملناها وأمراً هى له مطيقة ، مافيها كبير فضل ، قال أنظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لاتطيق ، قالا : لا ، فقال عمر إن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل

العراق لايحتجن إلى رجل بعدى أبداء قال فما أتت عليه إلا أربعة حتى أصيب قال إنى لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب ، وكان إذا مر بين الصفين قال استووا حتى إذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه ، فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلى عمر فقد رأى الذى أرى ، وأما نواحى المسجد فانهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر . وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال الصنع ؟ قال نعم ، قال قاتله الله فلقد أمرت به معروفاً ، والحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، وكان العباس أكثرهم رقيقاً ، فقال إن شئت فعلت أى إن شئت قتلنا فقال كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم .

فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه ، وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول لابأس عليه وقائل يقول أخاف عليه ، فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت ، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه . وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت . ثم وليت فعدلت . ثم شهادة . قال وددت أن ذلك كان كفافا لاعلى ولا لى . فلما أدبر رأى رداءه يمس الأرض، قال ردوا على الغلام قال ابن أخى ارفع ثوبك فانه أبقى لثوبك وأتقى لربك . يا عبد الله بن عمر أنظر ماعلى من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه . قال إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فاسأل فى بنى عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأدعنى هذا المال

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، قالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى .

فلما أقبل قيل هذا عبد الله قد جاء قال ارفعونى فأسنده رجـــل إليه قال ما لديك ؟ قال الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت ، قال الحمد لله ، ما كان شىء أحب إلى من ذلك ، فاذا أنا قضيت فاحملونى ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لى فادخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف ، قال ما أجد أحق بالأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شىء كهيئة التعزية له ، فان أصابت الإمارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فانى لم أعزله من عجز ولا خيانة ، وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فانهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فانهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشى أموالهم وأن يرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا إلا طاقتهم فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر فقال يستأذن عمر بن الخطاب قالت أدخلوه فأدخلوه فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه

اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم قال الزبير قد جعلت أمرى إلى على ، قال طلحة قد جعلت امرى إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمرى إلى عبدالرحمن ، فقال عبدالرحمن أيكم تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام ، لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أتجعلونه إلى والله على أن لا آلو عن أفضلكم ، قالا نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ماقد علمت ، فالله عليك لئن أمرت بك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه .

وعن سعيد بن عبد الرحمن أن المسور بن مخرمة أخبره أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا وتشاوروا قال لهم عبد الرحمن : لست بالذى أنافسكم عن هذا الأمر ، ولكنكم إن شئتم اخترت لكمَ منكم فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن فلما ولو عبد الرحمن أمرهم مال الناس إلى عبد الرحمن حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه ومال الناس إلى عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى ، حتى إذا كانت تلك الليلة التى أصبحنا فيها فبايعنا عثمان ، قال المسور بن مخرمة طرقنى عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال : أراك نائماً فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكثير نوم انطلق فادع لى الزبير وسعداً فدعوتهما له ، فشاورهما ثم دعانى فقال ادع لى عليا فدعوته فناجاه حتى ابهار الليل ثم قام على من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبد الرحمن يخشى من على شيئا . ثم قال ادع لى عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر أرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والانصار وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا أشهد عبد الرحمن ثم قال : أما بعد يا على إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبى إلا أنذر قومه الأعور الدجال ، ألا إنه أعور وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه كفر » فسره فى رواية أى كافر . وروى البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) .

وأحاديث الدجال وعيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج ومأجوج فى أيامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين فى ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم ، يضيق هذا المختصر عن بسطها .

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) وقال تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون) .

وروى البخارى عند تفسير الآية عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ، وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى ، فأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على إثرها قريباً » أى أول الآيات التى ليست مألوفة وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك ،

وكذلك خروج يأجوج ومأجوج كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجارى العادات ، وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية .

وقد أفرد الناس أحاديث أشراط الساعة فى مصنفات مشهورة يضيق عن بسطها هذا المختصر .

قوله (ولا نصدق كاهنا ولا عرافا ولا من يدعى شيئاً يخالف الكتاب والسنه وإجماع الأمة) .

ش : روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من آتى عرافا فسأله عن شىء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة » ، وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » والمنجم يدخل فى اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه فاذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول ، وفى الصحيحين ومسند الإمام أحمد عن عائشة قالت . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال « ليسوا بشىء - فقالوا يارسول الله انهم يحدثونا أحيانا بشىء فيكون حقا — فقال رسول الله صلى الله علية وسلم تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبه » ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثمن الكلب خبيث ومهر البغى خبيث وحلوان الكاهن خبيث » وحلوانه التى تسميه العامة حلاوته ويدخل فى هــــذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التى يستقيم بها مثل الخشبة المكتوب عليها ا ب ج د والضارب بالحصا والذى يخط فى الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام . وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوى والقاضى عياض وغيرهما .

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فقال « أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ، قلنا الله ورسوله أعلم ، قال (قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب) وفى صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (أربع من أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن : الفخر بالاحساب والطعن فى الانساب والاستسقاء بالأنواء والنياحة) والنصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة بالنهى عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا لذكرها .

وصناعة التنجيم التى مضمونها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره . الجبت السحر ، وفى صحيح البخارى قال : كان لأبى بكر غلام يأكل من خراجه فجاء يوما بشىء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام تدرى مم هـــذا ؟ قال وما هو ؟ قال كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته ولقينى فأعطانى بذلك فهذا الذى أكلت منه فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه .

واجب على ولى الأمر وكل قادر أن يسعى فى إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات ، ومنعهم من الجلوس فى الحوانيت والطرقات أن يدخلوا على الناس فى منازلهم لذلك ويكفى من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى فى إزالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وهؤلاء الملاعين يقولون الاثم ويأكلون السحت بإجماع المسلمين . وثبت فى السنن عن النبى صلى صلى الله عليه وسلم برواية الصديق رضى الله عنه أنه قال « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع . نوع منهم أهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له أو يدعى الحال من أهل المحال من المشائخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التى تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس وقد يكون فى هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعى النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شىء من الشريعة ونحو ذلك . ونوع يتكلم فى هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر كما هو مذهب أبى حنيفة ومالك وأحمد فى المنصوص عنه وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر وابنته وعثمان وغيرهم ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا وهل يكفر بالسحر أم يقتل لسعيه فى الأرض بالفساد ، وقال طائفة إن قتل بالسحر يقتل وإلا عوقب بدون القتل إذا لم يكن فى قوله وعمله كفر ، وهذا هو المنقول عن الشافعى وهو قول فى مذهب أحمد .

وقد تنازع العلماء فى حقيقة السحر وأنواعه ، والأكثرون يقولون أنه قد يؤثر فى موت المسحور ومرضه من غير وصول شىء ظاهر إليه وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل . واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك فانه كفر وهو من أعظم أبواب الشرك فيجب غلقه بل سده وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام ، ولهذا حكى الله عنه بقوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وقال تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) ــ الآيات إلى قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رقية وتعزيم أو قسم فيه شرك بالله فانه لايجوز التكلم به وإن أطاعته به الجن أو غيرهم وكذلك كل كلام فيه كفر لايجوز التكلم به وكذلك الكلام الذى لا يعرف معناه لا يتكلم به لإمكان أن يكون فيه إدراك لايعرف ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا بأس بالرقى مالم تكن شركا »

ولا يجوز الإستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال تعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) قالوا كان الانسى إذا نزل بالوادى يقول «أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه فيبيت فى أمن وجوارا حتى يصبح فزادوهم رهقا يعنى الإنس للجن باستعاذتهم بهم رهقاً أى إثما وطغيانا وخسرانا وشرا وذلك أنهم قالوا قد سدنا الجن والإنس فالجن تعاظم فى انفسها وتزداد كفراً إذا عاملتها الانس بهذه المعاملة . وقد قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون — قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم : ضالون ، وإنما ينزل عليهم الشياطين وقد قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) فاستمتاع الانسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وأخباره بشىء من المغيبات ونحو ذلك واستمتاع الجن بالانس تعظيمه إياه واستعانته به واستغاثته وخضوعه له .

ونوع منهم بالأحوال الشيطانية والكشوف ومخاطبة رجال الغيب وأن لهم خوارق تقتضى أنهم أولياء الله ، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين قد عصوا وهؤلاء فى الحقيقة إخوان المشركين .

والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب : حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم . وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم فى الباطن طريقا إلى الله غير طريقة الانبياء ؛ وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليا خارجا عن دائرة الرسول فقالوا يكون الرسول هو ممدا للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه والحق

أن هؤلاء من اتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى · (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) وإلا فالإنس يؤنسون أى يظهرون ويرون ، وإنما يحتجب الإنسى أحياناً لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الانس ومن ظن أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله .

وسبب الضلال فيهم وافتراق أحزاب هذه الثلاثة : عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ·

ويقول بعض الناس : الفقراء يسلم إليهم حالهم ، وهذا كلام باطل ، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وفى روايه من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد ، فلا طريقة إلا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا حقيقة إلا حقيقته ولا شريعة إلا شريعته ولا عقيدة إلا عقيدته ، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً ، ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ، ملتزماً لطاعته فيما أمر فى الأمور الباطنة التى فى القلوب والأعمال الظاهرة التى على الأبدان لم يكن مؤمناً ، فضلا على أن يكون ولياً لله تعالى ولو صار فى الهواء ومشى على الماء وأنفق من الغيب ، وأخرج الذهب من الخشب ، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل فانه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى المقربة إلى سخطه وعذابه لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ، لكن يدخلون فى الاسلام تبعاً لآبائهم كما قال تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين) ·

فمن أعتقد فى بعض البله أو المولعين مع تركه لمتابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله ، ويفضله على متبعى طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ضال مبتدع مخطىء فى اعتقاده . فان ذاك لأبله إما أن يكون شيطاناً زنديقاً أو زوكاريا (١) متحيلا ، أو مجنوناً معذوراً فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به .

ولا يقال يمكن أن يكون هذا متبعاً فى الباطن ، فان هذا خطأ أيضاً بل الواجب متابعة الرسول «ص» ظاهراً وباطناً . قال موسى بن عبد الاعلى الصدق قلت الشافعى . إن صاحبنا الليث كان يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة ، فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب .

وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البله ، فهذا لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينبغى نسبته إليه ، فان الجنة إنما خلقت لأولى الألباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم فى كتابه فلم يذكر فى أوصافهم البله الذى هو ضعف العقل ، وإنما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء(٢) » ولم يقل البله .

والطائفة الملامية وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون فى الباطن ويقصدون إخفا. المراسين (٣) ردوا باطلهم بباطل آخر ، والصراط المستقيم بين ذلك .

---

(١) هذه لفظة مولدة وفسرها فى شرح القاموس بمن يظهر النسك والعبادة ويبطل الفسق والفساد .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى . (٣) كذا بالأصل .

وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة مبتدعون ضالون وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعلا ذلك ولو عند سماع القرآن بل كانوا كما وصفهم الله تعالى (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) وكما قال الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) .

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين فأولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم . ومن علامة هؤلاء أنه حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهن بخلاف من كان قبل جنونه كافراً وفاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزيلا لما ثبت من كفره أو فسقه . وكذلك من جن من المؤمنين المتقين يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين وزوال العقل بجنون أو غيره سواء سمي صاحبه مولها أو والها لا يوجب مزيد حال بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر لا أنه يزيده أو ينقصه ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير كما أنه يمنع عقوبته على الشر ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله .

وما يحصل لبعضهم عند سماع الانغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه ، فذلك شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع . وذلك كله من الاحوال الشيطانية وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقرباً إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال حتى قال قائلهم :

هم معشر حلوا النظام وخرقوا الـ　　سياج فلا فرض لديهم ولا نفل
مجانين إلا أن سر جنونهم　　عزيز ، على أبوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال بل كافر يظن أن في الجنون سرا يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة ويكون

ذلك بسبب مااقتران به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان فيظن هذا الضال أن كل من خبل أو خرق العادة كان ولياً لله ومن اعتقد هذا فهو كافر فقد قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) فكل من تنزل عليه الشياطين لابد أن يكون عنده كذب وفجور .

وأما الذين يتعبدون بالرياضيات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً قد طبع الله على قلوبهم كما قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه » وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول إن كان عالما بها فهو مغضوب عليه وإلا فهو ضال . ولهذا شرع الله لنا أن نسأله فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدنى الذى يدعيه بعض من عدم التوحيد فهو ملحد زنديق فان موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته ؛ ولهذا قال له أنت موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ، ومحمد (ص) مبعوث إلى جميع الثقلين ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد فمن ادعى أنه مع محمد (ص) كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمه فليجدد إسلامه وليشهد شهادة الحق فانه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا عن أن يكون أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان ، وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله (ص) حين أحصر عنها وهو يود منها نظرة وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) إلى آخر السورة .

قوله (ونرى الجماعة حقاً وصوابا والفرقة زيغاً وعذاباً) .

ش : قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وقال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) وقال تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وقال تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وأن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم (إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة يعنى الأهواء كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة ، وفى رواية قالوا من هى يارسول الله قال ، ما أنا عليه وأصحابى ، فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة وأن الاختلاف واقع لا محالة وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية ، فاياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة والعامة بالمسجد ، .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزل قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال هاتان أهون، فدل على أنه لابد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، مع براءة الرسول من هذه الحال وهم فيها جاهلية ، ولهذا قال الزهرى وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، نزلوهم منزلة الجاهلية، وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية يعنى قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فان المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم

كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية وهكذا تسلسل النزاع .

والأمور التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فإنهم إن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد ، فيقر بعضهم بعضا ولا يعدى ولا يعتدى عليه وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحالوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول إما عادلون وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره والظالم الذي يعتدى على غيره وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة العلم يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذه غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يتعدى عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعى قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من خالفه مع أنه معذور .

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان : اختلاف تنوع ، واختلاف تضاد .

واختلاف التنوع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا . كما في القراآت التي اختلف فيها الصحابة رضى الله عنهم حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال كلا كما محسن، ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف

وتكبيرات العيد ونحو ذلك مما قد شرع جميعه وإن كان بعض أنوعه أرجح أو أفضل ، ثم تجد لكثير من الامه فى ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الاقامة وإيثارها ونحو ذلك وهذا عين المحرم وكذا تجد كثيراً منهم فى قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر والنهى عنه مادخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه مايكون كل من القولين هو فى المعنى القول الآخر لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس فى ألفاظ الحدود وصوغ الأدلة والتعبير عن المسميات ونحو ذلك ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ونحو ذلك .

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان إما فى الأصول وإما فى الفروع عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد والخطب فى هذا أشد لأن القولين يتنافيان لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذى مع منازعه فيه حق ما أومعه دليل يقتضى حقاً ما فيرد الحق مع الباطل حتى يبقى هذا مبطلا فى البعض كما كان الاول مبطلا فى الأصل . وهذا يجرى كثيرا لأهل السنة.

وأما أهل البدعة فالامر فيهم ظاهر ومن جعل الله له هداية ونور رأى من هذا مايبين له منفعة ما جاء فى الكتاب والسنة من النهى عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور.

والاختلاف الأول الذى هو اختلاف التنوع : الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه . وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين فى مثل ذلك إذا لم يحصل بغى ، كما فى قوله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله) وقد كانوا اختلفوا فى قطع الاشجار فقطع قوم وترك آخرون . وكما فى قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم وكما فى إقرار النبى صلى الله عليه وسلم يوم بنى قريظة لمن صلى العصر فى وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بنى قريظة

وكما فى قوله « إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

والاختلاف الثانى هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وذمت الأخرى كما فى قوله تعالى : (ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) وقوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من النار) الآيات .

وأكثر الاختلاف الذى يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لاتعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها تزيد على مامع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك وكذلك جعل الله مصدره البغى فى قوله (وما اختلف الذين أوتوه إلا من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم) لأن البغى مجاوزة الحد وذكر هذا فى غير موضع من القرآن لتكون عبرة لهذه الأمة ، وقريب من هذا الباب ماخرجاه فى الصحيحين عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذرونى ماتركتم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم » فأمرهم بالامساك عما لم يؤمروا به معللا بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية .

ثم الاختلاف فى الكتاب من الذين يقرون به على نوعين : أحدهما اختلاف فى تنزيله والثانى اختلاف فى تأويله وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض ،

فالاول كاختلافهم فى تكلم الله بالقرآن وتنزيله فطائفة قالت : هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقا فى غيره لم يقم به وطائفة قالت بل هى صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق لكنه لايتكلم بمشيئته وقدرته وكل من الطائفتين جمعت فى كلامها بين حق وباطل فآمنت ببعض الحق وكذبت

بما تقوله الأخرى من الحق وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

وأما الاختلاف فى تأويله الذى يتضمن الايمان ببعضه دون بعض ، فكثير كما فى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون فى القدر هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان فقال «أبهذا أمرتم أم بهـــذا وكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فاتبعوه ومانهيتم عنه فانتهوا » وفى رواية « ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا ، ماعرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به وفى رواية فان الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وأن المراء فى القرآن كفر » وهو حديث مشهور مخرج فى المسانيد والسنن وقد روى أصل الحديث مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن رباح الأنصارى أن عبد الله بن عمرو قال هجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب .

وجميع أهل البدع مختلفون فى تأويله ، مؤمنون ببعضه دون بعض ، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات ، ومايخالفه إما أن يتأوله تأويلا يحرفون به الكلم عن مواضعه وإما أن يقول هذا مما لانفهم معانيه ، وهو فى معنى الكفر بذلك ، لأن الايمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب كما قال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً وقال تعالى: (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى) أى إلا تلاوة من غيرفهم معناه وليس هذا كالمؤمن الذى فهم ما فهم من القرآن فعمل به واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله كما أمره النبى (ص) بقوله : فما عرفتم منه فاعملوا به ما جهلتم منه منه فردوه إلى عالمه فامتثل ما أمر به صلى الله عليه وسلم .

قوله (ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الاسلام) قال الله تعالى (إن الدين عند الله الاسلام) وقال تعالى (ورضيت لكم الاسلام دينا) وهو بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس) .

ش : ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) عام في كل زمان ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فالدين هو ماشرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله وأصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل وهو ظاهر غاية الظهور يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح وأعجمي وذكي وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان وأنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك من إنكار كلمة أو تكذيب أو معارضة أو كذب على الله أو ارتياب في قول الله تعالى أو رد لما انزل أو شك فيما نفى الله عنه الشك أو غير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتاب والسنه على ظهور دين الاسلام وسهولة تعلمه وأنه يتعلمه الوافر ثم يولى في وقته واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم . فان كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدي ووفد عبد القيس علمهم مالم يسعهم جهله مع علمه أن دينه سينتشر في الآفاق ، ويرسل اليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه ، ومن كان قريب الوطن يمكنه الاتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدريج أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لابد منه أجابه بحسب حاله وحاجته على ماتدل قرينة حال السائل كقوله قل آمنت بالله ثم استقم .

وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لايجوز أن تكون منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن احد من المرسلين إذ هو باطل وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق .

وقوله : بين الغلو والتقصير قال تعالى (قل يا أهل الكتاب لاتغلو في دينكم

غير الحق) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين — وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) .

وفى الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج رسول الله عن عمله فى السر فقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لاأتزوج النساء وقال بعضهم لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وفى البخارى سألوا عن عبادته فى السر فكأنهم تقالوها .

وذكر فى سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة فى أصحابه تبتلوا فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالاختصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين) يقول لاتسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار . وما هموا به من الاختصاء فنزلت فيهم . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم اليهم فقال « إن لأنفسكم عليكم حقاً وإن لأعينكم حقا ، صوموا وأفطروا وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا « اللهم سلمنا وأتبعنا ما أنزلت » .

وقوله « وبين التشبيه والتعطيل » تقدم إن الله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله من غير تشبيه فلا يقال سمع كسمعنا ولا بصر كبصرنا ونحوه ومن غير تعطيل فلا ينفى عنه ماوصف به نفسه أو وصفه به أعرف الناس به رسول الله (ص) فان ذلك تعطيل

وقد تقدم الكلام فى هـــذا المعنى ، ونظير هذا القول قوله ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فقوله (ليس كمثله شىء) رد على المشبهة وقوله (وهو السميع البصير) رد على المعطلة .

وقوله (وبين الجبر والقدر تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها وليست مخلوقة للعبد بل هى فعل العبد وكسبه ، وخلق الله تعالى .

وقوله « وبين الأمن والاياس » تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه ، راجياً رحمته وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد فى سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة .

قوله (فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطنا ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذى ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الايمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وخالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء ، وهم عندنا ضلال وأردياء ، وبالله العصمة والتوفيق) .

ش : الإشارة بقوله (فهذا) إلى كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا والمشبهة هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق فى صفاته وقولهم عكس قول النصارى شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلهاً وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق كداود الجوارى وأشباهه .

والمعتزلة هم : عمر بن عبيد ، وواصل بن غطاء الغزال وأصحابهما سموا بذلك لمـــا اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصرى رحمه الله فى أوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره أولئك المعتزلة ، وقيل أن واصل بن عطاء هو الذى وضع أصول مذهب المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد

تلميذ الحسن البصري ، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولبسوا فيها الحق بالباطل ، إذ شأن البدع هذا اشتمالها على حق وباطل

وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده وجعلوا مايحسن من العباد يحسن منه . وما يقبح من العباد يقبح منه ، وقالوا يجب عليه أن أن يفعل كذا ولايجوز له أن يفعل كذا ، بمقتضى ذلك القياس الفاسد فان السيد من بني آدم لو رأى عبيده تزني بامائه ولا يمنعهم من ذلك لعد إما مستحسنا للقبيح وإما عاجزا فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عباده ، والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه .

فأما العدل فستروا تحته نفي القدر وقالوا إن الله لايخلق الشر ولا يقضي به ، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جوار ، والله تعالى عادل لايجوز . ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ملكه ما لا يريده فيراد الشيء ولا يكون ولازمه بالعجز تعالى الله عن ذلك .

وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء ، ويلزمهم على القول الفاسد إن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التناقض . وأما الوعيد فقالوا إذا أوعد بعض عبيده وعيداً لايجوز أن يعذبهم ويخلف وعيده لأنه لايخلف الميعاد ، فلا يعفو عن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولايدخل في الكفر . وأما الأمر بالمعروف وهو أنهم قالوا علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنا ، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذ جاروا . وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها .

وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لايعلم صحة السمع إلا بعدها وإذا ستروا على ذلك بأدلة سمعية إنما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها فهم يقولون لا تثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل

فمنهم من لايذكرها فى الاصول إذ لافائدة فيها عندهم ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ولإيناس الناس بها لاللاعتماد عليها والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب وللمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم وبمنزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه. كما قال عمر بن عبد العزيز لا تكن ممن يتبع الحق اذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه فاذا أنت لاتثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ماتركته منه لأنك إنما اتبعت هواك فى الموضعين.

وكما أن الأفعال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته فالاعتقاد القوى يتبع أيضاً علم ذلك وتصديقه. فاذا كان ذلك تابعا للايمان كان من الإيمان كما أن العمل الصالح كان من نية صالحة كان صالحاً وإلا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الايمان كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح، وفى المعتزلة زنادقة كثيرة وفيهم من ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسنون صنعاً.

والجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان وهو الذى أظهر نفى الصفات والتعطيل وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذى ضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط فانه خطب الناس فى يوم عيد الأضحى وقال أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم فانى مضحى بالجعد بن درهم، فانه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً ثم نزل فذبحه وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

وكان الجهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكا فى ربه، وكان ذلك لمناظرته قوماً من المشركين يقال لهم السمنية فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ماسوى الحسيات، قالوا له: هذا ربك الذى تعبده هذا يرى أو يشم أو يذاق أو يلمس فقال: لافقالوا: هو معدوم فبقى أربعين يوماً لايعبد شيئا، ثم لما خلا قلبه من

معبود بإلهه نقش الشيطان اعتقاداً تحته فكرة فقال : إنه الوجود المطلق ونفى جميع الصفات واتصل بالجعد .

وقد قيل : إن الجعد كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حران وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهود المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم فقتل الجهم بخراسان قتله سلم بن أحوز ولكن كانت قد فشت مقالته فى الناس وتقلدها بعده المعتزلة ولكن كان الجهم أدخل فى التعطيل منهم لأنه ينكر الأسماء حقيقة وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات وقد تنازع العلماء فى الجهمية هل هم من الثلثين وسبعين فرقة أم لا ولهم فى ذلك قولان .

وممن قال أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة عبد الله بن المبارك ويوسف ابن اسباط ، وانما اشتهرت مقالة الجهميه من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة فانه من إمارة المأمون قووا وكثروا . فانه قد قام بخراسان مدة واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات . وردوا الامام أحمد [إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين . وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلا فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه وبين أنه لا حجة لهم فى شيء من ذلك وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إياهم جهل وظلم ، وأراد المعتصم إطلاقه ، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعد مره ، فلما ضربوه قامت الصناعة فى العامة وخافوا فأطلقوه ، وقصته مذكورة فى كتب التاريخ .

ومما انفرد به الجهم أن الجنة والنار تفنيان وأن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط ، وأنه لا فعل لأحد فى الحقيقة إلا لله وحده ، وأن الناس إنما ينسب اليهم أفعالهم على سبيل المجاز كما يقال تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ، ولقد أحسن القائل .

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة   إلى النار واشتق إسمه من جهنم

وقد نقل عن أبى حنيفه رحمه الله لما سئل عن الكلام فى الأعراض

والأجسام فقال لعن الله عمرو بن عبد هو فتح على الناس الكلام فى هذا .

والجبرية أصل قولهم من الجهم بن صفوان كما تقدم وإن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم عكس القدريه نفاة القدرة فان القدرية لما نسبوا إلى القدر انفيهم إياه كما سميت المرجئة لنفيهم الارجاء وأنه لا أحد مرجئاً لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم وقد نسمى الجبرية قدرية لأنهم دلوا فى اثبات القدر وكما يسمى الذين لا يجزمون بشىء من الوعد والوعيد بل يغلون فى أرجاء كل أمر حتى الأنواع فلا يجزمون بثواب من تاب كما لايجزم بعقوبة من لم يتب وكما لا يجزم لمعين وكانت المراجئة الأولى يرجئون عثمان وعليـــا ولا يشهدون بايمان ولا كفر .

وقد ورد فى ذم القدرية أحاديث فى السنن . منها ما روى أبو داود فى سننه من حديث عبد العزيز أبى حازم عن أبيه عن ابن عمر عن النبى «ص» قال : « القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

وروى فى ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة تكلم أهل الحديث فى صحة رفعها والصحيح أنها موقوفة بخلاف الاحاديث الواردة فى ذم الخوارج . فان فيهما فى الصحيح وحده عشرة أحاديث أخرج البخارى منها ثلاثة وأخرج مسلم سائرها ولكن شبههم للمجوس ظاهر بل قولهم أردى من قول المجوس فان المجوس اعتقدوا وجود خالقين والقدرية اعتقدوا خالقين .

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الامة كما ذكر البخارى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب قال : وقعت الفتنة الاولى يعنى مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً . ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً . ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع والناس طباخ أى عقل وقوة فالخوارج والشيعة حدثوا فى الفتنة الاولى والقدرية والمرجئة فى الفتنة الثانية والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثه فصاو هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانو شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة أولئك غلوا فى على وأولئك كذبوه وأولئك غلوا فى الوعيد

حتى خلدوا بعض المؤمنين وأولئك غلوا فى حتى نفوا بعض الوعيد أعنى المرجئة وأولئك غلوا فى التنزيه حتى نفوا الصفات وهؤلاء غلوا فى الاثبات حتى وقعوا فى التشبيه وصاروا يبتدعــون الدلائل والمسائل ماليس بمشروع ويعرضون عن الامر المشروع وفيهم من استعان على ذلك بشىء من كتب الاوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئين . فانهم قرأو كتبهم فصار عندهم من ضلالاتهم ما أدخلوه فى مسائلهم ودلائلهم وغيروه فى اللفظ تارة وفى المعنى أخرى فلبسوا الحق بالباطل وكتموا حقاً جاء به نبيهم ، فتفرقوا واختلفوا وتكلموا حينئذ فى الجسم والعرض والتجسيم نفياً وإثباتاً .

وسبب ضلال هـذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه فقال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرفق بكم عن سبيله) وقال تعالى :(قل هذه سبيلى أدعو ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعنى) فوجد لفظ صراطـه وسبيله وجمع السبل المختلفة له ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله «ص» خطا وقال ـ هذا سبيل الله ـ ثم خط خطوطاً عن يمينــه وعن يساوره وقال ـ هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه ــ ثم قرأ . (وأن هذا صراطى مستقيه فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلـكم وصاكم به لعلـكم تتقون) ومن ههنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هـداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ولهذا شرع الله تعالى فى الصلاة قراءة أم القرآن فى كل ركعة اما فرضاً وإيجابا على حسب اختلاف العلماء فى ذلك لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على أشرف المطالب وأجلها . فقد أمرنا الله تعالى أن نقول : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقدثبت عن النبى(ص) أنه قال «اليهودمغضوب عليهم والنصارىضالون وثبت فى الصحيح عن النبى (ص) أنه قال ــ لتتبعن سنن من كان قبلـكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ــ قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن .ــ :.

قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى فلهذا نجد أكثر المنحرفين من أهـــل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبه من اليهود حتى أن علماء اليهود يقرأون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجحونهم على النصارى وأكثر المنحرفين من العباد من المتصوفه ونحوهم فيه شبه من النصارى . ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك ، وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله ، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون فى ذم السماع والوجـــد وكثير من الزهد والعبادة التى أحدثها هؤلاء .

وللفرق الضلال فى الوحى طريقتان : طريقة التبديل وطريقة التجهيل ، أما أهل التبديل فهم نوعان أهل الوهم والتخييل . وأهل التحريف والتأويل .

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للامر فى نفسه لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون به أن الله شىء عظيم كبير وأن الابدان تعاد وأن لهم نعيما محسوساً وعقاباً محسوساً وإن كان الامر ليس كذلك لان مصلحة الجمهور فى ذلك وإن كان كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الاصل .

. . . . .

وأما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون أن الانبياء لم يقصدا بهذه الاقوال ما هو الحق فى نفس الامر وأن الحق فى نفس الامر هو ماعلمناه بعقولنا ثم يجتهدون فى تأويل هـذه الاقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات . ولهذا كان أكثرهم لايجزمون بالتأويل بل يقولون يجوز أن يراد كذا وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

أما أهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم : أن الانبيـاء واتباع الانبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الانبياء ويقولون يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله لا يعلمه

جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء فضلا عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأن محمداً (ص) كان يقرأ : (الرحمن على العرش استوى — إليه يصعد الكلم الطيب — مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وهو لايعرف معانى هذه الآيات بل معناها الذى دعت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى ويظنون أن هذه طريقة السلف .

ثم منهم من يقول المراد بها خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ولايعرفه أحد كما لايعلم وقت الساعة ومنهم من يقول بل تجرى على ظاهرها وتحمل على ظاهرها ومع هذا أنها تحمل على ظاهرها وهؤلاء يشتركون فى القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التى يجعلونها مشكلة أو متشابهة ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير مايجعله الفريق الآخر مشكلا .

ثم منهم من يقول لم يعلم معانيها ومنهم من يقول علمها ولم يبينها بل أحال فى بيانها على الأدلة العقلية وعلى من يجتهد فى العلم بتأويل تلك النصوص فهم مشتركون فى أن الرسول لم يأت بها على مايوافق معقولنا وأن الأنبياء وأتباعهم لايعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات ، وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل .

نسأل الله السلامة والعافية ، من هذه الأقوال الواهية ، المفضية بقائلها إلى الهاوية ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .



الفهرس